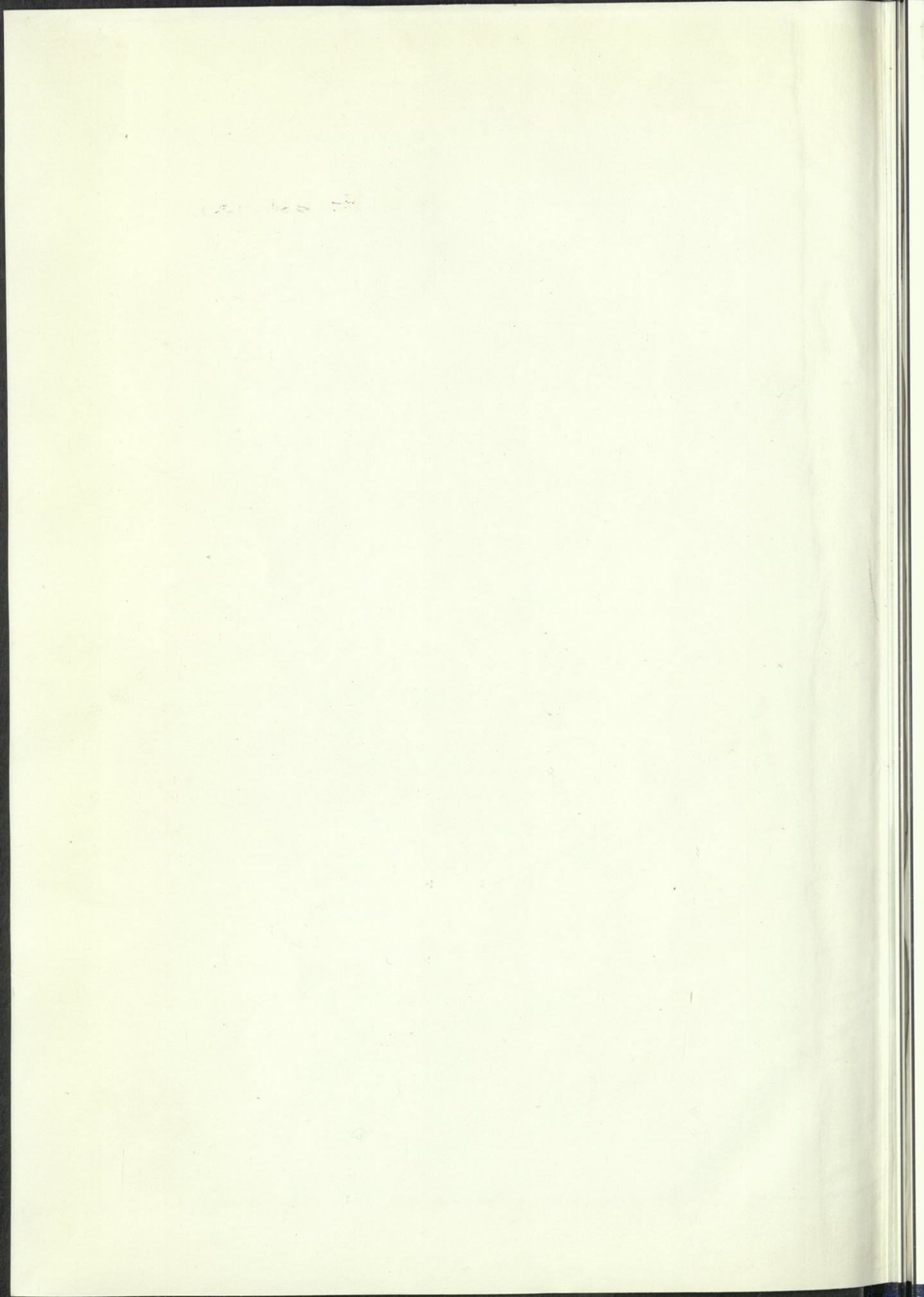
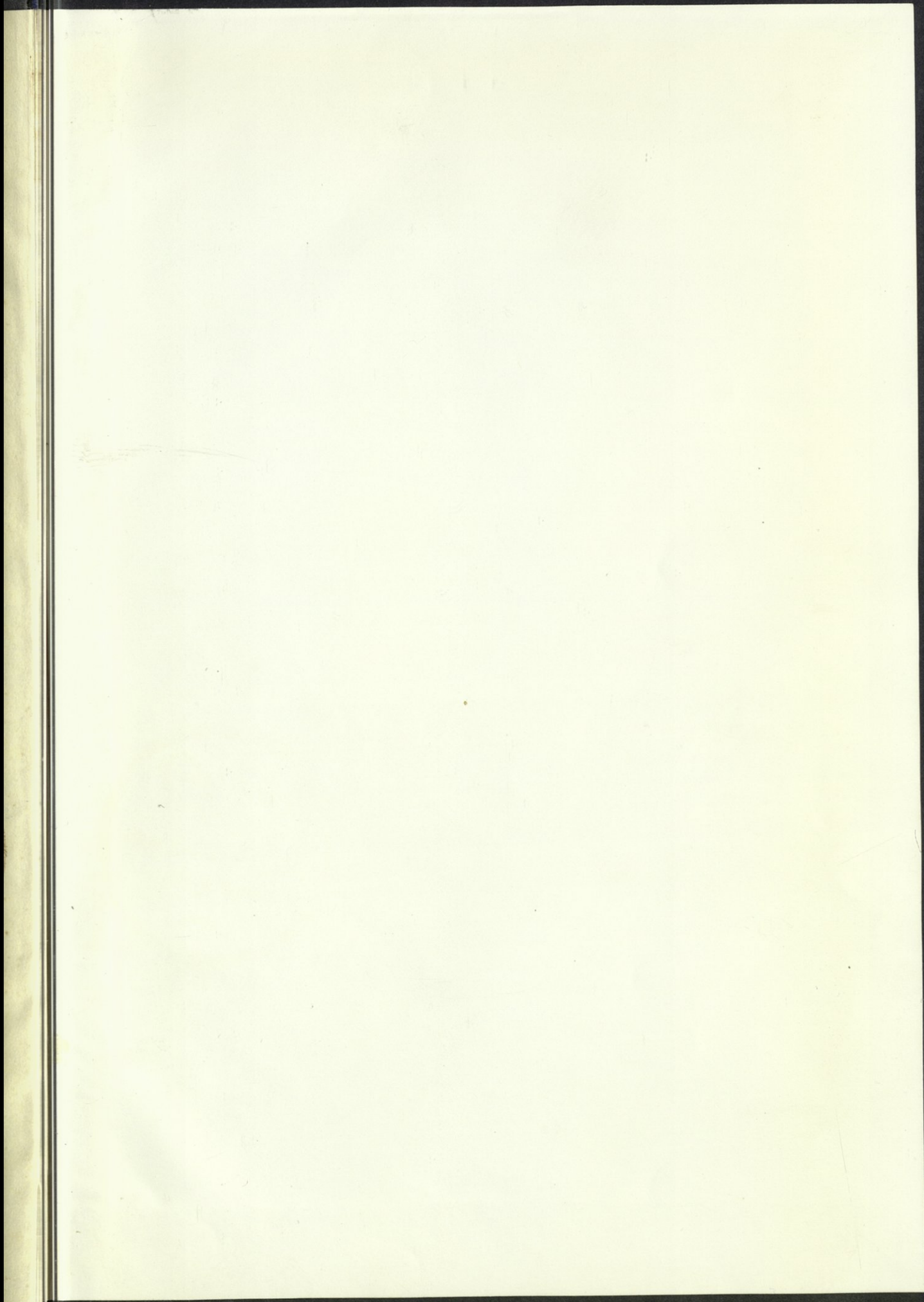


A. U. B. LIBRARY





صفحات من تاريخ الصراع بين العصبية والدين

297.09
N16m A
C.1

الموالي في العصر الأموي

ومذيل يبحث عن الرق والولاء في الإسلام

بقلم

محمد الطيب النجار

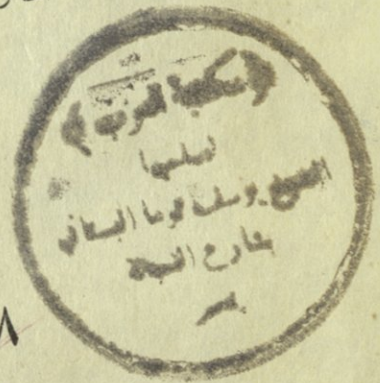
الحائز لدرجة الأستاذية في التاريخ الإسلامي
وأستاذ التاريخ بالأزهر الشريف

[الطبعة الأولى]

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار النيل للطباعة



تذکرہ قریب خانہ و خاندان علی بن ابی طالب

تذکرہ الاسخفا انعم الله علیہم

وہابیہ و مہتممہ و کرامہ و شہداء و شہداء

بیتنا البیتا

بیتنا البیتا و بیتنا البیتا و بیتنا البیتا



[مکتبہ]

۱۳۶۱ - ۱۳۶۲



سازمان اسناد و کتابخانه ملی

کتابخانه ملی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم الباعث الفير الاستاذ الكبير أصغر السائب
وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

- ١ -

أما بعد فإني أشعر — وأنا أقدم هذا البحث القيم الطريف لصاحبه الأستاذ الشيخ محمد الطيب النجار — أنى أقدم في حقيقة الأمر عهداً جديداً من عهود الأزهر الشريف ، وأورخ فترة من عمره المجيد ، هي فترة تحول وانتقال فتح بها لنفسه أبواب الحياة الجديدة ودخل إليها مشرفاً على مقوماتها ، مشاركاً في بنائها ، آخذاً بمنهج البحث العلمي وطرائقه ؛ حراً جريئاً موقفاً في وصل الثقافة الإسلامية الخالدة بما تزخر به الدنيا من حديث في العلم ، والأدب ، والقانون ، والفلسفة ، والفن ، حتى لا يبقى منذ الآن محايداً منعزلاً ، ينكر الحياة أو تنكره الحياة ، في حين أن ثقافته الأصلية أرحب صدرأ وأوسع أفقا من كل ما يتصايح به الناس هذه الأيام من كلمات الإنسانية والعالمية والبشرية وما إليها ، وهي كلمات تقصر معانيها عن مغزى هذه الدعوة الحميدة التي كانت للناس كافة ، خيراً وحرية ، وعدالة وسلاماً .

نعم شعر الأزهر الشريف أنه من العقوق أن يعفى على ماضيه الجليل الذي كان منذ قرون عشرة موئل العلم والفلسفة والدين يحفظها ويدرسها ، ويفتح في ميادينها ، ويبيح فيها من الفروض ما قد يتجاوز حد الخيال أو الوهم ، غلوأ في العمق ، وذهاباً مع الفكر إلى أبعد آماده . ثم يدير الجدل ويشقق الكلام

- ١ -

مفرعاً ، مداوراً ، جاهداً حتى ينضيه الغوب ، فلا يئأس ولا ينثنى ، بل يعاود ويعاود
ويسجل آثاره متوناً وشروحاً وحواشي وتقارير ويتركها للأجيال تقرأ فيها جهود
الجبارة الصابرين ... شعر بذلك . وشعر بشيء آخر ، هو أن هذه الآثار الجليلة قد
تصعب على الناشئين المترفين من الطلاب ، وقد تتجافى — ولو في أساليبها — عن
مقتضيات العصر الحديث . وإذا لا بد من جهد جديد يقرب بين الحاضر والغابر ،
ويصل بين التليد والطريف ، ويبعث هذه الكنوز الذهبية حللاً منشرة مألوفة
للناس ، مؤثرة في الحياة ، عاملة على تقويمها وصلاحها ، ملتقية مع ما يتدعه الغربيون
من نظريات ومخترعات ؛ فلا جمود ، ولا تحلف ، وإنما هو التعاون والتنافس في سبيل
الإنسانية الرشيدة والمثل الكاملة إن شاء الله .

— ٢ —

وإذا كان الأمر كذلك — وهو كذلك طبعاً — فلا بد أن يصطنع الأزهر
الشريف مناهج الجامعات المصرية وإن لم تكن غريبة على تاريخه المجيد .
وسبيله في ذلك من حيث الموضوع أن يقبس من أصول ثقافته وفروعها ما يلائم
مطالب الحضارة ورقبها ، ويسد حاجتها وعوزها ، ويضيف إليها ما لا يتعارض
ومصادرها الإسلامية السمحة الكريمة . وأما من حيث الشكل فهو عرض ذلك
في نظام منطقي متواتر سليم ، وفي أسلوب علمي واضح جميل تهفوله النفوس فتقرؤه
علماً نافعاً وفناً رفيعاً ممتعاً ، يفيض على الحياة الفردية والاجتماعية هدى ورشاداً
وتقدماً وسداداً .

ولو أسرع الأزهر خطاه ، وتقدم من بعيد إلى الحياة الحديثة ، يطاوها ويلابس
جوانبها رائداً سباقاً لغنيننا به عن هذه الجامعات ، أو لكان هو أولى جامعاتنا
المدنية المعاصرة .

ومع ذلك فلم يتخلف الأزهر طويلاً حتى أخذ بنظام الجامعات وفتح أبواب

الدراسات العليا ، وفرض على الطلاب بحوثاً جديدة يتقدمون بها للظفر بالدرجات العلمية الممتازة ؛ وبذلك يذكي فيهم روح البحث والاستقلال وينمي فيهم الحرية الفكرية ، ويخدم بذلك العلوم والطلاب والحياة والأحياء .

نعم يخدم الحياة والأحياء ، فيجب أن يكون الأزهر الشريف فكرة وقيامه على العالم الإسلامي أو العالم كله يتولى أمره ، ويكمل نقصه ، ويعد نفسه مسئولاً أمام الله عن سلامته الروحية والمادية ؛ فيستبق رجاله إلى رعاية المسلمين في أطراف المعمورة يقومون دينهم وديناهم ، ولا يققون عند حدود الوظيفة ورسومها التي تحبس جهودهم ، وتغل نفوسهم ، وتفقد همهم ما هم أهل من كرامة وزعامة تضعهم في الطليعة أمام الناس جميعاً .

فهل يسمح لى حضرات السادة الأجلاء رجال الأزهر الشريف أن ألقيهم إلى أن كثرة من المسلمين في أرجاء العالم لا تحسن أداء الشعائر الدينية ، وأن كثرة المسلمين لا يعرف بعضها بعضاً ، وأن هذا التعارف عن طريق الكتاب والسنة واد خلق مرزقه البدع والمذاهب ، وأن الكرب والبلاء يحدقان بكيان العالم الإسلامي ، وأن على رجال الأزهر من جراء ذلك واجباً خطيراً لا يليق التقصير في أدائه ، ولا تنفع مع هذا التقصير المعاذير ؟!

— ٣ —

كل ذلك وغيره كثير جداً ذكرته وأنا أقرأ ثم أقدم هذا البحث لشيخ شاب من متخرجي الأزهر الحديثين في كلية أصول الدين . ولا أستطيع أنا ، ولا يستطيع أحد ، أن يقدر فرحي وابتهاجي كلما لقيت هذا الجيل الجديد ، واستمعت إليه ، وتبينت منه مزاجاً علمياً عقلياً يجمع بين جلال القديم خلقاً وفضلاً وعلماً ، وبين جمال الحديث ذوقاً ، وسماحة ، وبياناً ... ثم ماذا ؟ ثم فهماً لحرية البحث العلمي فهماً سليماً لا يعدو على الأصول المقررة جرياً وراء الصيت الزائف ، واصطناعاً للبطولة الباطلة على حساب الحق العلمي والقدسية الدينية الصحيحة .

— ٤ —

نعم تحققت من كل هذا ومن خير منه حين زارني الأستاذ محمد الطيب النجار
يعرض على في حياء مؤدب رقيق أن أقرأ رسالته هذه وأن أقدمها للقراء ، فلم أتردد .
وكان من الواجب على للعلم وللشباب الشيخ ورسالته ، أن أحاول ذلك واثقاً من
أن حسن ظنه بي يربو كثيراً جداً على كفايتي لما ينبغي ، ولعل أسماء بعضنا ألمع وأزهى
من حقيقتنا .

موضوع الموالى من الموضوعات التي تستحق البحث من جوانبها السياسية ،
والاجتماعية ، والأدبية ، والدينية ، والعلمية ؛ وبخاصة في التاريخ الإسلامى بعد ما كان
للموالى قبل الإسلام تاريخ يونانى ، روماني ، عربي ؛ ثم جاء الإسلام يمثل معهم دوره
فكان رفيقاً ينزع إلى حد نظام الرق وكسر شوكته ، ورفع مهاتته عن بنى الانسان .
ولذلك كان الموالى في ظل هذا الذين السمع عنصراً عاملاً في بناء الحضارة الإسلامية ،
متقدماً سباقاً ينعم بهذا الأصل القرآنى الكريم : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »
وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وعندى أن ظفر الموالى بهذا الحق الطبعى كان في الدولة الاسلامية إما حقيقة
واقعة ، وإما حقاً مقررأ جار عليهم فيه — أحياناً — الحكم لا الإسلام . وذلك
هو ما حملهم على التشبث به ولو حاربوا الدولة في سبيله وأزالوا بناءها الشامخ العتيد .
نظر الأستاذ محمد الطيب النجار إلى موضوع الموالى من جوانبه كلها ، وتمثل
لموضوعه منهجاً سليماً ، وأقدم عليه يعالجه دارساً متأنياً مستقصياً ، لا يزدهيه جديد
يشتط به إلى مجاوزة العقول ، ولا يعميه تعصب يقف به دون الحق ؛ فلام من قصر
من المسلمين في حق الموالى : وعرف لهم فضلهم ، وسجل ما أثرهم في جوانب العلم ،
والأدب ، والدين .

وإذا كان المنهج التاريخى في مثل هذه الأبحاث هو خير المناهج وأمثلها فقد
سلكه الباحث ، وها هو ذا يتتبع موضوعه قبل الإسلام ، وفي حياة الرسول وخلفائه

الراشدين . وكيف كان مقتل عمر بن الخطاب نقطة تحول في صلة العرب بالموالي ؛ ثم ما كان للعصبية من آثار في حال الموالي أيام الأمويين ، وما كان للأوضاع السياسية والاقتصادية من انحراف في معاملتهم عن النهج الواضح الأصيل ، ومحاوله عمر بن عبد العزيز أن يعود بهم إلى عهد ابن الخطاب . ولكنه كان شذوذاً بين آل مروان فلم يمت حتى ساد ذلك الطابع الأموي . وكان الموالي لذلك أعواناً على ثل عرشهم وزوال دولتهم ونقلها إلى العباسيين .

ثم عرض شيخنا الشاب إلى الإلمام بنشاط الموالي في الجانب الثقافي ، وأشار إلى رجالهم المعدودين في فروع العلم والأدب ، وانتقل إلى بذور الشعوبية في العصر الأموي ، ثم أخذها ذلك الشكل العملي مع التأثيرين على بني أمية وظهورها سافرة صريحة في القرن الثاني .

وهنا ينتهي الجانب التاريخي المسلسل ، ويقف الباحث آخر الأمر ووقفات نقدية موقفة حاول فيها ما استطاع أن ينتصف للموالي من الأمويين ، وأن ينتصف للأمويين من التاريخ ؛ ثم وازن بين منزلة الموالي في ظل الإسلام ومنزلتهم في غيره ، وأنهى قوله بتوضيح نظرة الإسلام في الرق والولاء وما يتصل بهما من أحكام .

— ٤ —

تلك إشارة خاطفة إلى موضوعات الرسالة ومنهجها لا تستطيع أن ترسم جوهرها ولا قيمتها ، وإنما ذلك من عمل القارئ الذي لا يسعه إذا بدأ في الرسالة أن ينصرف عنها دون استيعاب فصولها والاستمتاع بمزاياها ؛ وذلك لما خضعت له من تنسيق حكيم ، ومادة سائغة ، وأسلوب علمي واضح دقيق .

أجل كانت أهم المسائل تدرس بين يدي الباحث في بيئتها الدينية الأزهرية ، فاستطاع لذلك أن يكون الفصيل فيها وأن يتعقب من سبقه من الباحثين مؤدباً كريماً ، وأن يوسع أفق بحثه ؛ فيتناول مقوماته الأخرى السياسية والأدبية والاجتماعية ، وأن يكون في تعبيره أدبياً عالماً حراً عادلاً .

ويسرنى ويسر الأستاذ الجليل الشيخ الطيب النجار أن أسجل هنا أن الأب وابنه يمثلان طبقتين من علماء الأزهر الشريف ، طبقة جليلة تهج نهج الدقة والاحتياط حين تكتب في المسائل العلمية ، وبخاصة الشائكة الغتيدة منها كعلم الأصول يمثلها الوالد في رسالته التى قرأت قسماً منها إلى الآن وهى « تيسير الوصول إلى علم الأصول » ؛ وطبقة نشيطة يمثلها الابن ، وهى التى تستعد لتسلم الراية فى نشاط ويسر كأنها أفلتت من تخرج السابقة أو كانت مثال عصرها المستقبل الجديد ... فليطمئن الوالد وليهنأ الولد ، ولتكن منهما سلالة علمية مطردة إن شاء الله تعالى .

والمعجب للباحث الأزهرى الجديد حين تراه يحرص على المراجع ، فلا يكتفى بالقديم دون الحديث ولا بالمطبوع دون المخطوط ، ولا يكتفى بالعربى دون الأجنبى ، فإذا ما أعوزته معرفة اللغات الأوربية لجأ إلى من ينقل له عنها ؛ فهل اقتنع الأزهر أن دراسة اللغات الأجنبية ضرورة ملحة للقيام بمهمته الثقافية والدينية ؟

— ٥ —

هذه رسالة يجب أن تخرج إلى السوق العلمية لتلقى جزاءها وتؤدى واجبها الثقافى ؛ ولا يصح أن تحبس فتتسى أو تنشر بعد أوانها أو تصير نهباً للعادين . قلت ذلك للأستاذ محمد الطيب النجار بعد ما قرأت رسالته وأشرت عليه أن يعقبها يبحث آخر عن الموالى فى الدولة العباسية ؛ وأنا واثق أنه ، إن فعل ، سيجد فى مجال البحث أبواباً طريفة ، وتغيراً عجيباً يعرف منه كيف يدل الله من شعب لآخر . والله يقلب الليل والنهار .

وإذا كان لى أو على أن أقول شيئاً بعد ما قدمت فإنى أهنى الأستاذ النجار ببا كورة جهده ، وأهنى الأزهر الشريف بأمثاله ، وأرجو أن يضطلع بمهمته موقفاً لخدمة الإسلام والمسلمين .

أحمد الساب

القاهرة فى { ربيع الآخر ١٣٦٨
فبراير ١٩٤٩

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع :

١ - و

تقديم . للأستاذ أحمد الشايب .

ز - ط

فهرس الموضوعات .

١ - ٧

مقدمة المؤلف .

٨ - ٢٧

الفصل الأول :

الموالى قبل العصر الاموى

الإسلام والقتال ٨ - نشأة الرق في الإسلام ١٢ - الولاء ومن هم الموالى ؟ ١٣ - العصية العربية قبل الإسلام وبعده ، وحالة الموالى في ظل تلك العصية ١٥ - حالة الموالى الاجتماعية في عهد الرسول ١٧ - العصية الإسلامية ١٨ - أبو بكر ينفذ مبدأ المساواة ٢٠ - عمر ابن الخطاب يسوى بين العربى والمولى ٢١ - مقتل عمر بن الخطاب بيد أجمية ٢٣ - الموالى في عهدى عثمان وعلى رضى الله عنهما ٢٤

٢٨ - ٤٧

الفصل الثانى :

الموالى فى العصر الاموى

حالتهم الاجتماعية

العصية القبلية والعربية فى ذلك العصر ٢٩ - أثر تلك العصية فى المركز الاجتماعى للموالى وأمثلة متعددة لبيان حالتهم الاجتماعية ٣٤ زواج العرب بالأجميات وزواج الموالى بالعرييات ٣٩ - الكفاءة فى النكاح والنظرية الإسلامية فيها ٤٢ - الهجاء ٤٤ - تقدير عام ٤٥

٤٨ - ٦٨

الفصل الثالث :

سياسة الدولة الاموية نحو الموالى

الأمويون بين الأحزاب المعارضة ٤٨ - القواعد الإسلامية

الأولى في الجزية والخراج والعطاء ٥١ - حاجة الدولة الأموية إلى الأموال الكثيرة لتدعيم سلطانها واجتذاب الخارجين عليها ٥٢ - العمال الأمويون يرهقون الرعايا الأجانب ٥٤ - الحجاج الثقفي أول من خالف القواعد الخاصة بالجزية والخراج ٥٦ - سياسة الأمويين في العطاء لم تكن سياسة ثابتة ٦٠ - نصيب الموالي من العطاء ٦٣ - الوظائف الكبرى تقصر على العرب ٦٥ - تعريب الدواوين ٦٦

٨٢-٦٩

الفصل الرابع

عمر بن عبد العزيز والموالي

أخلاقه الشخصية وروحة الإسلامية ٦٩ - سياسته مع الموالي في الجزية ٧٢ - وفي الخراج ٧٤ - وفي العطاء ٧٦ - المجتمع العربي في عهده ٧٧ - تقدير عام لسياسته ٧٨

٩٨-٨٣

الفصل الخامس

الموالي والمركز الفكرية

عقليتهم واستعدادهم ٨٣ - تراجم قصيرة للشاهير من علماءهم ٨٤ - سليمان بن يسار ، نافع مولى عبد الله بن عمر ، ربيعة الرأي ، مجاهد بن جبر ، عكرمة مولى ابن عباس ، عطاء بن أبي رباح ، سعيد ابن جبير ، الحسن البصري ، محمد بن سيرين ، مكحول بن عبد الله ، يزيد بن حبيب ، الموالي يساهمون في وضع قواعد للغة العرب وفي رواية الشعر العربي ، وفي قرض الشعر ٩٠ - أبو بحر عبد الله بن إسحاق ، عيسى بن عمر النحوي ، حماد الراوية ، أبو العباس الأعمى ، عمرو ابن الحصين ، سر النبوغ العلمي للموالي ٩٣ - أثر الموالي في العلوم والمبادئ الإسلامية ٩٤

ارهاصات الشعوبية

- الشعور القومي للأعاجم يصطدم بالعصية العربية ١٠١ -
 نشأة الشعوبية ١٠١ - بعض المظاهر التي تدل عليها ١٠٢ -
 الشعوبية بين العصرين الأموي والعباسي ١٠٣

الفصل السابع:

١٠٥-١٣٩

ثورات الموالي ونهاية الدولة الأموية

- انتهازم الفرص ضد الدولة ١٠٥ - ثورتهم مع المختار
 الثقفي ١٠٧ - ثورتهم مع عبد الرحمن بن الأشعث ١١٠ - الدعوة
 لآل البيت وتستمرهم في ظلالها ١١٢ - ثورتهم مع الحارث بن
 سريج ١١٣ - العصية القبلية في خراسان ١١٦ - ثورة أبي مسلم
 الخراساني ١١٧ - نظرة سريعة في رقعة الممتلكات الإسلامية ١٢٤ -
 أبو مسلم والقضاء على الدولة الأموية ١٢٨ - الموالي في ظل الدولة
 العباسية الجديدة ١٣١ .

خاتمة:

١٤٠-١٥٠

- هل كان الأمويون على خطأ في سلوكهم مع الموالي؟ ١٤٠- وإلى أي
 حد كانت الأضرار التي لحقت الأمويين من جراء هذا السلوك؟ ١٤٨ -

١٥١-١٦٨

الإسلام والرق

تذييل - ١

- مصدر الرق ومنبعه ١٥١ - تدرج الإسلام في إلغاء الرق ١٥٤ -
 حقوق الرقيق ١٦١ - موازنة بين موقف الإسلام وغيره من الرقيق ١٦٤

١٦٩-١٧٦

أحكام الولاء في الإسلام

تذييل - ٢

- ولاء العتاقة ١٧٠ - ولأه الموالات ١٧١ - بعض أحكام حول ولأه
 الموالات ١٧٣ - مولى الرحم ١٧٤ - بعض أحكام للولاء في الجاهلية
 أبطلها الإسلام ١٧٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض وهو يدين بالأثرة وحب الذات ، ويتعلق بأذيال الأنانية ، وظالماً ساقته هذه الأنانية إلى مهاوى المطامع ، فكان يستأثر بالخير دون غيره ، ويحاول أن يحتجج النعيم لنفسه ، وتبعاً لذلك كانت تتور البغضاء وتنشب الحروب ، ويتخبط العالم بين الويلات القاسية والأخطار الجسام . .

وتاريخ الإنسانية حافل بذلك الصراع العنيف بين الأطماع البشرية المتعارضة التي لا تزال تنمو وتزيد ، والتي لا تهدأ حيناً إلا لتبدأ من جديد . وقد حاولت الشرائع السماوية والقوانين الوضعية أن تكبح جماح هذا الصراع ، وأن تحفف من غلوائه وطغيانه ؛ ولكن غرائز الشر كثيراً ما كانت تتغلب وتتصر ، فيعود العالم إلى سيرته الأولى ، وتصبح القوة وحدها هي التي تتحكم ، وهي التي تنقض وتبرم .

ولا شك أن الموضوع الذي نحن بصدده . وهو « الموالى في العصر الأموى » إنما هو فصل في رواية الحياة الطويلة . يدور حول هذا الغرض . ويتجه إلى ذلك الهدف . . . فهم قوم شعروا بأن حقوقاً قد اغتصبت منهم ، وظالماً قد حاق بهم . فقاموا يكافحون هذا الظلم ويسعون إلى التخلص من أغلاله . حتى استطاعوا بعد قرن من الزمان أن يحققوا الكثير من آمالهم وأهدافهم .

وقد حجب إلى الكتابة في هذا الموضوع ما رأيته من أن المكتبة العربية تكاد تكون شاغرة من مثل هذه الموضوعات التي تلقى ضوءاً كافياً على التيارات الحزبية والحركات القومية ، والطبقات المتنوعة في ذلك المجتمع الاسلامي الواسع الأكناف . ولقت نظري إلى البحث في تاريخ هذه الطبقة - طبقة الموالى - ما كنت أجده

مبعثراً في كتب الأدب والتاريخ وغيرهما من أخبار تبدو كأنها متناقضة فبعضها يدل على احترام الموالى وحسن معاملة العرب لهم ، والبعض الآخر يدل على ما كانوا يلاقونه من زراية وتحقير ومعاملة سيئة في عصر الأمويين . فأحببت أن أتعرف وجه الحق في هذا الموضوع بقدر المستطاع .

وقد تطلب منى ذلك البحث مشقة عنيفة ، وحملني أعباء مضنية ، ومتاعب مرهقة . فهو وإن كان يتناول في جوهره العصر الأموي فحسب ، إلا أنه تمتد جذوره إلى مبدأ الاسلام ، وتنتهى فروعه في العصر العباسي الأول ، أى أنه ينتظم قرناً ونصف قرن من الزمان . . والموضوع مع هذا ليست له وحدة تجمعها . ولم تكتب فيه كتابة مستقلة تشفى الغليل . وقد اقتضاني ذلك سياحة طويلة في كتب الأدب والتاريخ والفقه والتفسير والحديث ... حيث إن طبيعة البحث تحتم على الرجوع إلى تلك المصادر المختلفة . وقد كان يحسم هذه المتاعب أن الكتب العربية ليست لها فهارس منظمة ، والأخبار المتعلقة بالموالى ليست لها فصول خاصة بها ، وإنما هي مبعثرة متناثرة . فكان يتحتم على أن أقرأ الكتاب من أوله إلى آخره لكي أظفر بسطر أو سطرين . وقد أقرأ كتاباً بأجمعه فلا أخرج منه بشيء يتعلق بالموضوع الذى أعالجه . وذلك ككتاب « أخبار الزمان ومن أباداه الحدثان » للمسعودى (مخطوط بدار الكتب الملكية رقم ٧٠٥٤ تاريخ) إلى غير ذلك من الكتب الكثيرة المخطوطة والمطبوعة . وكان مثلى في ذلك كمثل البستاني الذى يتنقل بين الرياض والغياض لكي يقتطف من كل غصن زهرة أو ثمرة . وقد يطوف روضاً بأكملة فلا تعجبه زهرة من أزهاره ، ولا ثمرة من ثماره .

ولم يفتنى بعد أن استوعبت هذا القدر الكبير من المراجع العربية أن أطلع على ما كتبه المستشرقون حول هذا الموضوع فرجعت إلى كثير من المراجع الأجنبية ، من ألمانية وطيانية وفرنسية وإنكليزية ، وكان الفضل الأكبر في ترجمة هذه المراجع إلى همة الأستاذ عبدالعزيز عبدالحق المفتش بوزارة المعارف . وإني بهذه المناسبة أدين

له بالشكر . وأسأل الله أن يجزيه عن العلم والإنسانية أحسن الجزاء . كما أتقدم بالشكر الوافر للأستاذ عبدالفتاح السرنجاوى الأستاذ بكلية أصول الدين على تفضله بترجمة فصل من كتاب فلهوزن « الدولة العربية وسقوطها » عن (عمر بن عبد العزيز والموالى) . وأشكر الأستاذ الدكتور الخضيرى وكيل مكتب البحوث بالأزهر . والأب جوميه من الرهبان الدومينيكان ، على تفضلهما بالاشتراك فى ترجمة بعض صفحات من كتاب (دراسات إسلامية . للعلامة جولدزيهر) وأسأل الله لهم جميعاً أحسن الجزاء !!

وقد قسمت هذا الكتاب إلى سبعة فصول وخاتمة ، وراعى فى هذا التقسيم أن يكون الكتاب كله وحدة متناسقة . بحيث يستطيع القارئ أن يعتبره باباً واحداً مقسماً إلى فصول ، أو فصلاً واحداً مقسماً إلى فقرات . وقد جعلت الفصل الأول من الكتاب عن الموالى قبل العصر الأموى . ذكرت فيه فى كلمة قصيرة كيف نشأ الرق فى الاسلام . ثم تعرضت للولاء وبينت من هم الموالى الذين نقصد بهم بهذا البحث . ثم ذكرت أحوالهم وسياسة الرسول وخلفائه الراشدين نحوهم ، وذلك لى أجعل القارئ فى ضوء موازنة بين حالة الموالى فى العصر الأموى ، وحالتهم قبل ذلك ثم جعلت الفصل الثانى عن الحالة الاجتماعية للموالى فى العصر الأموى وقد بينت فى هذا الفصل منزلة الموالى فى المجتمع العربى وما كان يشوبها على الجملة من تحقير وزرارة نتيجة للعصبية العربية التى كانت سائدة فى المجتمع العربى إذ ذاك ولما كانت هذه النظرة المنطوية على التحقير والازدراء سبباً جعل الخلفاء الأمويين والولاة فى سائر الأقاليم لا يكثرئون بهم ويتجاهلون حقوقهم فقد عقدت لبيان ذلك الفصل الثالث من الكتاب وهو « سياسة الدولة الأموية نحو الموالى » .

ولما كانت سياسة الخلفاء الأمويين فى هذه الناحية تكاد تكون متشابهة ما عدا الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذى انتهج سياسة خاصة وسلك سبيلاً آخر . فإنى قد عقدت لبيان ذلك الفصل الرابع من الكتاب وهو « عمر بن عبد العزيز والموالى » . وبهذه

الفصول السالفة يتجلى لنا موقف المجتمع العربي والدولة الحاكمة من الموالي في العصر الأموي...!

ولما كان الموالي يشعرون بأنهم أصحاب مجد قديم ومدنية عريقة ، وأن العرب قد اغتصبوا منهم ذلك المجد والسلطان ، وعلى الرغم من ذلك لم يعاملوهم على أساس من العدالة والمساواة — فإنهم قد قاموا بمجاهدون لاسترجاع مجدهم والانتقام لأنفسهم وقد سلكوا لتحقيق تلك الغاية ثلاثة طرق :

أولاً : السيطرة على الحركة الفكرية ، وقد استفادوا من ذلك فائدتين . إحداهما : أنهم قد عوضوا أنفسهم بالعلم عن ذلك الازدراء الذي كان ينالهم من العرب حيث إن العلم يسمو بصاحبه ويرفعه . وثانيتهما : أن بعضاً منهم قد أدخل إلى الاسلام مبادئ غريبة ترجع إلى دياناتهم القديمة ، فكان هذا من الأسلحة الفتاكة التي أوهنت من قوة العرب والاسلام .

ثانياً : مناوأة ذلك التيار القوى — تيار العصبية العربية — بتيار قوى آخر وهو تيار الشعوبية . وقد كان لذلك إرهابات ومقدمات في العصر الأموي .

ثالثاً : مؤازرة تلك الحركات الثورية المتعاقبة التي كانت تقوم ضد الدولة الأموية لكي ينتقموا لأنفسهم ، ويقتربوا من أهدافهم . .

وقد عقدت لذلك ثلاثة فصول متتابعة وهي : —

الفصل الخامس : الموالي والحركة الفكرية .

الفصل السادس : إرهابات الشعوبية .

الفصل السابع : ثورات الموالي ونهاية الدولة الأموية .

ثم ختمت هذا البحث باستعراض عام لموقف الدولة الأموية من الموالي وموقف الموالي من الدولة ، لكي أبين إلى أي حد كان خطأ الأمويين أو عدم خطئهم في انتهاج تلك السياسة ، ولكي أبين مدى الآثار التي ترتبت على موقف الموالي من الدولة . .

ولكى يكون هذا البحث معتمداً على أساس متين كان لابد لنا من كتابة
تذييل نبين فيه نظرة الإسلام إلى الرق . . . !! وقد يبدو لأول وهلة أن موضوع
الرق في الإسلام . . لا يمت بصلة قوية الى موضوع « الموالي في العصر الأموي » .
ولكنى وجدت من الدوافع والاعتبارات ما يحملنى على تبیان هذا الموضوع . . .
ومن هذه الاعتبارات ما يلي :

١ — وثوق الصلة بين الرق والولاء لأن الرقيق إذا أعتق لا يسترد حريته
الكاملة . ولكنه يظل مرتبطاً بسيد السابق برابطة تسمى الولاء . فكان الولاء درجة
متوسطة بين الرق الكامل والحرية الكاملة . .

٢ — أنه كان في حياة الأمة الإسلامية الدينية نواح كثيرة تحمل المسلمين على
إعتاق الأرقاء . فقد جعل الإسلام عتق الرقيق كفارة لكثير من الكبائر والآثام .
فكان لابد لى أن أبين هذه المسالك التى يصل منها الرقيق الى الاعتاق ليصير بعد
هذا العتق من الموالى .

٣ — أن حركة الفتح الاسلامى كانت حركة نشيطة في عهد الخلفاء الراشدين
وخلفاء بنى أميه . وقد نتج عن هذه الفتوح بطبيعة الحال كثير من أسرى الحرب
الذين وقعوا في أيدي المسلمين . وهؤلاء يصبحون أرقاء . وإذا ما أسعدهم الحظ بوسيلة
من وسائل الاعتاق صاروا موالى .

وإذن فالرق منبع يمد المجتمع الاسلامى باستمرار بعنصر جديد هو عنصر الموالى !
ثم عقت على ذلك بتذييل ثان عن نظرة الإسلام في الولاء . وقد ذكرت في
هذا التذييل الأحكام الشرعية المتعلقة بالولاء مستمدة من كتب الفقه الاسلامى
والحديث النبوى . وكان لابد من بيان هذه الأحكام ليتجلى لنا كيف سما الإسلام
بالموالى فجعلهم بعد منزلة ذوى القربى فيما يتعلق بالميراث . وجعل لهم حقوقاً أخرى
غير ذلك . أى أنه جعل الموالى جزءاً مكملًا للأسرة أو القبيلة .. فإذا ما وجدنا أن
الحقائق الواقعة في الحياة الاجتماعية للعرب في العصر الأموي مغايرة لروح الشريعة

الإسلامية ساعدتنا هذه البيانات التي سقناها عن الأحكام الشرعية الخاصة بالولاء على إدراك مدى الفرق بين النظرية والواقع . . !!

ولعل سائلاً يتساءل فيقول إن الأعاجم قد ساهموا في بناء الفقه الإسلامي وتفصيل أحكامه ، وذلك في عصر متأخر عن العصر الأموي الذي نعالجه . أفليس من الجائز أن يكونوا قد زيفوا مثل هذه النظريات كي يثأروا لأنفسهم عن الهوان الذي ذاقوه أيام الأمويين . . ؟ نقول : إنه لو فرضنا صحة هذا السؤال فإن الأعاجم يمثل هذا العمل لم يرتكبوا شططا لأنهم قد استوحوا فيه روح الشريعة الإسلامية وكثيراً من آيات القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة التي لا تفرق بين العربي والعجمي ، وهي نظرية كان يستمسك بأهدابها في العصر الأموي كثيرون من أتقياء العرب الذين ارتقوا فوق العصبية الجنسية وآثروا عليها تعاليم الإسلام في العدالة والمساواة . . !!

وقد توخيت في بحثي هذا أن أجلى نقطة دقيقة في التاريخ الإسلامي لم تنل حظها الكامل من عناية المؤلفين ، ولست أدري مدى سروري واغترباطي لو كنت وقتت للعثور على كتاب « العرب والموالي » للجاحظ ، أو كتاب « الموالي » للكندی . ولكن من دواعي الأسف أن المكتبات العربية في مصر لا تعرف عن هذين الكتابين إلا اسميهما فحسب . ولعل الأقدار تسعدني يوماً بالعثور عليهما أو على أحدهما . وإذ ذاك أستطيع أن أكمل في يسر وسهولة ما انتهيت إخراجه من أبحاث حول موضوع « الموالي في الإسلام » .

وعساي أكون قد وقتت إلى إزالة وهم قد يعلق بنفوس المشتغلين بالتاريخ الإسلامي عند موازنته بالتاريخ الأوروبي ، وهو أن تاريخ الأمم الشرقية لا يعدو أن يكون قصة طويلة مملة عن أسر حاكمة تعلى العرش دون أن تكون هناك حركات دستورية ، وطبقات تكافح في سبيل حقوقها . . فإن تاريخ الموالي يدحض هذا الزعم . ويدل على أن التاريخ الإسلامي زاخر بالحركات الدستورية والاجتماعية وأنه لا يقل في قوته وتنوع تياراته العامة عن التاريخ الأوروبي . .

كما أرجو أن أكون قد صورت حياة هذه الطبقة من الناس تصويراً يوافق الواقع بقدر ما في أيدينا من المراجع التي نجت من أحداث الزمن . وقد تحررت الدقة في فهمها وفهم نصوصها على مقتضى سياقها وروح العصر الذي نحن بصددده . ولم أنس أنها كتبت في العصر العباسي . ولم أتأثر في ذلك بنزعة خاصة جنسية أو مذهبية بل التزمت الحيدة التامة . وجعلت رائدى البحث عن الحقيقة وحدها دون نظر إلى اعتبار آخر .

وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يلهمنا به العبرة والموعظة الحسنة . لكي نتجنب أخطاء الماضين ونتمسك بحسناتهم مستظلين بلواء الإسلام ومعتصمين بحبله المتين . !

محمد الطيب النجار

القاهرة في ربيع أول ١٣٦٨

يناير ١٩٤٩

الفصل الأول

الموالى قبل العصر الاموى

نشأة الرق في الإسلام — الولاء ومن هم الموالى ؟ — العصبية العربية قبل الاسلام وبعده — الموالى في ظل تلك العصبية — حالتهم الاجتماعية وسياسة الرسول وخلفائه الراشدين نحوهم .

أطل القرن السابع الميلادى على الوجود . والعالم يموج بالفتنة وتسود فيه نزعات مختلفة ونحل متنوعة ، وكثيراً ما كانت تلك النزعات تتصادم وتتضارب تحت ضغط الأثرة والأنانية . وتبعاً لذلك كان الناس يتخبطون في ظلام حالك كله شرور ومخاوف ، إذ يسطو القوى على الضعيف ويلتهم الكبير الصغير بشن الغارات ، ونهب الأموال وانتهاك الحرمات ، وقطع الوشائج والصلات .

وسط هذه الفوضى والظلام ، وبين تلك الأعاصير الحقاء ، ظهر الدين الإسلامى فى الجزيرة العربية ، فأشرف على العالم بدستور قوى متين يدعو الى مكارم الأخلاق ونشر العدل والمساواة بين جميع الأمم والأفراد ، وينظم العلاقات بين الفرد والجماعة ، وينفى الفوارق بين العربى والعجمى . وهكذا جاء حافلاً بالفضائل كفيلاً بإنقاذ الناس والسير بهم الى شاطئ الأمن والسلام .

وكان طبيعياً أن تصطدم تلك المبادئ بعادات العرب القديمة التى ورثوها عن الآباء والأجداد وذلك شأن كل دعوة ناشئة . ومن أجل ذلك اتخذ محمد صلى الله عليه وسلم طريق المسالمة لكى يمهّد للدين الجديد . ولكن أزعج العرب أن وجدوا تلك الدعوة تسرى فى قلوب الناس سريان السحر ، ويقوم بنيانها على دعائم قوية من

المنطق البريء المسالم والحكمة والموعظة الحسنة . فقاموا في وجه تلك الدعوة بدافع من العصبية الممقوتة والنمرة الكاذبة ، وأخذوا يتفننون في إيذاء النبي وأصحابه والإيقاع بهم بشتى الوسائل بعد أن أعيتهم الخيل في استمالة الرسول إلى ترك ما يدعو اليه . ولما لم يجدهم ذلك نفعاً ولم يفت في عضد المسلمين ، ويقف عقبة أمام الداخلين في ذلك الدين ، تأمروا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم؛ فكانت الهجرة من مكة إلى المدينة فراراً إلى جو صحو ملائم ، وأرض طيبة تنمو فيها تلك البذرة وترعرع . وكان لابد أن تحاط تلك البذرة بمظاهر العناية ، وتمنع عنها العوادي والطواري . ثم لابد لها بعد ذلك من ميدان واسع ، ومتنفس رحب يساعدها على النمو والازدهار؛ ولذا شرع القتال في الإسلام .

وقبل مشروعيته كان يأتي الجريح والمشجوع شاكياً إلى الرسول فيقول لهم : « اصبروا فإنني لم أؤمر بقتال » إلى أن قويت شوكة المسلمين واشتد ساعدتهم فأذن لهم في القتال رداً لما لحقهم من ظلم وعدوان سابقين ^(١) ، وفي ذلك يقول تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » ^(٢) . ثم أمروا بقتال كل من قاتلهم : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ^(٣) . ثم أمروا بالقتال لتقرير حرية العقيدة والبعد بها عن الأهواء والأغراض كي يكتمل لها الجو الملائم فينضوى تحت لوائها من يشاء دون خوف من اضطهاد وفتنة : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » ^(٤) .

ولو تأملنا الحديث الآتي عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم لتجلى لنا كيف كان الإسلام يتلطف مع الأمم ، ويسير بهم في غير عنف ولا عسف وأنه ما شبر السلاح في وجوههم طمعاً في مال أوحياً في سلطان أو إرضاء لشهوة وإنما

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٢٣٢ . (٢) سورة الحج آية ٣٩ .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٠ . (٤) سورة البقرة آية ١٩٣ .

هو الدفاع عن العقيدة وإعلاء كلمة الحق . قال بريدة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله وبن معه من المسلمين خيراً ثم قال : اغزوا في سبيل الله باسم الله قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم ما يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم في الفء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبوا فاسألم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » (١)

ويمكننا أن نستنتج من هذا الحديث ومن غيره من الأحاديث الآتية في هذا الصدد أن تعاليم الإسلام كانت تقضى بأنه إذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم أن يطلبوا من أهله الدخول في الإسلام فمن أسلم منهم أجريت عليه أحكام المسلمين من حفظ دمه وماله وقسمه في الغنائم إلا إذا أبى التحول من داره إلى دار المهاجرين وتخلف عن الجهاد مع المؤمنين فانه إذ ذاك لا يستحق القسم في الفء والغنيمة ، ومن امتنع عن الدخول في الإسلام ضربت عليه الجزية ، وهؤلاء هم أهل الذمة لهم ما لنا وعليهم ما علينا قال تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون » (٢) . وهذا إذا كانوا من أهل الكتاب ولم يكونوا مرتدين ولا من مشركي العرب وإلا فليس إلا الإسلام أو السيف لقوله تعالى : « تقاتلونهم أو يسلمون » . (٣) أما مشركو العرب فلأن القرآن نزل بلغتهم . فالمعجزة في حقهم أظهر

(١) صحيح مسلم ج ١٢ ص ٣٧ و ٣٨ ، وفتح القدير لكمال الدين بن الهمام ج ٤ ص ٢٨٤ .

(٢) سورة التوبة آية ٢٩ . (٣) فتح المعين على السكز . فقه حنفى ج ٢ ص ٤٥٢ .

ولذا كان كفرهم أشد وأغلظ من كفر العجم ، وكذلك المرتدون لأن كفرهم بعد أن هدوا للإسلام ووقفوا على محاسنه أغلظ وأشد ممن لم يهتدوا ولم يعرفوا محاسن الإسلام . وقد حمل المجوس على أهل الكتاب لما روى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر^(١) . ولما روى أنه قال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب »^(٢) . وأما من يأبون قبول الجزية من أهل الكتاب سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يرضخوا للإسلام أو يعطوا الجزية .

وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين بك في كتابه « فجر الإسلام » ص ١٠٩ ، ما يفيد أن العربي المشرك كان يسترق في مبدأ الأسلام . ولما انتشر الإسلام لم يعد يقبل منه إلا الإسلام أو السيف فأصبح غير محل للاسترقاق . واستدل على ذلك بما رواه ابن هشام في غزوة بني المصطلق « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصاب منهم — من بني المصطلق وهم عرب من خزاعة — سبياً كثيراً فشا قسمه في المسلمين »^(٣) . ولا شك أن الأستاذ الفاضل يخالف بذلك الرأي ما عليه الجمهرة من العلماء . ففي كتاب « فتح المعين على الكنز » . لا يقبل من مشركي العرب والمتردين إلا الإسلام أو السيف . وإذا ظهر المسلمون عليهم فقتلواهم وذرايرهم فيء لأنه عليه السلام كان يسترق ذراري مشركي العرب . وأبو بكر استرق نساء بني حنيفة وصبيانهم وكانوا مرتدين . ومن لم يسلم من رجالهم من الفريقين قتل ولم يسترق .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين : « لو كان يجرى على عربي رق لكان اليوم وإنما الإسلام أو السيف »^(٤) .

وفي كتاب المذهب للفيروزبادي^(٥) لا يجوز أخذ الجزية ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب كعبدة الأوثان وليس في جانبهم إلا الإسلام أو السيف . . . ولعل

(١) المذهب في فقه الشافعية ج ٢ ص ٢٦٦ . (٢) صحيح مسلم ص ٣٩ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١٨ (٤) فتح المعين على الكنز ج ٢ ص ٤٥٢ .

(٥) في فقه الشافعية ج ٢ ص ٢٦٦ .

الأستاذ أحمد أمين بك قد اشتبهت عليه كلمة سبي ففهم أنها تشمل الرجال المحاربين .
ولكننا لو رجعنا إلى الرواية السابقة لروايته في نفس سيرة ابن هشام وفي غزوة بني
المصطلق أيضاً لوجدناها صريحة في إخراج الرجال المحاربين إذ يقول : « إن الله قتل
من قتل منهم (أى من بني المصطلق) ونفل رسول الله أبناءهم ونساءهم وأموالهم
فأفاهم عليه » (١) . وفي القاموس المحيط السبي للنساء لأنهن يسبين القلوب أو يسبين
فيملكن ولا يقال ذلك للرجال .

ومن ثانياً ما تقدم نرى أن من طوائف الكفر من لا يصح ضرب الجزية عليهم
من المرتدين ومشركي العرب . ومنهم من يرضخون لقبول الجزية من أهل الكتاب
أو ممن لهم شبهة كتاب كالجوس ، وهؤلاء هم أهل الذمة لهم ما للمسلمين . وعليهم ما على
المسلمين ، ومنهم من لا يرضخون لقبول الجزية من أهل الكتاب أو ممن لهم شبهة
كتاب كالجوس ، وهؤلاء يقاتلون حتى تكون المسلمين الغلبة عليهم . ومن وقع في
أيدي المسلمين منهم فهم أسرى تلك الحرب المشروعة الذين يستحقون ضرب الرق
عليهم . ومن هنا نشأ الرقيق في الإسلام]

فالرقيق في الإسلام هو أسير حرب مشروعة ضرب الإمام الرق عليه . والحرب
المشروعة هي التي تقوم بين المسلمين والكفار ولا يكون مبعثها البغى والعدوان بل الدفاع
عن الإسلام وإعلاء كلمته ، ولقد نظم الإسلام أمر هذا الأسير نظاماً محكماً فجعل له
أربع حالات :

الأولى — القتل إذا خيف على المسلمين شره وعلم أن الضرر من جانبه محقق كما
فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عقبة بن معيط . وكان من بين أسارى بدر .
الثانية — الفداء بمال أو بأسير عند العدو أو بأى بدل مشروع .

الثالثة — المن بإطلاق سراحه من غير فداء كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١٦

بشاعر هو أبو عزة الجمحي ، وكان من بين أسرى بدر إذ أطلق سراحه من غير فداء حينما استعطفه بأن له بنات .

الرابعة — الاسترقاق إذا لم تكن واحدة من الثلاث المتقدمة ، فيضرب الإمام الرق عليه وبهذا يكون ملك يمين يملكه من كان في نصيبه بعد قسمة الغنائم في الحروب المشروعة ، أو يصل إلى يده بشراء أو هبة أو بطريق الميراث ممن يملكه فهو نوع من المال يباع ويشترى ويوهب . والأمة توطأ بملك اليمين من غير عقد نكاح وتباع وتوهب وتستولد إلى غير ذلك من الأحكام .

وقد نظر الإسلام إلى الرقيق نظرة رحمة وعناية فجعل له حقوقا كثيرة . ورغب في عتقه واعتبر هذا العتق كفارة للكثير من الخطايا والذنوب كما سنفصل ذلك في تذييل الكتاب ، فإذا ما هيئت للرقيق فرصة الانفلات من قيود الرق فأعتقه سيده نشأ عن هذا العتق تلك الرابطة والصلة بين السيد ومعتقه وهي صلة النصرة والمحبة المسماة بالولاء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الولاء لجة كلحمة النسب » (١) . أى وصلة كوصلة النسب ولذا يسمى كل من المعتق والمعتق مولى . *

والمولى في اللغة يطلق باطلاقات كثيرة ولعل الأساس فيها هو ما يحمله هذا اللفظ من معنى النصرة والمحبة .. فيطلق على الرب والمالك ومنه قوله تعالى « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » (٢) . ويطلق على ابن العم والعصبة كلها ومنه قوله تعالى « وإني خفت الموالي من ورائي » (٣) . ويطلق على الناصر ومنه قوله تعالى « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » (٤) . ويطلق على السيد ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في النهي عن تسمية السيد بالرب « ليقل — أى العبد حينما يخاطب سيده — سيدى . مولاي » (٥) . ويطلق على المعتق ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « مولى القوم

(١) نيل الأوطار للشوكاني ٦ - ١٨٨ . (٢) سورة الأنعام آية ٦٢ .
(٣) سورة مريم آية ٥ . (٤) سورة محمد آية ١١ . (٥) فتح الباري ج ٥ ص ١١١ .

من أنفسهم» ويطلق على الخليف والصاحب والجار والشريك إلى غير ذلك . وهذا كلها معان لغوية^(١) . وأما الشرع الإسلامي فيختص كلمة مولى بمعنيين : المعتق ويسمى مولى العتاقة . والخليف ويسمى مولى الموالات^(٢) . فمولى العتاقة هو رقيق أعتقه سيده فيصير المعتق منسوباً إلى المعتق بالولاء ويسمى هذا ولاء العتاقة وولاء النعمة . ومولى الموالات هو رجل ينتمى لآخر بالخالطة أو بالخدمة أو بالخالفة فينسب إليه . أو ينتمى إلى قبيلة من القبائل فينسب إليها . وقد أقر الإسلام هذا النوع من الولاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مولى القوم منهم وحليفهم منهم » . والمراد بالخليف مولى الموالات لأنهم كانوا عادة يوثقون الموالات بالحلف وذلك بأن يأتي رجل لآخر فيقول له : أنت مولاي ترثني إذا مت وتعقل عني إذا جنيت — أى تدفع الدية عني — فيقول له : قبلت^(٣) ! وقد كثر نوع مولى الموالات بعد الإسلام . لأن الإسلام أعز العرب ورفع من شأنهم حتى صاروا سادة وأصحاب شوكة وقوة فكان أهل البلاد الأخرى يحتمون بهم ويتحالفون معهم .

والباحثون في التاريخ الإسلامي حينما يذكرون الموالى يقصدون بهم كل من أسلم من غير العرب ، وذلك لأن هؤلاء إما أن يكون أصلهم أسرى حرب استرقوا ثم أعتقوا فصاروا موالى . وإما أن يكونوا من أهل البلاد المفتوحة وهؤلاء كانوا حينما يسلمون ينضمون إلى العرب ويدخلون في خدمتهم ، ويتحالفون معهم لكي يعتزوا بشوكتهم وقوتهم . وبذلك يصبحون موالى أيضاً بالحلف والموالات .

وهؤلاء الموالى بالمعنى الذى اصطلح عليه المؤرخون هم الذين سنتناولهم بالبحث في هذا الكتاب بادئين ببيان حالتهم قبل العصر الأموى فنقول : كانت الحالة العامة للموالى تتأثر كل التأثر بظهور العصبية العربية واختفائها .

(١) رجعنا في معاني كلمة مولى إلى المراجع الآتية : القرآن الكريم واسان العرب لابن منظور المغرب للمطرزى ٢٦٢ . والمنجد والقاموس المحيط مادة ولى . ودائرة المعارف الإيطالية كلمة مولى بقلم نالينو . ودائرة المعارف الاسلامية النسخة الفرنسية ص ٢٩٩ مجلد ٣ .

(٢) المغرب للمطرزى ص ٢٦٢ . (٣) المبسوط للسرخسي ج ٣٠ ص ٣٨ و ٤٥ .

فإذا ما وجد شبح تلك العصبية ساءت حالة الموالى واشتد الظلم بهم ، وإذا ما
توارى هذا الشبح البغيض تنفس هؤلاء القوم الصعداء ، واتسعت آفاق أملهم ،
وشعروا بكيانهم الطبيعي كسالمين يؤمنون ويتمتعون بمبادئ الاسلام العادلة من الحرية
والإخاء والمساواة .

ولقد كان العرب أيام الجاهلية يشعرون إلى حد ما بالعصبية العربية وكانوا على
الرغم من تأخرهم في الأخذ بأسباب المدنية يغالون في تقدير أنفسهم ويحتقرون
الأجناس الأخرى دون مبرر أو مسوغ من العقل والمنطق السليم .
وحسبنا أن نعرض صورتين نلمح العصبية العربية في كليهما سافرة متحدية .
.. فيروى ابن خلدون أن كسرى أبرويز أراد خطبة بنات العرب فأشار عليه عدى ؟
ابن زيد - أحد تراجته - بالخطبة في بني منذر . فقال له كسرى : اذهب اليهم في ذلك
فقال : إنهم لا ينكحون العجم ويستريبون في ذلك فابعث معي من يفقه العربية فلعلى ؟
آتيك بغرضك . فلما جاء إلى النعمان قال (أى النعمان) : أما في عين السواد وفارس
ما يغنيكم عن بناتنا ؟ وسأل الرسول عن العين فقال له هى البقر ، فغضب كسرى
وحققها على النعمان وكتب اليه يستقدمه فلما وصل إلى كسرى قيده وأودعه السجن
إلى أن هلك فيه بالطاعون . وفي رواية أخرى أنه قتله . وكان ذلك سبباً لقيام
حرب ذى قار بين الفرس والعرب قبل البعثة بثمان سنوات (١) . ؟

وإذا صح هذا النص فإنه يوضح لنا بلا شك عصبية العرب في جاهليتهم ضد
الأعاجم واعتدادهم بأنفسهم حتى في الوقت الذى كان الفرس فيه ذوى نفوذ كبير ولم
يكن العرب بجوراهم شيئاً يذكر . وهو يلقي لنا ضوءاً على مدى تلك العصبية المغالية
التي تترفع من مصاهرة ملوك الفرس وهم إذ ذاك أصحاب الأمر والنهى بالحيرة ولهم
فيها نفوذ واسع وسلطان كبير .

(١) ابن خلدون (العبر وديوان المبتدا والخبر) ج ١ ص ٥٤ و ٥٦ و ٦١ طشكيب أرسلان .

وذكر صاحب العقد الفريد أن النعمان بن المنذر قدم إلى كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين . فذكروا عن ملوكهم وبلادهم فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارس ولا غيرها وامتدح العرب بالعز والمنعة فقال : « حصونهم ظهور خيلهم . ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف . وعدتهم الصبر إذ غيرهم من الأمم عزهم بالطين والحجارة وجزائر البحور » . وذكر النعمان بعد ذلك كثيرا من المزايا والفضائل التي اختص بها العرب دون غيرهم من الأمم وقد سجلتها كتب الأدب والتاريخ في ذلك الحديث الطويل مع الملك الفارسي ^(١) .

ولا يهمننا من هذه القصة على فرض وقوعها تصحيح مزاعم العرب في أنهم يفضلون غيرهم من الأمم الأخرى . ولكن المهم أن هذه القصة تدل على اعتداد العرب بأنفسهم وتحقيرهم لغيرهم ^(٢) . فماذا كان موقف الإسلام إزاء ذلك ؟

جاء الإسلام يحمل بين ثناياه مبادئ خالدة ترمى إلى إسعاد العالم وانتشاله من

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٨٩ ط سنة ١٣٦١ ، وبلوغ الأرب للأوسى ج ١ ص ١٥٠ ، وجمهرة خطب العرب لصفوت ج ١ ص ١٥ .

(٢) كانت الظاهرة الواضحة لدى العرب في الجاهلية هي العصبية القبلية . وهي نكرة أصيلة في العربي توارثها منذ القدم عن آباءه وأجداده . وقد نشأت من اعتداده بنفسه إلى درجة الغلو والإسراف وهو أمر خلقته البيئة الصحراوية الخالية من الأسوار والحصون ، والمعرضة للسلب والنهب . ومثل هذه البيئة لا يمكن أن يستقر بها إلا الشجاع المغامر . وهذه الشجاعة لا تفيد فائدة كاملة ولا تأتي بالثمرة المرجوة إلا إذا دعمت بالعصبية التي تشد الأزر وتقوى الجانب (مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣) وهم من أجل ذلك كانوا يهتمون برابطة القرابة ويرعون حقوقها لأنها عدتهم وسلاحهم الذي يقاومون به الأخطار والشدائد ، فكان يرتبط الأقرب بالأقرب منهم برابط المودة والنصرة . وفي وقت الحروب والثورات يجتمع الأقرب فالأقرب ضد الأبعد فالأبعد . فتجتمع الفصيلتان من غز واحد على غز آخر ولو كانوا جميعا من بطن واحد . ويجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعا من قبيلة واحدة . وتجتمع القبائل العربية كلها ضد الأجانب من غير العرب (الأحكام السلطانية لماوردى ص ١٨٠) على حد قول المثل : أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب . وإذن فالعصبية العربية معتمدة على أساس من العصبية القبلية . فان العربي الذي يتعصب لقبيلته ضد القبائل الأخرى هو بعينه الذي يتعصب مع القبائل الأخرى ضد الأعاجم . والعصبية القبلية كانت تنور كثيرا بين العرب بسبب التنافس بين القبائل على النفوذ المادى والأدبى . أما العصبية العربية فكانت لا تنور إلا عند الاحتكاك بالأجانب وكان ذلك من القليل النادر إذ ذاك ..

هوة الخلاف والشقاق فلقد دعا إلى الوحدة والتضامن وحارب الأثرة والأنانية وعمل على إزالة القوارق ونشر العدالة وأعلن المساواة بين الطوائف والطبقات^(١).

حينما سرقت فاطمة الخزومية وكانت من طبقة محترمة في العرب جاء أناس يستشفعون لها لثلاث يقيم الرسول الحد عليها . فغضب صلى الله عليه وسلم أشد الغضب ثم قال : « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » . وفي حجة الوداع نادى محمد صلى الله عليه وسلم بأعلى صوته فقال : « أيها الناس . إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى »^(٢) . وهو يعتمد في ذلك على قول الله تعالى في كتابه الكريم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم »^(٣) .

ومن الطبعي أن تكون تلك المبادئ غريبة لدى العرب الذين اعتادوا التفاخر بالأحساب والأنساب . وتغلغل العصبية في طوايا نفوسهم ، ولكنها في الوقت نفسه نزلت برداً وسلاماً على نفوس الآخرين من غير العرب ، وهم نفر ضئيل كان يقطن الجزيرة العربية إذ ذاك كبلال الحبشي وسلمان الفارسي وغيرهما من سائر العناصر الأجنبية ولقد حقق رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ المساواة عملياً فرفع المخلصين من الموالى إلى أعز مكانة وأسمائها . ووضعهم في صف المخلصين من العرب جنباً إلى جنب فبلال الحبشي كان من خاصة المقربين للرسول ولسائر المسلمين . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما يتذكر عتيق أبي بكر لبلال يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا »^(٤) . وسلمان الفارسي كان أيضاً من المقربين للرسول ولسائر المسلمين ، وهو الذي

(١) دراسات إسلامية لجولد زيهز فصل مترجم « عن العرب والعجم » ترجمة خاصة .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢ ص ١٦ والعقد الفريد ٢ - ١١١ .

(٣) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٤) أسد الغابة ترجمة بلال بن رباح وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ١ - ١٣٧ .

ولى قسم الغنائم بين المسلمين فى واقعة جلولاء (١) حتى لقد أنسته عدالة الاسلام جنسيته
فكان يقول مفتخراً أنا ابن الإسلام (٢) .

والإسلام على فرط ما حارب العصبية القبلية والعربية فإنه لم يقض عليها، ولم
يمحها من نفوس أصحابها، ولكنها تضاءلت فى نفوسهم . وانحدرت إلى العقل الباطن
بعد أن كانت مستقرة فى بؤرة شعورهم . وقد تحول ذلك التيار الذى كان يغذى
العصبية القبلية والعربية إلى تغذية عصبية أخرى هى العصبية الاسلامية التى تجعل من
المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، وتجعل التقوى والعمل الصالح هما مناط الفخر
ودعامة المجد والشرف . وتجعل فى الاسلام ما يغنى عن الحسب والنسب . والتى
تتمثل فى قول الشاعر المسلم :

فنحن بنو الاسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر

وقول آخر :

أبى الاسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم (٣)
وكان المسلمون يتفاوتون فى تناسى عصبيتهم القبلية والعربية على قدر تفاوتهم
فى التمسك بذلك الدين الجديد والاعتناع بمبادئه . فلقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه
بلغه عن أبى سفيان صخر بن حرب أمر فأحضره وأقبل يصيح عليه وأبو سفيان
يتملقه ويتذلل له ، وأقبل أبو قحافة (والد أبى بكر وكان قد أسلم إذ ذاك) فسأل على
من يصيح ابنى ؟ فقبل له : على أبى سفيان . فدنا من أبى بكر وقال له : أعلى أبى
سفيان ترفع صوتك ؟ لقد تعديت طورك وجزت مقدارك . فتنبسم أبو بكر ومن حضره
من المهاجرين والأنصار وقال : يا أبت إن الله رفع بالإسلام قوما وأذل به آخرين (٤) .

(١) البداية والنهاية ٧/٧٠ .

(٢) أسد الغابة ترجمة سلمان . وتاريخ ابن عساکر ج ٦ ص ٢٠٢ . وتهذيب الأسماء
واللغات ج ١ ص ٢٢٦ .

(٣) السكامل للمبرد ج ٣ ص ١٠٢ . (٤) مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٤١٣ .

ومن ثانياً القصة السالفة نرى أن العصبية القبلية قد تلاشت من نفس أبي بكر وجمهرة كبيرة من أصحابه المخلصين للإسلام . بينما لا تزال آثارها باقية في نفس أبي قحافة الذي لم تتمكن مبادئ الإسلام في نفسه كغيره من المسلمين الأولين ، ومن أجل ذلك فإنه استكثر على ولده أبي بكر أن يرفع صوته على أبي سفيان .. !

ويصور لنا جولد زيهر شعور المسلمين من العرب إزاء المبادئ الإسلامية بشعور رجل الشارع الذي يخضع للقانون وإن كان هذا الخضوع لا يقضى على عاداته وطبائعه الشريرة التي لا تدخل تحت طائلة القانون^(١) ولكننا لا نذهب مثل هذا المذهب لأن رجل الشارع الذي يحمل نفساً شريرة تكون هذه الطبيعة قوية في نفسه ولا تمنعها إلا سطوة القانون بحيث إذا غفلت عين العدالة فإنها تظهر في عنف وشدة بينما أن العصبية القبلية والعربية كانت بعد الإسلام ضعيفة في نفوس الغالبية من المسلمين . وكثيراً ما كانت تتاح لها الفرص للظهور فلا تظهر إلا في القليل النادر؛ ومهما يكن من شيء فقد كانت تلك العصبية مغطاة في نفوس المسلمين بغطاء متنوع الكثافة والمقدار . فهو كثيف كامل عند أقوياء الإيمان ذوي العقيدة السليمة ، وهو خفيف ناقص لدى ضعفاء الإيمان والعقيدة . وقصة يوم بعث^(٢) وقيام المتنبئين قبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم^(٣) وحركة الردة في أيام أبي بكر رضى الله عنه . كل هذه المثل توضح لنا أن ربح الشر كانت تعصف أحياناً بضعفاء الإيمان فتكشف عن نفوسهم ذلك الغطاء الخفيف الناقص . وإذا ذلك تتجلى عصبيتهم الجاهلية، وتتوارى عصبيتهم الإسلامية . والذي لا شك فيه أن تلك العصبية الإسلامية التي جاء بها الإسلام والتي تحدثنا عنها فيما مضى كانت قوية في نفوس الغالبية من المسلمين في أول عهدهم بالإسلام ، ولقد ظلت قوية في نفوسهم إلى أن جاء عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان ذلك

(١) دراسات إسلامية فصل « العرب والعجم » ترجمة خاصة .

(٢) راجع سيرة بن هشام ج ٢ ص ٤٠ .

(٣) راجع الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٥ و ٢٢٨ و ٢٣٢ ط منير .

راجعاً إلى قرب عهد المسلمين بالرسول من ناحية ومن ناحية أخرى إلى قوة شخصيتي الخليفين أبي بكر وعمر . وسيرهما على أساس كامل من العقل والمنطق السليم ، وعدم انقيادهما للعاطفة التي كثيراً ما تخدع الإنسان وتطوح به .

ولقد كانت سياسة أبي بكر تتجه نحو المساواة في صراحة ووضوح فنجدته حينما ولي الخلافة يعلن على الناس برنامجاً فيقول : « إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له . وأضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق منه » ^(١) . ونجدته بعد ذلك يقسم بين الناس الأعطية بالسوية فلا يفضل أحداً على أحد ^(٢) حتى ليرى أنه جاءه مال كثير فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرين درهما . فجاءه ناس من المسلمين فقالوا يا خليفة رسول الله . إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس . ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم . فقال : أما ما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم فما أعرفني بذلك . وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه . وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة ^(٣) .

ومثل هذه السياسة كانت تقابل بالرضى والارتياح من الموالى الذين لم يعودهم حكمهم من قبل هذا النوع من المعاملة ، ولا غرو فإن مبدأ المساواة جدير بأن تهوى إليه نفوس الغالبية من الأفراد ، وعلى الأخص في أمبراطوريتي فارس والروم . وهما اللتان قامتتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى التفاوت بين الناس .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مثال الحاكم المسلم . فقد تحرى العدالة المطلقة التي لا تعرف الهوادة في تنفيذ شعائر الإسلام وقوانينه . واتخذ شعاره الديمقراطية الحازمة ، وشغل العرب بالفتوح الخارجية في فارس والروم استغلالاً لنشاطهم الحربي إشغالا لهم أن يفرغوا لأنفسهم فيعود بأسهم بينهم شديداً . وتحقيقاً لهدف الإسلام

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٢ . العقد الفريد ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ١١٥ ، والأموال لأبي عبيد ص ٢٦٢ .

(٣) الحراج لأبي يوسف ص ٥٠ .

ورسالته العامة إلى الناس أجمعين . ثم منع رؤسهم أن يتركوا المدينة إلا للجهاد في سبيل الله مخافة أن يكونوا لهم عصبية في أقطار الدولة ، فتشقق وحدتها العزيزة ، وتتداعى أركانها وهي قريية العهد بالتناوب الجاهلي وحميته الحمقاء^(١) .

وقد وضع عمر بن الخطاب نظاماً في العطاء يخالف نظام أبي بكر في الظاهر ، ولكنه في الواقع يتمشى مع العدالة والمساواة أيضاً ؛ وذلك أنه جعل التمايز في العطاء بحسب الأسبقية في الإسلام لافرق في ذلك بين العربي والمولى . فان تساوا في ذلك فبحسب القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم^(٢) . وقال في ذلك كلمته الماثورة « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه »^(٣) . وقد كتب عمر إلى أمراء الأجناد « ومن أعتقتم من الحمراء فأسلموا فأحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلهم أسوة في العطاء »^(٤) . وقدم قوم على عامل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فأعطى العرب وترك الموالى فكتب إليه عمر . أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم^(٥) . وفي بعض الأحيان كان عمر يفضل في العطاء بحسب المكانة والمنزلة لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولعله كان يرى أن الرجل لا تعظم منزلته لدى الرسول إلا على أساس من التقوى والإيمان الصادق . فلقد فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف بينما فرض لعبد الله بن عمر (ابنه) ألفين ، فقال ابن عمر لأبيه : فضلت على أسامة وقد شهدت ما لم يشهد . فقال : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك وأبوه أحب إلى رسول الله من أبيك^(٦) . وفرض عمر بن الخطاب

(١) الشعر السياسي للاستاذ الشايب ص ٩٩ .
(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٦٠ ، والأموال لأبى عبيد ص ٢٢٥ ، والحراج لأبى يوسف ص ٥٢ و ٦٣ ، وحوليات الاسلام للبرنس كايثاني ص ٤٠٨ من ٣٨٨ حوادث سنة ٢٠ هـ .
(٣) الحراج لأبى يوسف ص ٥٠ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٥٥ .
(٤) البلاذرى فتوح ص ٤٦٣ . والأموال لأبى عبيد ص ٢٣٥ . وكايثاني ص ٤٠٣ .
(٥) الأموال لأبى عبيد ص ٢٣٦ .
(٦) أسد الغابة ١ : ٦٥ ، وفي الأموال لأبى عبيد ص ٢٢٧ والبلاذرى ص ٤٥٦ بتغيير يسير .

لبعض الأشراف من الأعاجم عطاء سخياً . ففرض لفيروز بن يزدجرد ولجميل بن بصبهرى ، ولبسطام بن نرسى وغيرهم من الدهاقين ألفين ألفين^(١) . بينما كان كثير من العرب المسلمين يتراوح عطاؤهم بين المائتين والاربعمائة فحسب^(٢) . وكان عمر يقصد من ذلك أن يؤلف قلوب هؤلاء الأعاجم نحو الإسلام ويتألف بهم غيرهم^(٣) .

وهكذا يتضح لنا من سياسة عمر أنه قد حاول بقدر الإمكان أن يطبق النظرية الإسلامية فلم يجعل التمايز بين الناس على أساس اختلاف القبائل أو الأجناس ولكن جعل الأساس هو التقوى والإخلاص وكثرة البلاء والجهاد . وذلك إنما يكون في الغالب بالسبق إلى الإسلام . يتساوى في ذلك القرشي والباھلى ، والعربي والعجمي .

وقد كان سفيان بن عيينة يفسر نظرية أبى بكر ونظرية عمر في العطاء فيقول : ذهب أبو بكر في التسوية إلى أن المسلمين إنما هم بنو الإسلام كأخوة ورثوا آباءهم فهم شركاء في الميراث تتساوى فيه سهامهم وإن كان بعضهم أعلى من بعض في الفضائل ودرجات الخير والدين . قال وذهب عمر إلى أنهم لما اختلفوا في السوابق حتى فضل بعضهم بعضاً وتباينوا فيها كانوا كأخوة العلات — وهم الأخوة لأب — غير متساوين في النسب ورثوا أخاهم أو رجلاً من عصبتهم فأولاهم بميراثه أسهم به رحماً وأقعدهم إليه في النسب ... فكذلك هم في ميراث الإسلام أولاهم بالتفضيل فيه أنصرهم له وأقومهم به وأذهبهم عنه^(٤) .

وأما قول عمر في آخر حياته إن عشت هذه السنة ساويت بين الناس وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر^(٥) . فمعنى ذلك أنه قد حاول أن يعدل عن نظريته لأنه

(١) اليعقوبى ٢ ص ١٣١ ، والأموال لأبى عبيد ص ٢٣٦ ، ويحيى بن آدم رقم ١٨٥ — وكايتانى ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٢) الحراج لأبى يوسف ص ٥٢ و ٥٣ . وكايتانى ج ٤ ص ٣٨٨ حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ١٣١ .

(٤) الأموال لأبى عبيد ص ٢٦٤ .

(٥) اليعقوبى ٢ ص ١٣٢ ، والأموال لأبى عبيد ص ٢٦٤ .

رأى فيها تنفيراً لقلوب الكثير من الناس . لأن الإنسان يكره دائماً أن يتميز أحد عليه ،
وقد توفي عمر رضى الله عنه قبل أن يغير هذه النظرية^(١) .

ولقد كان الموالي من الناحية الاجتماعية في تلك الحقبة من الزمن . ينعمون
بالمساواة الكاملة . ويسيرون مع العرب في هذا السبيل جنباً إلى جنب وكثفاً إلى
كثف ولا يميز بين الفريقين إلا الأسبقية إلى الإسلام والبلاء فيه . فيروى أنه حضر
بياب عمر نفر من سادات قریش كسهيل بن عمرو وأبي سفيان وغيرها . ونفر آخر من
الموالي كصهيب وبلال فخرج ابن عمر فأذن لهؤلاء الموالي وترك أولئك السادة ، فقال
أبوسفيان : لم أراك اليوم . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابهم لا يلتفت إلينا ! فقال
سهيل بن عمرو وكان رجلاً عاقلاً : أيها القوم إني والله أرى الذي في وجوهكم إن كنتم
غضاباً فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم ودعيتهم فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا
دعوا يوم القيامة وتركتم^(٢) ؟ وقدّم عمر بن الخطاب صهيباً الرومى على المهاجرين
والأنصار فصلى بالناس^(٣) . وكان كلما تذكر عتق أبي بكر لبلال يقول : « أبو بكر
سيدنا وأعنتق سيدنا »^(٤) . ومن الكلمات الماثورة عن عمر رضى الله عنه أنه كان
يقول : والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم
القيامة . فإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه^(٥) .

وبينما كان الموالي يعيشون في هذا الجو المشرق بالصفاء . المليء بالعدالة والإنصاف
إذ فاجأهم حادث أليم هو مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيد

(١) الخراج لأبى يوسف ص ٥٥ .

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٩٨ و ٩٩ طبعة مصطفى محمد .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٦١ .

(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ج ١ ص ١٣٧ .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد طبعة أوروبية ج ٣ ص ٢١٣ .

أعجمية^(١) فكان ذلك الحادث صدمة عنيفة روعت جمهرة المسلمين وغيرت من شعورهم تجاه الأعجم من أسلم منهم ومن لم يسلم . فلقد وضحت تلك المؤامرة الفارسية وظهرت أصابع الأعجم ملطخة بدماء عمر . وإذا ذاك تبين للعرب أن الحقد الدفين قد تنبه في قلوب هؤلاء الناس ، فأصبح العرب ينظرون إليهم على حذر . وابتدأت العصبية العربية منذ ذلك الحين تستيقظ من إغفائها الطارئة ، وإذن فلا نكون مبالغين إذا قلنا إن مقتل الخليفة عمر كان نهاية فصل مجيد في حياة الموالى نعموا فيه بالمساواة والعدالة ، وهو بعينه كان مبدأ فصل جديد تغيرت فيه حالهم ، وأخذت منزلتهم تتبعه إلى الانحدار والانهيار .

وجاء عثمان بن عفان فنظر إلى أقاربه نظرة ظنها الناس محاباة ومحسوبة . وظنها عثمان أو اعتقد أنها سياسة تقتضيها سلامة الدولة وتمليها المصلحة العامة ، لأن أقاربه سيخلصون إليه ويعاونونه المعاونة الصادقة ، ونتيجة لذلك تنتظم الأمور وتهدأ الأحوال^(٢) .

وعلى الرغم من المزايا الخلقية الكثيرة لعثمان فإن قبضته على شئون الدولة كانت ضعيفة فأطلق العنان لأقاربه وأهل رقابتهم وهؤلاء أساءوا إلى الناس وأرهقوهم . ومن الأمثلة لذلك ما فعله عبدالله بن أبي سرح — أخو عثمان من الرضاعة — فقد (١) قتله أبو أولؤة ولي المغيرة بن شعبة وكان من نصارى العجم فضربه بخنجر ست ضربات إحداها تحت سترته . ولما سأل عمر عن قتله فقيل له أبو أولؤة غلام المغيرة . قال الحمد لله الذي لم يجعل مني بيدي رجل سجد لله سجدة واحدة (ابن خلدون ٢ : ٣٦٢ - ٣٦٣ . طبعة شكيب أرسلان) .

(٢) نرى كثيراً من رجال السياسة في هذا العصر الذي نعيش فيه يصطفون أقاربهم لمعاونتهم في الاضطلاع بأعباء الحكم وتبعاته . لأنهم يتوقعون الاخلاص فيهم أكثر من غيرهم . أماهل أخفق هؤلاء الساسة وأمثالهم في مثل هذه التصرفات أو نجحوا ؟ فلا يعنيها هذا . لأنه لا يطقن على أغراضهم في اختيار هؤلاء الناس . ولأن الاخفاق والنجاح لا يخضعان في الغالب لشيء واحد وإنما يرتبطان بظروف مختلفة وأسباب متعددة .

ولاه عثمان على مصر وعزل عمرو بن العاص منها لعداوة كانت بينهما، كما يذكر بعض المؤرخين^(١). وكانت وصية عثمان لابن أبي سرح أن يتتبع أثر عمرو بن العاص في سياسة مصر. ولكنه حاد عن هذه الوصية، فأرهب الأهل، وأمر بزيادة الجزية؛ وبذلك نقض العهد الذي عقده عمرو مع القبط في مصر. ولقد بين عمرو بن العاص لعثمان خطأ هذه السياسة التي سار عليها ابن أبي سرح. فإن عثمان حينئذيين له أن الجباية في مصر قد زادت بمقدار ألف دينار. قال لعمرو: إن اللقاح بعدك قد درت. فأجابه عمرو: لأنكم قد أعجمتم الفصلان^(٢). ويقصد عمرو بذلك أن هذه الزيادة إنما جاءت بسبب الضغط الشديد على الأهالي وإرهاقهم.

ولقد كانت النتيجة الحتمية لتساهل عثمان وضعف قبضته على الحكم وعصبيته لأقاربه أن استقيظت العصبية القديمة بين الأمويين والهاشميين وأخذت تشتد وتقوى يوماً بعد يوم حتى أن الهاشميين كانوا يتكلمون في عثمان ويرمونه بكثير من النقائص^(٣) وبذلك قلت هيبة الخليفة واجترأ الناس عليه. وأخيراً كان مصرعه المشؤم. وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول: إن حالة الموالى منذ بدأ عهد عثمان لم تكن كحالتهم قبل ذلك. فلقد حول مقتل عمر شعور الكثير من المسلمين إلى السخط على الأعاجم، وفوق ذلك فقد بعد عهد المسلمين بالرسول فضعفت نوازع الخير في نفوس الكثير منهم، وابتدأت الأنانية والعصبية القديمة تحيا بينهم من جديد، وصادقهم البلاد المفتوحة بخيراتهم الكثيرة فانصرفوا إلى الناحية المادية وانغمسوا في الترف والنعيم ولقد كان هذا الترف المفاجيء ذا أثر كبير في نفوسهم فشعروا بزهو وكبرياء، ونظروا إلى الموالى نظرة الغالب للمغلوب، وهي نظرة كثيراً ما تنطوى على الازدراء والتحقير: ولكن هذا لا يعني أن سياسة الخليفة نفسه مع الموالى كانت تتنافى مع العدالة والمساواة

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ١٤٢.

(٢) المرجع السالف. وفتح العرب لمصر لبنلر ص ٤٠٠.

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ١٥١.

فان سياسة الخلفاء إنما تنبعث أولاً وقبل كل شيء عن أخلاقهم الشخصية . ونوازعهم النفسية . ولقد كان عثمان نفسه ذا خلق كريم فسوى بين الناس جميعاً في الأعطية^(١) وخالف بذلك رأى عمر ورجع إلى رأى أبى بكر حتى لقد أنقص عائشة مما كان يعطيها عمر بن الخطاب وصيرها أسوة غيرها من نساء الرسول^(٢) .

٤ وكان على بن أبى طالب أيضاً يؤمن برأى أبى بكر فى العطاء وهو التسوية^(٣) . ولكن المجتمع العربى كان قد تسمم منذ جاء عهد عثمان بالأثرة والأنانية كما ذكرنا من قبل ولذا تعرض على لسخط الكثير من العرب حتى أن ابن أبى الحديد يعلل تقاعد الكثير من العرب عن نصرة على بأنه كان لا يفضل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمي^(٤) ، وحتى يروى أن طائفة من أصحاب على مشوا إليه فقالوا : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم . فقال لهم : أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور^(٥) ؟ .

فأنت ترى أن علياً بن أبى طالب يرى فى تفضيل العرب على الموالى ظلماً وجوراً لأن العصبية الإسلامية ومبادئ الإسلام العادلة كانت لا تزال متمكنة فى نفسه بينما أن أصحابه الذين أشاروا عليه بتفضيل العرب لا يرون فى ذلك ظلماً ولا جوراً لأن العصبية الإسلامية ومبادئ الإسلام العادلة قد ضعفت فى نفوسهم .

وكان على كلما رأى من الموالى إقبالا عليه أدناهم منه وقربهم إليه . وإذا حاول أحد أن ينتقده على هذا الصنيع عنفه ورد عليه بما يكبح جماحه . ومن ذلك قول الأشعث بن قيس لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وأتاه يتخطى رقاب الناس وعلى

(١) البعقوبى ج ٢ ص ١٥١ .

(٢) نفس المرجع ٢ : ١٥٢ .

(٣) الأموال لأبى عبيد ص ٢٦٤ .

(٤) ابن أبى الحديد ١ : ١٨٠ .

(٥) ابن أبى الحديد ١ : ١٨٢ .

على المنبر . فقال : يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحراء على قربك . قال فركض على المنبر
برجله . فقال صعصعة بن صوحان العبدى ما لنا ولهذا ؟ يعنى الأشعث . ليقولن أمير
المؤمنين اليوم فى العرب قولاً لا يزال يذكر ، فقال على : من يعذرني من هذه
الضيطة ؟ يتمرغ أحدهم على فراشه تمرغ الحمار . ويهجر قوم للذكر فيأمرنى أن
أطردهم . ما كنت لأطردهم فأكون من الجاهلين ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة
ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموه عليهم بدءاً^(١) .

و بهذا يتبين لنا أن عثمان وعلياً فى تمسكهما بمبدأ التسوية فى العطاء بين العرب
والموالى إنما كانا يعبران عن رأيهما ورأى فريق من العرب وهم أقوياء العقيدة والإيمان
بينما الفريق الآخر منهم كان يحتقر الموالى وينظر اليهم بمنظار أسود ...
فهل كانت تلك النظرة طارئة ثم زالت ؟ أم أنها استمرت إلى أمد طويل .. ؟
ذلك ما سنحاول أن نجيب عنه فى الفصول التالية .

(١) الكامل للبرد ٢ : ٤٤ ط المطبعة الأزهرية .

الفصل الثاني

الموالى فى العصر الأموى

حالتهم الاجتماعية

العصبية القبلية والعربية - منزلة الموالى فى المجتمع
العربى - زواج الموالى - الهجاء - تقدير عام .

ذكرنا فى الفصل السابق أن مقتل الخليفة عمر كان نقطة تحول فى تاريخ الموالى إذ ابتداء الاتجاه الإسلامى العادل نحوهم يتغير رويداً رويداً ، وأخذت تطالعنا صفحة جديدة فى حياة هذه الطائفة من الناس وهى صفحة رآها العربى شوهاء مظلمة إذ لمح روح الشر تنبعث من الأعاجم وعوامل الحقد الكامن تنتبه فى نفوسهم .

وفى الوقت نفسه نظر الأعاجم فرأوا من العرب بعداً عن الروح الإسلامىة الأولى واستثنافاً لعهود الجاهلية حيث أطلت العصبية القديمة بشبحها البغيض المفقوت وأخذ تيار الأنانية يجرى ويتدفق بين العرب من جديد بعد أن حجزه الإسلام حيناً من الدهر . وقلنا إن حالة الموالى كانت تتأثر بظهور العصبية العربية واختفائها فكما وجدت تلك العصبية ساءت حالة الموالى وانحدرت منزلتهم حتى إذا ما اختفت تنفس الموالى الصعداء وأحسوا برد الراحة ونعيم السعادة .

وما دمننا بصدد الحديث عن الحالة الاجتماعية للموالى فى العصر الأموى فإن المقياس الصحيح الذى نستطيع أن نحدد به منزلتهم فى المجتمع العربى فى ذلك الحين هو قوة العصبية العربية أضعفها .

ويقتضينا ذلك أن نتحدث عن العصبية القبلية في هذا العصر لأنها هي الأساس الذي تقوم عليه العصبية العربية إذ أن كلا العصبيتين قد انبعث من تيار واحد هو الأنانية التي كانت تبدأ في دائرة ضيقة هي الأسرة ثم تظل تنمو وتتسع حتى تشمل الشعب العربي بأكمله فتظهر أنانيته ضد الأمم والشعوب الأجنبية على حد قول المثل العامي «أنا وأخي على ابن عمي . وأنا وابن عمي على الغريب»^(١) . فنقول :

كانت تولية معاوية بن أبي سفيان انتصاراً ثانياً للحزب الأموي على الهاشمين^(٢) وقد زاد هذا الانتصار في إحياء العصبية القديمة بين الفريقين وحينئذ قويت العصبية القبلية وأخذت تنفث في الكيان العربي سموها الفتاكة القاتلة .

وقد بلغت هذه العصبية القبلية أوج ظهورها وانتشارها في موقعة (مرج راهط) وكانت هذه الموقعة سنة ٦٥ هجرية بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايع الضحاك في سبيل ابن الزبير . وكلب التي كانت تشايع مروان بن الحكم وقد فني في هذه المعركة الجمل الغفير من القيسيين وانتصرت جيوش مروان ولكن بقيت حزازات كامنة في نفوس القيسيين تتربقب الفرص . وفي ذلك يقول زفر بن الحارث وهو من أنصار القيسيين :

لعمري لقد أبقت وقعة راهط لمروان صدعا بيننا متنائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي^(٣)

ولقد تنبأت عصبية القيسيين ضد المروانيين بعد ذلك بقليل في عهد عبد الملك سنة ٦٧ هجرية في موقعة خازر وهي تلك التي قامت بين أنصار عبد الملك بن مروان بقيادة الحصين بن نمير وبين أنصار المختار الثقفي الذي قام إذ ذاك يطالب بثأر الحسين

(١) راجع صفحة ص ١٦ من الكتاب .

(٢) كان الانتصار الأول بتولية عثمان بن عفان .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري ج ٥ ص ١٤١ ، ١٤٢ . الطبري ج ٧ ص ٤١ . مروج

الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٠٧ .

ابن علي ويدعو لمحمد بن الحنفية . وكانت جيوش المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر . فلقد كان مع الحصين بن نمير جمع من القيسيين وعلى رأسهم عمير بن الحباب وفرات ابن سالم . فقال فرات لعمير قد عرفت سوء ولاية بني مروان وسوء رأيهم في قومنا من قيس ولئن خلص الأمر وصفا لعبد الملك ليستأصلن قيساً أو ليقصينهم ونحن منهم فانصرف بنا للنظر ما حال إبراهيم بن الأشتر . فلما دخلا عليه قال له عمير : لقد جاءك صناديد أهل الشام وأبطالهم وهم زهاء أربعين ألف رجل فكيف تلقاهم بمن معك ؟ فقال إبراهيم : والله لو لم أجد إلا النمل لقاتلتهم بها . وأنا ضارب الخيل بالخيول والرجال بالرجال والنصر من عند الله ^(١) . قال عمير : إن قومي قيساً إذا التقى الجيلا ن غداً في ميسرة أهل الشام فلا تحفل بنا فإننا منهزمون لنكسر الجيش بذلك فإننا لانبج ظهور بني مروان لسوء صنيعهم إلينا معاشر قيس وإنا إليك لأميل . قال إبراهيم : وذلك . ثم انصرفا إلى معسكرهما . ولما أصبح الفريقان زحف بعضهم إلى بعض فتواقفوا بمكان يدعى (خازر) ، فصاح عمير بن الحباب في قيس : يا لثارات مرج راهط فنكسوا أعلامهم وانهزموا ، فانكسر أهل الشام عند ذلك وحمل عليهم إبراهيم بن الأشتر فأكثر القتل فيهم فانهزم أهل الشام وقتل أميرهم الحصين بن نمير ^(٢) .

فأنت ترى أن القيسيين وهم يحاربون في صفوف الحصين بن نمير قد طوحت بهم العصبية القبلية في مهاوى الرذيلة فحملتهم على الغدر والخديعة وجعلتهم يتركون الجيش الذي تحالف معهم . ويفرون فجأة عن نصرته حتى حاقت به الهزيمة والاندحار .

وبلغ من خطورة العصبية القبلية وآثارها الإيجابية أن كان يترتب عليها عزل خليفة وقتله وإقامة غيره ثم عزله . . فيروى أن يوسف بن عمر الثقفي والى العراق من قبل الخليفة الوليد بن يزيد قتل خالداً القسري وهو من اليمانية لخلاف قام بينهما ^(٣) فلما علم الوليد بذلك سر وفرح وتيقظت في نفسه العصبية المضرية فقال مفتخراً :

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص ٢٨٧ و ٢٨٨ . تاريخ الفرس الأدبي لبراون .

(٢) الأخبار الطوال للدينوري ص ٢٨٨ .

(٣) المرجع السالف ص ٣٣١ .

فدع عنك اذكارك آل سعدى فنحن الأكثرون حصى ومالا
ونحن المالكون الناس قسراً نسومهم المذلة والنكالا
ونوردهم حياض الخسف ذلاً وما نألوهم إلا خبالا
شددنا ملكنا بينى نزار وقومنا بهم من كان مالا
وهذا خالد فينا قتيلاً ألا منعوه إن كانوا رجالاً ؟
ولو كانت بنو قحطان عربا لما ذهبت صنائعه ضلالا
ولا تركوه مسلوبا أسيرا نحمله سلاسلنا الثقالا
ولكن المذلة ضعفتهم فلم يجدوا لذتهم مقالا (١)

فلما سمع من كان بأقطار الشام من اليمانية هذا الشعر أنفوا أنفاً شديداً
فاجتمعوا من مدن الشام وساروا نحو الوليد بن يزيد ، وبلغ الوليد مسيرهم فأمر بمحمد بن
خالد القسرى فحبس بدمشق وأقبلت اليمانية وخرج إليهم الوليد بمضر مستعداً للحرب
فالتقوا واقتتلوا وحاقت الهزيمة بمضر فاتجهوا نحو دمشق ودخل الوليد قصره فتيحصن
فيه وأقبلت اليمانية حتى دخلوا مدينة دمشق وأخرجوا محمد بن خالد من محبسه
ورأسوه عليهم فأرسل محمد بن خالد إلى ابن عم الوليد بن يزيد وهو يزيد بن الوليد
ابن عبد الملك فجاء به فبايعوه جميعاً وأرسل إلى أشراف المضربين فبايعوه طوعاً وكرهاً
وخلعوا الوليد بن يزيد ... وجاء الخليفة الجديد فوضع للناس العطاء وفرق في اليمانية
الصلوات والجوائز وأقبل محمد بن خالد القسرى وأنصاره فتسلقوا على الوليد بن يزيد
قصره وقتلوه (٢).

وهكذا انتهت حياة ذلك الخليفة بتلك المأساة القاسية نتيجة لتلك العصبية
القبيلية التي تجلت في قصيدته السالفة .

وقد حزت هذه المأساة في القبائل المضرية فاجتمعوا من أقطار الأرض وأقبل

(١) المرجع السالف ص ٣٣٣ .

(٢) المرجع السالف ص ٣٣٣ .

بعضهم إلى بعض وساروا حتى وافوا مدينة حمص وبها مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم ، وكان يومئذ شيخ بني أمية ، وكبيرهم وكان ذا أدب كامل ورأى فاضل فاستخرجوه من داره وبايعوه وقالوا له انت شيخ قومك وسيدهم فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد فاستعد مروان بجنوده في تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر وسار نحو مدينة دمشق . وبلغ ذلك إبراهيم بن الوليد وهو الخليفة إذ ذاك فتحصن في قصره ودخل مروان بن محمد دمشق فأخذ إبراهيم بن الوليد وولى عهده عبد العزيز ابن الحجاج فقتلها^(١) .

ومن تلك الأمثلة السابقة نرى أن موجة شديدة من العصبية القبلية قد غمرت المجتمع العربي في عصر بني أمية . فتحكمت في سياستهم وتناولت إلى ولايتهم وخلفائهم حتى كانت هي التي تقيم وتقعّد ، وتنقض وتبرم ، وتوجه دفة الأمور إلى الأغراض والأهواء كلما اختلفت الأعاصير والأنواء .

وأحيا الأمويون عصبية أخرى أضيق من العصبية القبلية وهي عصبية الأسرة ، ويوضح لنا ذلك ما فعله معاوية بن أبي سفيان من حمله الناس على الاعتراف بولده يزيد خليفة من بعده وولى عهد له . ولقد سلك معاوية لتحقيق هذه الغاية سبيل الوعد والوعيد والترغيب والترهيب حتى تمت البيعة ليزيد بينما يوجد غيره من الأمثال الأكفاء الذين يتميزون عنه في جميع نواحيه كالحسن والحسين ابني علي وعبد الله بن الزبير وغيرهم من أفذاذ العرب^(٢) .

ولقد تأسّى بمعاوية في ذلك كثير من الخلفاء الأمويين فبايع مروان بن الحكم لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز . وبايع عبد الملك لابنيه الوليد ثم سليمان وهكذا . ومن يقرأ الشعر في العصر الأموي تتجلى له هذه النزعة القبلية عند العرب سافرة واضحة فيقول جرير يمدح قومه من مضر ويذم الآخرين من تغلب :

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص ٣٣٤ .

(٢) راجع ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٧ و ٢١٨ في كتابه الكامل .

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
مضرأبي وأبو الملوك فهل لكم يا آل تغلب من أب كأيننا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا^(١)

والكميت يذكر في قصيدة طويلة مناقب قومه من مضر بن نزار وربيعة بن نزار
وإياد وأئمار ابني نزار ويكثر فيها من تفضيلهم على قحطان فتثور العصبية بين
النزارية والأيمانية (القحطانية) وقد جاء في تلك القصيدة :

لنا قمر السماء وكل نجم تشير إليه أيدي المهتدين
وجدت الله إذ سمى نزارا وأسكنهم بمكة قاطنين
لنا جعل المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجين
وما ضربت هجائن من نزار فوالح من فحول الأعجمين
وما حملوا الحمير على عتاق مطهرة فيلقوا مبلغينا
وما وجدت بنات بني نزار حلائل أسودينا وأحمرينا^(٢)

وقد نقض دعبل بن علي الخزاعي هذه القصيدة على الكميت وذكر مناقب اليمن
وفضائلها وصرح وعرض بغيرهم كما فعل الكميت وذلك في قصيدته التي يقول فيها :

أفيقي من ملامك يا ظعينا كفأك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالي يشين الذوائب والقرونا
أحيي الغر من سروات قومي لقد حيت عنا يا مدينا
وما طلب الكميت طلاب وتر ولكنا لنصرتنا هجيننا
لقد علمت نزار أن قومي إلى نصر النبوة فاخرينا

(١) الأغاني ج ٧ ص ٥٩ طبعة الساسي . شرح ديوان جرير ص ٥٧٨ و ٥٧٩ .

(٢) يشير إلى غارة الحبشة على اليمن واختلاط بعض الأحباش باليمنيين حتى أنتجوا سلالة هجينة
سوداء ، وكلمة « أحمرينا » تشير فيما نظن إلى فتح الفرس لليمن واختلاط الفارسيين باليمنيين حتى
نشأ عنهم سلالة حمراء .

وهي قصيدة طويلة وقد أخذ النزارية واليمانية يتساجلان فافتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كل فريق بما له من المناقب وتحزبت الناس وثارَت العصبية في البدو والحضر^(١).

وإنه ليصور لنا مدى تلك العصبية القبلية ما يروى عن رجل من الأزد أنه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تميمية^(٢) . !
فهذا الأزدى قد أوردته العصبية القبلية موارد العقوق حتى ضن على أمه بالدعاء في وقت الطواف . وهو الوقت الذي يتجرد فيه الإنسان من شوائب الاعتبار الدنيوية مهما تكن قوتها . ولكنه على الرغم من ذلك كله قد نسي أو تناسى جلال الموقف وعاطفة البنوة حينما تذكر أن أمه تميمية . .

وفي ظل هذه العصبية القبلية كان الموالي يشعرون من العرب بازدراء واحتقار فإن العربي الذي كان يتعصب ضد ابن عمه من قبيلة أخرى كان يجتمع معه ضد الأجنبي من غير العرب كما ذكرنا من قبل^(٣) أو على الأقل كانت كل قبيلة من العرب تنظر إلى الأعجمي كأنه من قبيلة أخرى .

فليس بغريب إزاء هذه العصبية الحمقاء ما نراه من تلك الصور المتعددة والظواهر الكثيرة التي تؤيد ما قدمنا من نظرة العربي إلى المولى هذه النظرة السوداء .

فيروى أن نافع بن جبير بن مطعم قدم رجلا من الموالي يصلى به فلامه العرب

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) قد يصادف أن تشور العصبية القبلية بين القبيلتين ونرى موالي كل قبيلة يحاربون موالي القبيلة الأخرى ، ولكن هذا لا يعني أن قلوبهم مع العرب ضد اخوانهم أو أن قلوب العرب معهم حتى في الوقت الذي يستنصرون فيه بهم فان انضمام هؤلاء الموالي إلى أي قبيلة إنما يكون بدافع منفعة مادية يرجونها أو سطوة من قبيلة يخشون خطرهما كما أن ائتلاف العرب معهم كان مؤقتا وكانت مبعثه حب القبلة والفوز بالجاه والسلطان ولو كان هذا الفوز بسلاح أجنبي .

في ذلك أشد اللوم فقال : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه^(١) . وفي رواية أخرى أنه كان إذا جلس في مجلس الموالى قال : أردت التواضع لله بالجلوس إليكم^(٢) .

٢ وكان نافع بن جبير هذا إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فان قالوا قرشى قال : واقوماه ، وإذا قالوا عربى قال : وابلوتاه ، وإذا قالوا مولى قال : هذا مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء^(٣) .

ويلاحظ أن هذه الكلمة التي كانت تصدر عن ابن جبير ، إذا مرت به جنازة مولى من الموالى ، تدل على عصبية عنيفة ، بلغ من عنفها أنها لم تتأثر بجلال الموت وما يوحيه في النفس من العظة البالغة والشعور بالمساواة حيث يجمع هذا القانون الحتمى بين الشريف والصعلوك ويسوى بين العظيم والحقير ..

ونزل جرير بن عطية الخطفي بقوم من بنى العنبر فلم يضيفوه حتى اشترى منهم القرى فانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف إن بيعكم رقد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيعه نبيعه قتلتمهم بيعوا الموالى واستحيوا من العرب
قال المبرد : إن جلة الموالى أنفت من هذا البيت لأنه حطهم ووضعهم ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيباً^(٤) .

٣ وفي المعارك والحروب التي كان يشترك الموالى فيها مع العرب كان العرب يركبون الخيل ولا يسمحون للموالى بذلك بل يرغمونهم على القتال راجلين^(٥) .

وواضح أن السرف في ذلك أنهم يأنفون أن يتساوى الموالى معهم ومن ناحية أخرى يضمنون بالدم العربى ويريدون إن دارت الدائرة عليهم أن يفنى الموالى قبل

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٣ .

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ١٤٥ - دراسات في القرن الأموى للاب لامنس .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٣ .

(٤) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٥١ و ٥٣ .

(٥) الدولة العربية قيامها وسقوطها لفلهوزن ص ٢٤٥ .

العرب وألا يتمكنوا من الهرب . فلقد قال المختار الثقفي لأبراهيم بن الأشتر يوم خازر
 — وهو اليوم الذى قتل فيه عبيد الله بن زياد — : إن عامة جندك هؤلاء الحمراء
 وإن الحرب إن ضرستهم^(١) هربوا فاحمل العرب على متون الخيل وأرجل الحمراء
 أمامهم^(٢) .

ويوضح لنا هذه الفكرة مارواه البياسى فى كتابه « الإعلام بالحروب الواقعة فى
 صدر الإسلام » إذ يقول : إن المختار ولى أحرر بن شميطة قيادة الجيوش فجاء إليه
 عبد الله ابن وهب الجشمى وكان على ميسرته فقال له : إن من الموالى رجالاً كثيراً على
 الخيل وأنت تمشى فمرهم فلينزلوا معك فإن لهم بك أسوة . إني أخاف إن طوردوا ساعة
 أو طوعنوا وضربوا أن يطيروا على متونها ويسلموك ورأيك . إن أرجلتهم لم يجدوا
 من الصبر بدأ . يقول البياسى : وإنما كان هذا غشاً منه للموالى والعبيد لما كانوا لقوا
 منهم بالكوفة وأحب إن دارت عليهم الدائرة أن يكونوا رجالاً لا ينجو منهم
 أحد . ولم يتهمه ابن شميطة فظن أنه إنما أراد بذلك نصيحته ليصبروا ويقاتلوا فقال :
 يا معشر الموالى انزلوا معى فقاتلوا . فنزلوا معه ثم مشوا بين يديه وبين يدي رايته^(٣) .
 وقد هزم أنصار المختار فى هذه المعركة ولم ينج منهم إلا طائفة من أصحاب الخيل .
 وأما رجالتهم فأبيدوا إلا قليلاً^(٤) .

وذكر صاحب العقد الفريد أن العرب كانوا لا يكونون الموالى ولا يدعونهم إلا
 بالأسماء والألقاب ولا يمشون فى الصف معهم ولا يتقدمونهم فى الموكب وإن
 حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم^(٥) . وإن أطعموا المولى لسنه وعلمه وفضله أجلسوه
 فى طريق الخبز لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون

(١) يريد إذا اشتدت عليهم .

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٥٣ .

(٣) البياسى ج ٢ ص ١٤٤ مخطوط رقم ٣٩٩ تاريخ بدار الكتب الملكية .

(٤) البياسى ج ٢ ص ١٤٤ . وأنساب الأشراف للبلاذرى ج ٥ ص ٢٥٣ .

(٥) أى قام الموالى على رؤوس العرب كالخدم .

على الجنابة إذا حضر أحد من العرب . وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها
ولا إلى أخيها وإنما يخطبها إلى موالها^(١) . فإن رضى زوج وإلا رد فإن زوج الأب
أو الأخ بغير رأى مواله فسخ النكاح وإن كان قد دخل بها وكان سفاحاً غير
نكاح^(٢) .

وإذا صحت هذه الرواية فإنها تدل على مدى الاحتقار الذى كان يعانیه الموالى
ويقاسونه من العرب على الرغم من أن المبادئ الإسلامية لم تفرق بين الأجناس
المنضوية تحت لواء الإسلام كما ذكرنا قبل ذلك .

ويروى عباس بن سهل بن سعد أن الذى تولى قتال أهل الشام يوم تحريق
الكعبة هو وعبد الله بن مطيع والختار . قال وخرج المختار وخرجت معه . فقلت ليخرج
إلى منكم رجل وقال المختار مثل ذلك . فخرج إلى رجل وإليه آخر فشيت إلى
صاحبي فقتلته ومشى المختار إلى صاحبه فقتله ، فاذا الذى قتلته رجل أحمـر شديد الحمرة
كأنه رومى . وإذا الذى قتل المختار أسود شديد السواد قال^(٣) : أما والله لو قتلنا
لقجع بنا عشائـرنا ومن يرجونا ، وما هذان وكلبان من الكلاب عندى إلا سواء
ولا أخرج بعد يومى هذا أبداً إلا لرجل أعرفه^(٤) .

وروى أن خالد بن صفوان زوج مولى له من مولاة . وقد خطب خالد فى هذا
الزواج أمام الناس فقال : أما بعد فإن الله أعز وأجل من أن يذكر فى نكاح هذين
الكليين . وقد زوجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة^(٥) .

ويقول رفيع بن هذيل الأسدى وهو يتحدث عن بعض صفات الموالى

(١) أى إلى سيدها الذى تنسب إليه بطريق الولاء .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٣ .

(٣) أى المختار .

(٤) البياسى ج ٢ ص ١٠٧ .

(٥) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٣٠ .

ومن لا يلبس المولى مراراً على الأقدار ، ليس له موالى^(١)
 وكان العرب يقولون : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو مولى أو كلب^(٢) وكانوا
 يسمون الموالى بنى إستها^(٣) . وهى كلمة قبيحة للتشنيع عليهم والخط من شأنهم .
 وكما كان اليونان فى العصور القديمة يعتقدون بسمو كل ما هو يونانى حتى أن
 أرسطو بنى نظريته فى الرق على أساس أن الرقيق لا بد أن يكون من عنصر أجنبى
 عن اليونان^(٤) ، فكذلك كان العرب فى هذا العصر الذى تؤرخه يعتقدون أنهم
 خلقوا للسياسة والسيادة وأن غيرهم خلق للخدمة والمهانة ، حتى أنه ليروى أن عربياً
 تخاصم مع مولى بين يدي ابن عامر صاحب العراق فقال له المولى : لا كثر الله فينا
 مثلك . فقال له العربى : بل كثر الله فينا مثلك . فقليل له : أيدعو عليك وتدعوه له ؟
 قال : نعم . يكسحون طرقتنا ، ويخززون خفافنا ويحكون ثيابنا^(٥) .
 ولم تكن نظرة العربى للموالى نظرة ازدراء فحسب . ولكنها كانت متميزة بكثير
 من البغض والكراهية . وروى ابن سعد فى ذلك أن الشعبى مر ومعه صالح بن مسلم
 فوجدا حماداً بالمسجد وحوله أصحابه من الموالى ولهم ضوضاء وأصوات فقال : والله لقد
 بغض إلى هؤلاء هذا المسجد حتى تركوه أبغض إلى من كناسة دارى^(٦) .
 وليس أدل على مدى كراهيتهم للموالى من أن أصحاب مصعب بن الزبير قد
 اقترحوا عليه حينما استسلمت إليهم جيوش المختار أن يقتل الموالى ويطلق سراح
 غيرهم^(٧) . ولقد علق بعض مؤرخى الفرنجة على هذا الحادث بقولهم : «ولاشك أن محاولة

(١) الحماسة للبجترى ص ٢٤٦ طبعة لويس شيخو .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٣ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٦ ص ١٧٥ طبعة أوروبية .

(٤) النظريات السياسية عند اليونان والرومان للاستاذ سامى عاشور .

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٣ .

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٦ ص ١٧٥ طبعة أوروبية .

(٧) الطبرى ج ٧ ص ١٥٩ - ١٦١ .

قتل الموالى من الأعاجم وإطلاق العرب السجناء تدل على أن الصفة البارزة لهذا العصر تتجه نحو العصبية العربية ^(١). ونحن نقر هذه الملاحظة ولا نرى فيها شيئاً من المبالغة حيث إن المصادر العربية الرئيسية كلها تشير إلى مثل ذلك.

ومن المظاهر التي تدل على مدى احتقار العرب للموالى ما كان يسود بينهم من الترفع عن مصاهرة الموالى والامتناع من تزويجهم أنفة واستكباراً واعتقاداً بأنهم جنس شريف ولا يصح أن يقاس الموالى بهم أو يسيروا في صفوفهم. وكانوا يمتقنون زواج الموالى من العربية وزواج العربي من غير العربية ويعتقدون في ذلك النقيصة والعار. ولكن أقوياء الإيمان — وهم قليل إذ ذاك — كانوا لا ينظرون مثل هذه النظرة بل كانوا يعتبرون أن الإسلام هو الأساس وهو المقياس الفارق بين الشرف والخسة.

I ولقد أعتق الحسين بن علي جارية له ثم تزوجها بعد ذلك فكتب معاوية إليه « من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علي . أما بعد فإنه بلغني أنك تزوجت جاريته وترك أ كفاءك من قریش ممن نستحسنه للولد ونمجد به في الصهر فلا لنفسك نظرت ولالولدك انتقيت » . فكتب إليه الحسين بن علي « أما بعد فقد بلغني كتابك وتعبيرك إياي بأني تزوجت مولاتي . وترك أ كفاءى من قریش فليس فوق رسول الله منتهى في شرف ولا غاية في نسب وإنما كانت ملك يميني ، خرجت عن يدي بأمر التمسست فيه ثواب الله تعالى . ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنابه النقيصة . فللوم على امرئ مسلم إلا في أمر مآثم وإنما اللوم لوم الجاهلية ^(٢) » . وعلى بن الحسين بن علي المعروف بزین العابدين أعتق جارية له وتزوجها . فكتب إليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك . فكتب إليه زين العابدين : لقد كان

(١) مویر ص ٣٣٦ وبراون ص ٢٢٩ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢٩ — زهر الآداب للحصري ١ : ٥٧ ط زكي مبارك .

ودراسات إسلامية في حكم معاوية للاب لامنس ص ٣٧٥ .

لكم في رسول الله أسوة حسنة . وقد أعتق رسول الله صفية بنت حيي بن أخطب
وتزوجها . وأعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش^(١) .

ولكن زواج العربي بغير العربية كان أخف بكثير في نظرهم من زواج المولى
بالعربية ، فإذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره إلى الوالى طلقها منه ، كما حدث
لأعراب بنى سليم في الروحاء فإنهم جاءوا الروحاء فخطب اليهم بعض موالها إحدى
بناتهم فزوجوه . فوشى محمد بن بشير الخارجى إلى والى المدينة بذلك ففرق الوالى بين
الزوجين وضرب المولى مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه . وفى ذلك قال
محمد بن بشير يمدح عمل الوالى واسمه أبو الوليد :

شهدت غداة خصم بنى سليم	وجوهاً من قضائك غير سود
قضيت بسنة وحكمت عدلاً	ولم ترث الحكومة من بعيد
إذا غمز القنا وجدت لعمري	قناتك حين تغمز خير عود
حمى حدباً لحوم بنات قوم	وهم تحت التراب أبو الوليد
وفى المائتين للمولى نكال	وفى سلب الحواجب والحدود
إذا كافأتهم بينات كسرى	فهل يجد الموالى من مزيد ؟
فأى الحق أنصف للموالى	من اصهار العبيد إلى العبيد ^(٢)

ويذكرون أن عظيماً من عطاء الدهاقين أراد أن يتزوج امرأة من باهلة . وباهلة
كما نعلم من أحط قبائل العرب حتى قال بعض الشعراء فى ذلك :

لو قيل للكلب يا باهلى عوى الكلب من شؤم ذاك النسب
وحقى قال الآخر :

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهلة^(٣)

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ١٥٩ - وكتاب يزيد للاب لامنس ص ٨٣ .

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ١٤٤ طبعة السامى .

(٣) ابن خلكان ٢ : ١٨٢ طبعة الوطن .

ومع ذلك أرسل إليها هذا العظيم يخطبها فأبت فاستجاش ورجا أن يسبوا من
 في القصر حتى يتسنى له أن يأخذ المرأة فثارت نائرة القبائل العربية وعلى رأسهم
 المسيب بن بشر الرياحي وشعبة بن ظهير النهشلي وثابت قطنه ، حتى قال شعبة بن ظهير
 لو كان ههنا خيول خراسان ما وصلوا إلى غايتهم ، وقد استهدف العرب من جراء
 ذلك لحرب كبيرة وانتصر فيها العرب بعد أن أحاطت بهم الأهوال . وفي ذلك يقول
 شاعرهم وهو يفتخر :

فلولا الله ليس له شريك وضربى قونس الملك الهام
 إذن لسعت نساء بني دثار أمام الترك بادية الحزام
 فمن مثل المسيب في تميم أبي بشر كقادمة الحمام^(١)
 وقال جرير يذكر المسيب ويمتدح عمله :

لولا حماية يربوع نساءكم كانت لغيركم منهن أطهار^(٢)
 وإن من يقرأ قصيدة أبي بجير في تأنيب آل عبد القيس لتزويجهم الموالى
 يتجلى له إلى أي حد كان العرب ينكرون هذه الناحية ويحاربونها ويرون فيها
 الذلة والصغار . قال أبو بجير :

- أمن قلة صرتم إلى أن قبلتم دعارة زراع وآخر تاجر
 - وأصهب رومي وأسود فاحم وأبيض جعد من سراة الأحامر
 - فهلا أتيتم غفة وتكرما وهلا وجلتم من مقالة شاعر
 تعيينون أمراً ظاهراً في بناتكم وفخركم قد جاز كل مفاخر
 لقد صرت لأدري وإن كنت ناسياً لعل نجاراً من هلال بن عامر

(١) الطبري ج ٨ ص ١٦٢ - ١٦٤ حوادث سنة ١٠٢ .

(٢) المرجع السالف . وشرح ديوان جرير ص ١٩٨ .

وعلى رجال الترك من آل مذحج وعلى تميم عصابة من يخامر
وعلى رجال العجم من آل عالج وعلى البواذى بدلت بالخواضر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم وأولى بقرابنا ملوك الأكاسر^(١)

٢ I ووسط هذا التيار الجارف من العصبية العربية استطاعت الأغراض والأهواء أن
تنفذ إلى الأحاديث النبوية وهى إحدى الدعائم التى يقوم عليها الدستور الإسلامى
فوضع الوضعاءون أحاديث تتفق مع هذه النزعة ونسبوها لرسول الله صلى الله عليه
وسلم لكى يزداد التمسك بها من جمهرة المسلمين .

ولا شك أن وضع مثل هذه الأحاديث ورواها عند الفقهاء فى ذلك الوقت
يصور لنا الروح التى كانت تسود بينهم وتسيطر على أفكارهم فيروون أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : ألا لا يزوج النساء إلا الأولياء ولا يزوجن إلا من الأكفاء .
وقال : قريش بعضهم أكفاء لبعض بطن بطن ، والعرب بعضهم أكفاء لبعض قبيلة
بقبيلة ، والموالى بعضهم أكفاء لبعض رجل رجل^(٢) . وقد نظر بعض الأئمة من
الفقهاء إلى هذين الحديثين فقالوا : إن الكفاءة فى النكاح معتبرة من هذه الناحية ،
وإن الأعجمى ليس بكفاء للعربية^(٣) .

٤ ولونظرنا إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على
عجمى إنما الفضل بالتقوى » وما يؤيده فى قوله تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٢ .

(٢) القرشيان من جمهما أب واحد هو النضر بن كنانة فن دونهم ومن لم ينسب إلا إلى أب
فوقه فهو عربى غير قرشى وقريش عمارة تحتها بطون وأعم الطبقات الشعب مثل حمير وربيعة ومضر
ثم القبيلة مثل كنانة وقد نظم ذلك بعض الشعراء فقال :

قبيلة فوقها شعب ودونهما عمارة ثم بطن تلوه نخذ
وليس بأوى الفتى إلا فضيلته ولا سداد لسهم ماله قذذ

وقد يطلقون القبيلة على أولاد الأب الواحد .

(٣) المذهب فى فقه الشافعية .

وأثنى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (وما ورد في سبب نزول هذه الآية من أن رسول الله صلى عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند (مولى لهم) امرأة منهم فقالوا : يا رسول الله نزوج بناتنا من موالينا؟ فنزلت تلك الآية ^(١) للرد عليهم ولإرشادهم إلى الطريق الإسلامى الصحيح . . لو نظرنا إلى ذلك وغيره وجدنا أن الكفاءة فى النكاح من هذه الناحية غير معتبرة وأن الأساس فى الكفاءة هو الإسلام فحسب . ولذا فإننا نشك كثيراً فى هذين الحديثين اللذين استدل بهما بعض الفقهاء فى عدم كفاءة الأعجمى للعربية ونرجح أنهما من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ويساعدنا على ذلك الترجيح فوق ما ذكرناه من الآيات والأحاديث ما ذكره بعض العلماء فى هذا الصدد . فلقد ذكر صاحب كتاب فتح القدير فى فقه الحنفية ^(٢) عن حديث « ألا يزوج النساء إلا الأولياء ولا يزوجن إلا من الأكفاء » أنه حديث ضعيف لأن فى سنده مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطاة . والحجاج مختلف فيه نسبه قوم إلى الوضع . وقال فى حديث « قرش بعضهم أكفاء لبعض إلخ . . . » رواه الحاكم بسند فيه مجهول فإن شجاع بن الوليد قال : حدثنا بعض إخواننا عن ابن جريح عن عبد الله بن أبي مليكة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من طريق آخر بسند فيه عمران بن أبي الفضيل الأيلي وقد ضعفت هذه الرواية بأن عمران قد عرف عنه أنه يروى الأحاديث الموضوعة ^(٣) .

وبهذا يتبين لنا أن الحديثين المفيدين لاعتبار الكفاءة فى النكاح عن طريق الاختلاف القبلى أو الجنسى ضعيفان أو موضوعان ولا يصح الاستناد إليهما .

وقد ثبت من الناحية العملية أن أخت عبد الرحمن بن عوف تزوجت من بلال

(١) حاشية الجمل على شرح الجلالين ج ٤ ص ٢١٦ .

(٢) شرح فتح القدير ج ٢ ص ٤١٧ .

(٣) شرح فتح القدير ج ٢ ص ٤٢٠ .

وهو حبشي وزوج أبوحذيفة بنت أخيه من مولاه ^(١) ولم ينكر عليهما الرسول صلى الله عليه وسلم هذا العمل بل لقد زوج الرسول مولاه زيد بن حارثة زينب بنت جحش (بنت عمته) ^(٢).

وإذن فالدين الإسلامي لا يمنع أن يتزوج المولى من العربية أو أن يتزوج العربي من الأعجمية ولكن الأمويين — بصفة خاصة — قد تنهت في نفوسهم العصبية العربية فجعلتهم يحتقرون كل شيء ليس بعربي ويرون فيه الخسة والصغار ^(٣).

ولم يقتصر احتقار العرب على الموالى فحسب ولكنه امتد إلى طائفة المولدين فكانوا يحتقرون ابن الأمة من العربي ويسمونهم المهجين إشارة إلى ما فيه من عيب ونقص. جاء في لسان العرب المهجنة من الكلام ما يعيبك والمهجين العربي ابن الأمة لأنه معيب. وقال الشاعر:

ما غيرت وجهه أم مهجنة إذا القتام تغشى أوجه المهجن ^(٤)

وقال عبد الملك بن مروان:

ألم أنهم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوى المرءان هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وأدركه خالاته فزغنه ألا إن عرق السوء لا بد يدرك ^(٥)

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ج ١ ص ٢٠٦.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ١٥٩.

(٣) من العجيب أن العرب قد توارثوا هذه النزعة منذ ذلك الزمن البعيد جيلا بعد جيل حتى أننا نراها لا تزال مهيمنة على نفوس القبائل العربية الموجودة في عصرنا الذي نعيش فيه ففراهم في مصر مثلا يأنفون أن يزوجوا بناتهم إلى الفلاحين (وهم الذين تنطبق عليهم التسمية بالموالى لأنهم من المسلمين وليسوا من العرب) ويقولون حينما يحاول أحد من الفلاحين أن يتزوج منهم: يأخذها التماسح ولا يأخذها الفلاح. وعرب الصعيد يقولون: لا تزوج بنتك للفلاح لثلا تبغل أى لثلا تنجب أولاداً كراماً. (٤) الأغاني ج ٤ ص ١٠٥. (٥) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٠.

وذهب أعرابي إلى سوار بن عبد الله القاضي فقال : إن أبي مات وتركني وأخاً لي ،
وخط خطين ناحية ، ثم قال : وهجينا لنا . ثم خط خطأً آخر ناحية ، ثم قال : كيف
ينقسم المال بيننا ؟ فقال سوار : المال بينكم يقسم أثلاثاً إن لم يكن وارث غيركم . فقال
له : لا أحسبك فهمت إنه تركني وأخى وهجينا لنا فقال سوار المال بينكم سواء . فقال
الأعرابي : أياخذ المهجين كما أخذ ويأخذ أخى ؟ قال : أجل . فغضب الأعرابي وقال :
تعلم والله أنك قليل الخالات بالدهناء ^(١) . فقال سوار : إذن لا يضرني ذلك عند الله
شيئاً ^(٢) ولكن وجد من بين العرب قوم آخرون كانوا لا يرون مثل هذا الرأي ،
إذ كانوا يعتقدون أن الأصول والأحساب إنما ترجع للآباء وأن المرأة ليست إلا
كالوعاء . وفي ذلك يقول الشاعر :

لا تشتمن امرءاً من أن تكون له أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية مستودعات وللأحساب آباء ^(٣)
ولا شك أن من إنصاف هذا العصر ألا تنهم وحده بالعصبية العربية . فإن العصر
العباسي - وهو العصر الذي ازدهى فيه العنصر الأعجمي بالنصر والغلبة على العنصر
العربي - لم يخل من تلك العصبية العربية ، حتى أننا رأينا بعض الموالى في العصر العباسي
يحاولون التنصل من جنسيتهم بالانتماء إلى القبائل العربية عن طريق الادعاء الكاذب .
فأبو مسلم الخراساني وهو رافع لواء الثورة على الدولة الأموية العربية يصطنع
لنفسه نسباً عربياً فيزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ^(٤) .
ووالبة بن الحباب ادعى النسب إلى العرب فهجاه أبو العتاهية بقوله :

(١) قيل إنه ليس بالدهناء أمة وإنما كان بها الحرائر - الكامل للمبرد .

(٢) عيون الأخبار ج ٢ ص ٦١ .

(٣) المقد الفريد ج ٣ ص ٢٢٩ - كتاب يزيد للأب لامنس .

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٦٧ ، وضحي الإسلام ج ١ ص ٣٦ .

أوالب أنت في العرب كمثل الشيص في الرطب^(١)

ويروى أنه كان لعلی بن الخلیل الکوفی صديق من الدهاقين يعاشره ويبره
فغاب عنه مدة طويلة وعاد إلى الكوفة وقد أصاب مالا ورفعة وقويت أحواله فادعى
أنه من بني تميم . فجاءه علی بن الخلیل فلم يأذن له . ولقيه فلم يسلم عليه فقال يهجوہ :

يروح بنسبة المولى ويصبح يدعى العربا
فلا هذا ولا هذا ك يدركه إذا طلبا
يشم الشيخ والقيصو م كى يستوجب النسبا
فصار تشبهاً بالقو م جلفاً جافياً جشبا

وذكر ثعلب أن إسحق بن إبراهيم أنشد هذه الأبيات لعلی . قال :

يأيها الراغب عن أصله ما كنت في موضع تهجين
متى تعربت وكنت امرأ من الموالى صالح الدين
لو كنت إذ صرت إلى دعوة فزت من القوم بتمكين
لكف من وجدى ولكنى أراك بين الضب والنون^(٢)

والتفسير الصادق لهذه الظاهرة من الموالى . هو أنهم في العصر العباسى كانوا
أيضاً يشعرون بالعصبية العربية شعوراً لا ريب فيه . ولكن الفارق بين العصر
العباسى والعصر الأموى ، أن العصبية العربية في عهد العباسيين قد برز لها أعداء
يكافحونها ويكيدون لها في وضوح النهار ، بينما كانوا في العصر الأموى لا يجراؤن
على المجاهرة بالعداء ، بل يعملون بين طيات الكتمان ، وفي ظلام السر والخفاء .

ومن الإنصاف لهذا العصر الأموى أيضاً أن نقول إن نزعة العداء والاحتقار

(١) الأغاني ج ١٦ ص ١٤٤ طبعة السامى .

(٢) الأغاني ج ١٣ ص ١٧ . ومعنى البيتين الأخيرين لو أنك حينما ادعيت العروبة تصدق ويؤيدك
العرب في هذه الدعوى لسهل على الأمر ولقل وجدى ، ولكنى أراك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

التي كانت تظهر من العرب نحو العناصر الأعجمية لم تكن سائدة بين الأوساط الدينية والعلمية ، فالرجل الذي كان يعرف من الموالى بصلاحه وتقواه أو بعلمه وأدبه ، كان ينال من جمهرة الشعب ومن الطبقة الحاكمة كل احترام وتقدير^(١) . ويكفي أنه لما توفي الحسن البصري خرجت البصرة كلها تشيع جنازته حتى تعطلت صلاة العصر لأول مرة بمسجدها الجامع^(٢) . إلى غير ذلك مما هو مذكور في تراجم العلماء والصالحين من الموالى . ولعل هذا مما يزيل التناقض الذي يبدو في الكتب القديمة من أخبار تدل على احتقار الموالى في تلك الحقبة من الزمن . وأخبار أخرى تدل على احترامهم^(٣) .

وأخيراً فمن الإنصاف لهذا العصر أن نقول إن كثيراً من الموالى كانت تبدر منهم بوادر تبعث الشكوك والهواجس في نفوس الحكام الأمويين . إذ كانوا يرون من بعضهم خروجاً عن المبادئ الإسلامية ، ومحاولة للانتكاس والرجوع إلى دياناتهم القديمة^(٤) . وكانوا يرون من البعض الآخر نزعات قومية تميل إلى القضاء على السيادة العربية وتتمسك القرص لذلك ، وطالما أقضوا مضاجع الأمويين بالدعايات السرية والثورات المتعاقبة^(٥) . فأضاف سلوكهم هذا عاملاً جديداً إلى العامل الأصيل في كراهية الموالى واحتقارهم وهو العصبية العربية ، وكان الأمويون من أجل هذا وذاك يقابلون العدوان بمثله أو أكثر ، وتبعاً لهذا كانت تنحدر منزلة الموالى وتسوء حالهم ، ويلاقون من العرب ألواناً مختلفة من العنت والازدراء .

(١) راجع ترجمة سعيد بن جبير في كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ ، وترجمة الحسن البصري في كتاب ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ طبعة مطبعة الوطن .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٣) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٨ .

(٤) سنتعرض لذلك عند كلامنا على « الموالى والحركة الفكرية » .

(٥) سندكر ذلك بتوسع في الفصل الأخير من الكتاب .

الفصل الثالث

سياسة الدولة الأموية نحو الموالي

الأمويون بين الأحزاب المعارضة - حاجتهم الشديدة إلى بذل الأموال
الكثيرة لتدعيم سلطانهم واجتذاب الخارجين عليهم - العمال الأمويون
برهقون الرعايا الأجانب - السياسة القديمة نحو الموالي تتغير : في الجزية والحراج
والعطاء - الوظائف الكبرى تقصر على العرب - تعريب الدواوين .

بلغت الفتوح الإسلامية مداها في عصر الدولة الأموية وأصبحت أملاك المسلمين
تتد من المحيط الأطلسي غربا إلى بلاد الصين شرقا ، ومن سهول آسيا وجنوب غرب
أوروبا شمالا إلى المحيط الهندي والصحراء الأفريقية الكبرى جنوبا .
ومع ذلك فقد كان العرش الأموي يضطرب فوق تيارات الفتن المتلاحقة التي
لم تكن تسكن حيناً إلا لتبدأ من جديد قوية عنيفة : فالخوارج ، والعلويون ،
والزيريون . وهؤلاء جميعاً يشتركون في بغض الأمويين ويعملون بكافة الوسائل
على الكيد لهم^(١) .

(١) ظهر حزب الخوارج على أمر قبول علي بن أبي طالب مبدأ التحكم في موقعة صفين وهي تلك
الموقعة التي قامت بين علي ومعاوية في سبيل الخلافة وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن علياً إمام ببيع
صحيحة فلا معنى لقبوله التحكم مع جماعة خرجوا عليه فإن الواجب يحتم عليه أن يعرض في قتالهم حتى
يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس عن آخرهم ، فلما قبل على التحكم خرجوا عليه وكونوا حزباً قوياً له
مبادئ خاصة أهمها : أنهم يرون أن الخلافة حق طبيعي لكل مسلم ما دام كفاءاً لا فرق في ذلك
بين قرشي وغير قرشي ؛ ولذا كان معاوية أبغض إليهم من علي لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأهوال
المسلمين ولأنه لم ينل الخلافة عن رضى وإجماع من المسلمين . وقد ظل الخوارج شوكاً في جنب الدولة
الأموية يهددون بها ويحاربونها حرباً تكاد تكون متواصلة في شدة وشجاعة نادرة وأشرفوا في بعض
مواقفهم على القضاء على الدولة . وظل المهلب بن أبي صفرة يعاني في قتالهم الشدائد والأهوال . وقد
كانوا فرعين : فرعاً بالعراف وما حولها وكان أهم مراكزهم البطائع بالقرب من البصرة وقد استولوا
على كرمان وبلاد فارس وهددوا البصرة وهؤلاء هم الذين حاربهم المهلب واشتهر من رجالهم نافع بن
الأزرق وفطري بن الفجاءة . وفرعاً بجزيرة العرب وقد استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن =

ثم هناك عدو مشترك للجميع ، وهو كل من لم يسلم من أهل البلاد المفتوحة سواء أكان ينتمي إلى القبائل العربية أم كان من العناصر الأجنبية . ولا شك أن هؤلاء الذين لم يسلموا وإن كانوا يتظاهرون بالخضوع للدولة ويدفعون ما عليهم من الجزية وكافة الالتزامات المالية إلا أنهم كانوا ينطوون على حقد كمين يتلمس الفرص ويتربص الدوائر . ومن أجل ذلك كان موقف معاوية بن أبي سفيان مؤسس تلك الدولة في غاية الدقة والحرج ، ولولا حله النادر ، وأفقّه الواسع ، وتجاربه الكثيرة لما استطاع أن يصمد لتلك الأعاصير الجائحة ، ولا نهارت الدولة الأموية قبل أن يتم بناؤها .

== والطائف وأشهر رجالهم أبو طالب ونجدة بن عامر ، ولم يتغلب الأمويون على هذين الفرعين إلا بعد حروب طويلة شديدة استمرت طول عهد الأمويين . وقد أوهنت هذه الحروب الكثير من قوة الدولة الأموية وأضعفت مقاومتها لسائر الأحزاب المعارضة (كتب عن الحوارج بتوسع للبرد في كتابه الكامل جزء ٣ من ص ٩٠ إلى ص ١٦٠ ط الدجواني . نجر الإسلام للأسقاذ أحمد أمين بك ص ٣١٤ وما بعدها . تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم جزء ١ ص ٣٨٥ و ٤٥٨ وما بعدها) .

وأما العلويون - وهم شيعة علي بن أبي طالب وذريته - فقد قاموا بثورات كثيرة ضد الدولة الأموية . ففي عهد يزيد بن معاوية خرج الحسين بن علي مطالباً بالخلافة وقام بثورة عنيفة انتهت بقتله في كربلاء . وفي عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة مطالباً بالخلافة ووالى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي فقتل زيد ودفن فلما علم به يوسف بن عمر نبشه وصلبه ثم كتب هشام يأمر بأن يحرق فأحرق ونسف رماده في الفرات وقال في ذلك يحيى بن زيد :

لكل قتيل معشر يظلمونه
وليس يزيد بالعراقي طالب

ثم خرج يحيى بن زيد بأرض الجوزجان على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فوجه إليه نصر بن سيار وإلى خراسان من حاربه وقتله . وهذا كله عدا الثورات التي قامت من غير آل البيت ولكنها تؤيد دعوتهم كثورة المختار الثقفي وثورة أبي مسلم الخراساني وستحدث عنهما في الفصل الأخير من الكتاب (راجع في ثورات العلويين - كتاب مقالات الإسلاميين للأشعري ص ٧٥ - ٧٩ ج ١) .
وأما الزيريون فقد قام زعيمهم عبد الله بن الزبير بطالب بالخلافة ، حينما خلا له الجو بعد مقتل الحسين بن علي في عهد يزيد بن معاوية . فدعا لنفسه عام ٦١ هـ وقد علا أمره بمكة . وكان به أهل المدينة وقال الناس : أما إذ هلك الحسين عليه السلام فليس أحد ينازع ابن الزبير (الطبري جزء ٦ ص ٢٧٤) . وقد اتسع نطاق الدعوة لابن الزبير فانضم إليه أهل مكة والمدينة عدا عبد الله بن العباسي ومحمد بن الحنفية ، إذ كانا يعتقدان أن بني هاشم أحق بالخلافة . وسرعان ما دخل أهل العراق في طاعة عبد الله بن الزبير وكذلك أهل مصر ، وأما بلاد الشام فقد انقسمت إلى أمويين وزبيريين وهكذا كاد يستتب له أمر الدولة لولا ظروف خاصة لا محل لذكرها الآن ، ولكن المهم لدينا أن حركة ابن الزبير قد قاومها الأمويون بشدة حتى انتهت بمقتله على يد الحجاج الثقفي سنة ٧٣ هـ بعد أن أرق الأمويين وأقض مضاجعهم هذا الأمد الطويل .

ولقد كان الموالي منذ ذلك الوقت يكونون طبقة في المجتمع الإسلامي الواسع
 الأكناف. لذلك نستطيع أن نقول إنهم أصبحوا كالشجر في حلق الدولة، وأن
 الدولة من أجلهم وقعت بين نارين أو بعبارة أخرى أن الدولة قد اضطربت بسببهم
 بين تيارين متناقضين: تيار الدين الإسلامي بما ينطوي عليه من مبادئ العدالة
 والمساواة. وتيار العاطفة الجنسية والعادات القبلية الجاهلية التي أطلت برأسها من
 جديد. فالدين كما قدمنا يأمر بالمساواة بين سائر المسلمين. والعاطفة الجنسية والتقاليد
 الجاهلية تسمو بالعنصر العربي وتحاول أن تعطيه حقوقاً أكثر ومزايا أجل وأعظم. وقد
 تبين لنا في الفصل السابق حالة الموالي الاجتماعية ومنزلتهم وسط المجتمع الإسلامي
 العربي. ولا شك أن سياسة الدولة الأموية مع الموالي — أعنى سياسة الخلفاء والولاة
 الأمويين معهم — لا بد أن تتأثر بالنزعات الطبيعية المتأصلة في نفوس هؤلاء الخلفاء والولاة
 وقد رأينا فيما تقدم أن النظرة العربية في جعلها إلى الموالي كانت نظرة احتقار وازدراء
 وهذا يجعلنا نتوقع أن تكون سياستهم مع الموالي سياسة عنيفة قاسية فإنه من المبادئ
 المقررة لدى علماء النفس أن احتقار شخص وازدراءه من غير مسوغ معقول يؤدي
 حتماً إلى الانتقاص من حقوقه والإساءة إليه في المعاملة.

ونحن إذا ما تتبعنا تاريخ الخلفاء والولاة الأمويين وجدناهم في مجموعهم متشبثين
 بالعصبية العربية التي لا يقرها الإسلام والتي هي الظاهرة الواضحة في عصرهم.
 ووجدناهم قد اصطنعوا أساليب الحكم عند الأمم المجاورة التي هي أكثر خبرة منهم
 في حكم الامبراطوريات الشاسعة. وقد اقتضى الجرى على هذه الأساليب بذل النفقات
 الطائلة تثبتاً لدعائمها وصيانة لبنائها من الانهيار. وكانت هذه النفقات الطائلة على
 حساب رعاياهم ومحكوميتهم، وعلى الأخص إذا لم يكونوا عرباً مثلهم. فكانت
 معاملتهم إياهم لا تسير على أسس ثابتة، ولا يميلها الحرص على المصلحة العامة وعلى
 مبادئ العدل والمساواة كما سيتبين لنا فيما بعد. وسنحاول في هذا الفصل أن نبين
 موقف الدولة من هذا العنصر الأجنبي، بل من المسلمين منه فحسب، كما تقتضيه طبيعة

البحث الذي نحن بصددده . وسنعرض لهم في نواحي الجزية والخراج والعطاء إلى غير ذلك من تلك النواحي الأساسية في حياتهم وفي حياة الدولة والتي لم يسر فيها الأمويون على نظام واحد بل كانوا أحيانا ينتزعون النظم من مصالحهم الطارئة وأغراضهم المفاجئة . ولتوضيح ذلك نقول :

كانت القواعد الإسلامية تقضى برفع الجزية عن كل من أسلم^(١) كما كانت تقضى بأن الأرض التي أسلم عليها أهلها تكون أرضاً عشرية ولا يفرض عليها خراج وكذلك الأرض التي أحيها المسلمون أو أحرزها الفاتحون عنوة^(٢) . أما الأرض

(١) الجزية : هي مبلغ معين من المال يوضع على الرؤوس ويسقط بالإسلام . وقد ثبتت بنص القرآن لقوله تعالى : « قالوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » والفرق بينها وبين الخراج ، أن الخراج يوضع على الأرض لا على الرؤوس ، ولا يشترط فيه أن يكون مالا وقد لا يسقط بالإسلام .

ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، فلا تؤخذ جزية من مسكين ولا من لا قدرة له على العمل ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون أو غيرهم من ذوى العاهات ولا من المترهبين في الأديرة إلا إذا كانوا من الأغنياء . قال الماوردي : « ويلتزم المسلمون لأهل الزمة بعد أخذ الجزية منهم بمقتضى : أحدهما الكف عنهم . والثاني الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين » . ولا تؤخذ الجزية إلا من القميين فلا تؤخذ من مشركي العرب ، لأن هؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل كما ذكرنا في الفصل الأول . وتؤخذ الجزية من الأغنياء ٤٨ درهما . ومن المتوسطين ٢٤ درهما ، ومن الفقراء الذين يكسبون ١٢ درهما ومن عجز منهم كان يخفف عنه وليست الجزية من مستحدثات الإسلام ، بل هي قديمة فرضها اليونان على سكان آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد كما وضع الرومان والفرس الجزية على الأمم التي أخضعوها وكانت سبعة أمثال الجزية التي وضعها المسلمون . رجعنا في ذلك إلى الكتب الآتية : « الخراج ليجي بن آدم فقرة ٢٩ ، والخراج لأبي يوسف ص ٤٣ و ١٥٣ و ١٥٤ المطبعة السلفية . والأحكام السلطانية الماوردي ص ١٢٧ الطبعة الأولى ، والنظم الإسلامية للدكتورين حسن وعلي إبراهيم » .

(٢) العنوة : القهر . أي فتحت بعد قهر أهلها بالقتال . وإنما تكون مثل هذه الأرض عشرية « أي يؤخذ عليها عشر ثمارها ومحصولاتها ولا يدفع عنها خراج » بشرط أن يقسمها الخليفة بين الفاتحين فيملكوها . وحيث لا يدفعون عنها الخراج بل يدفعون العشر . أما إذا لم يقسمها الخليفة على المحاربين . بل وقفها على مصالح المسلمين فتكون أرضاً خراجية لا عشرية كما فعل عمر بن الخطاب بأرض السواد ، وللأئمة من الفقهاء آراء كثيرة في الأرض الخراجية والعشرية ذكر بعضها كتاب الأحكام السلطانية الماوردي ص ١٣١ وما بعدها . وذكرتها كتب الفقه في جميع المذهب بتوسع كبير .

التي صولح عليها أهلها فإنها تكون فيئاً^(١) ويوضع عليها الخراج . وهذا النوع
الأخير من الأرض ينقسم إلى قسمين: أحدهما أرض صولح أهلها على زوال ملكهم
عنها وهذه لا يجوز بيعها ويكون خراجها أجرة ولا يسقط هذا الخراج بإسلام أهلها
بل يؤخذ من المسلم ومن أهل الذمة . والثاني أرض صولح أهلها على بقاء ملكهم
عليها وهذه يجوز بيعها ويسقط خراجها بإسلام أهلها^(٢) وقد راجع الخراج على هذه
الأرض يعتبر بما تحتمله^(٣) .

(١) الفىء كل مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ، خلافاً للغنيمة التى هى كل مال وصل من المشركين للمسلمين على وجه الغلبة والقهر . وكان خمس الفىء والغنيمة يعطى لارسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والأربعة أخماس الباقية تقسم بتفصيل ذكره الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ١١٢ . وكان هذا فى صدر الإسلام الى أن وضع عمر بن الخطاب دعوات الخطاء ...

(٢) الخراج لأبي يوسف ص ٨٢ والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٥٤.

(٣) راجع الخراج لأبى يوسف ص ٤٣، ٤٥، ٤٩. المطبعة السلفية .

ويصور لنا حاجة الخلفاء الأمويين إلى الأموال الكثيرة ما ذكره صاحب العقد عن الأعمش « أن زياداً كتب إلى أحد العمال أن أمير المؤمنين معاوية كتب إلى أن اصطف الصفراء والبيضاء فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة »^(١). وفكر معاوية بن أبي سفيان أيضاً في زيادة الخراج عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين فكتب إلى وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً. فكتب إليه : كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ألا أزيد عليهم^(٢). ولما تولى عبد الملك بن مروان كانت جزية أهل العراق ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً في العام فاستقل عبد الملك هذه الجزية فبعث إلى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً وجعلهم طبقة واحدة^(٣). ولم يلبث العمال الأمويون أن نفذوا اقتراح معاوية بزيادة قيراط على كل امرئ من القبط في مصر ولكن كان ذلك بعد عصر معاوية. وأشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولى الخراج من قبل هشام بن عبد الملك فإنه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار فلم يصبر القبط على ذلك وكانوا لا يزالون هم السواد الأعظم فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم جمعاً كبيراً^(٤). وقد حدث نحو ذلك على يد أسامة التنوخي متولى الخراج من قبل هشام أيضاً ولذا كثر الالتجاء إلى الرهبنة في أيامه فراراً من تلك الضريبة القاسية فأراد أن يمنع ذلك فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم أيدي الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه فكل من وجده بغير وسم قطع يده وألزم كل نصراني بمنشور يحمله يدل على أنه أدى ما عليه

(١) العقد الفريد جزء ١ ص ١٧ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٢٥ ط سنة ١٩٠٠ - والسيادة العربية لفان فلوتن ص ٢٧ .

(٣) الخراج لأبي يوسف .

(٤) الولاة والقضاة للكندي ص ٧٣ ط بيروت .

وكتب إلى العمال بأن كل من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير رسم فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب^(١).

وكان هؤلاء العمال يشعرون بأن لهم سلطة واسعة فتدفعهم الأنانية إلى اختزان الكثير من الأموال ييقون بعضها لأنفسهم ويوزعون البعض الآخر كما يشاءون فترى خالداً القسرى مثلاً يعطى بعض الناس منحة قدرها عشرة آلاف درهم فيقدم له هدية فيزيدها إلى ثلاثين ألفاً^(٢) ونرى يزيد بن خالد القسرى قد بلغت غلته كما يروى الأصفهاني عشرة آلاف ألف درهم^(٣) ونرى أمية بن عبد الملك يكتب إلى عبد الملك بن مروان فيقول له إن خراج خراسان لا يفي بمطبخي^(٤).

وطبعي أن هذه الأموال كلها كانت على حساب الأهالي من سكان البلاد التي فتحها المسلمون وكان العمال لا يرون في ذلك حرجاً لاعتقادهم أن هذه البلاد فيء لهم كما قال عامل بنى أمية على العراق: «السواد بستان قريش ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه»^(٥) وكما يروى أن صاحب إخوانا سأل عمرو بن العاص أن يخبره بما عليه من الجزية فأجابته: لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزنة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم^(٦).

ومن أساليبهم في الاستكثار من الأموال أنهم كانوا يفرضون على الأهالي هدايا في عيدي النيروز والمهرجان وغيرها وقد بلغت تلك الهدايا أيام معاوية عشرة آلاف ألف درهم^(٧).

ولعل هذا التصرف وأمثاله من الولاة والخلفاء هو الذي دفع فان فلوتن إلى قوله:

(١) الحطط للمقرئ جز ٢ ص ٤٩٢ . (٢) الأغاني جزء ١٩ ص ٦٢ .
(٣) نفس المرجع والصفحة . (٤) الأغاني ج ١٣ ص ٥٤ .
(٥) الأغاني ١١ ص ٢٨ . (٦) الحطط للمقرئ ج ١ ص ٩٧ .
(٧) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩٤ ط النجف . الوزراء والسكرتار للجهشيارى ص ١٥ طبع عبد الحميد حنق .

« إن الاحتلال العربي يصور لنا بوجه عام شعباً يعيش على حساب شعب آخر »^(١)
وهذا هو نفس المعنى الذى لاحظته فون كريمر إذ يقول : « كان أهل الولايات المغلوبة
يحرثون ويبنزون ، والمسلمون يحصدون ولا عمل لهم سوى الحرب وشن الغارات »^(٢).

ولكننا نلمح فى استنتاجهما مبالغة ظاهرة إذ ألقيا القول على إطلاقه ، ولم يفرقا
بين العصر الأموى والعصر الذى سبقه على الرغم من الفوارق الواضحة بين
العصرين^(٣) . حتى لقد لاحظ هذه الفوارق براون فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى إذ
يقول : « إن حالة أهل الأمم المغلوبة — لا حالة هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام فحسب
ولكن أولئك الذين ظلوا على مسيحيتهم أو يهوديتهم أو مجوسيتهم كذلك — كانت
محتملة إن لم يكونوا محسودين عليها وذلك فى الأيام السابقة للعهد الأموى »^(٤).

والآن وبعد بيان الحالة العامة التى كانت تكتنف الأمويين وتحيط بهم نتساءل
قائلين : وماذا إذن كان موقف الأمويين من الموالى من ناحيتى الجزية والخراج فى
مثل هذا الجو العجيب ؟

لقد كان المنطق الطبعى للدولة الأموية إزاء الظروف المتقدمة أن تفكر فى
الطريقة التى تحصل بها على الأموال الكثيرة التى تقتضيها سلامة الدولة وإرضاء
الأحزاب المعارضة والاستجابة لرغبات العمال والولاة فى الرفاهية والترف واختزان
الأموال كما ذكرنا من قبل . وكان من الصعب التوفيق بين هذا المنطق وبين
المصلحة العامة التى تستمد من مبادئ الإسلام الحقيقية والتى تنادى بإعطاء كل ذى
حق حقه والتسوية بين العربى وغير العربى من المسلمين . ولذا فإن الشر قد تطاير
وتناثر من جراء سياسة الأمويين ولم يقتصر أثره على الموالى وحدهم بل تعداهم إلى

(١) السيادة العربية ص ١٩ .

(٢) كريمر نقلاً عن السيادة العربية ص ١٩ .

(٣) ذكرنا ذلك بتوسع فى الفصل الأول من الكتاب .

(٤) تاريخ الفرس الأدبى لبراون ص ٢٣٢ .

المسلمين من العرب فنجد محمداً أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة وظلم الرعية وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجاً سماه الوظيفة فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر^(١).

أما الموالى فتظهر محنتهم بشكل واضح منذ أيام الحجاج بن يوسف الثقفي . فلقد كان أول من خالف القواعد الخاصة بالخراج والجزية بالنسبة لمن دخلوا حديثاً في الإسلام من غير العرب . وذلك أن أهل البلاد الأصليين كانوا يقيمون في القرى للزراعة والحرف فمن اعتنق منهم الإسلام رفعت الجزية عن رأسه وكان بعد إسلامه يهجر القرية التي كان يعمل فيها كزارع ويهرع إلى المدن لكي يلتحق بالجيش الإسلامي ويكتب في سجل العطاء^(٢) . وبدهى أن هذه الأرض التي كانت تترك ويرحل عنها أصحابها بعد إسلامهم تصبح خاضعة للظروف فقد استأجرها الغير وقد تترك من غير زراعة وإذا استأجرها الغير ففي الغالب . أن الإيجار يكون أقل من الإيجار القديم ، فكان من جراء ذلك أن قلت الأموال التي تجبي من تلك الأقاليم كآثر لاعتناق أهلها الإسلام . ولكن الحجاج حينما رأى الإقبال على الإسلام وهاله نقص الأموال من خزانة الدولة فرض الجزية على المسلمين الجدد وألزمهم بالعودة إلى قراهم^(٣) . وأعاد وضع الخراج على الأرض التي أسلم أصحابها كما كان قبل إسلامهم^(٤) وقال لهم حينما أمر بإعادتهم إلى قراهم : أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها^(٥) . وكان الذي تولى ذلك رجل من بني سعد بن عجل وفي هذا يقول الشاعر :

(١) ابن خلدون جزء ٣ ص ٧٦ .

(٢) فليب حتى ترجمة الأستاذ مبروك نافع .

(٣) الطبري جزء ٨ ص ٣٥ .

(٤) الملكية العقارية لفان برشم ص ٤٠ ، ٤١ .

(٥) الكامل للمبرد جزء ٢ ص ٨١ .

وأنت من نقش العجلى راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم^(١)
ويذكر الطبرى فى هذا الصدد أن عمال الحجاج كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر
وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار . فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان
له أصل فى قرية فليخرج إليها . فخرج الناس فمسكروا فجعلوا يبيكون وينادون
يا محمداه . يا محمداه وجعلوا لا يدرون أين يذهبون فجعل قراء أهل البصرة يخرجون
إليهم متقنعين فيكون لما يسمعون منهم ويرون^(٢) .

وكانت هذه المعاملة من الحجاج حافظاً للموالى فى الانضمام إلى ثورة ابن الأشعث
ضد الحجاج كما أشار إلى ذلك الطبرى وكما صرح بذلك الأثير^(٣) .

ولم تكن هذه المعاملة خاصة بالحجاج من عمال الأمويين بل اقتدى به غيره ممن
جاءوا بعده ، حتى أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة وجد الموالى يعانون مثل هذه
الحالة السيئة فكتب إلى جميع العمال بإنصافهم كما سنفصل ذلك فى موضعه إن شاء الله .
ولما انقضى عصر عمر بن عبد العزيز رجع الخلفاء والولاة إلى طريقة الحجاج فكان
الموالى يقابلونهم بالثورة والاضطراب الذى كان يؤدى أحياناً إلى قتل الوالى وتولية
غيره . ومن ذلك ما يروى عن يزيد بن أبى مسلم عامل أفرقية فى عهد يزيد بن
عبد الملك . فقد ذكر المؤرخون عن سبب قتله أنه عزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج مع
أهل الذمة الذين دخلوا فى الإسلام فإنه ردهم إلى قراهم ووضع الجزية على رقابهم على
نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار ، فلما عزم يزيد على ذلك اجتمع رأيهم على قتله
فقتلوه وولوا على أنفسهم الوالى الذى كان عليهم قبل يزيد بن أبى مسلم وهو محمد بن
يزيد وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك : إنا لم نخلع أيدينا من طاعة ولكن يزيد بن
أبى مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك^(٤) .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٤ وهو يريد الحكم التيمى عامل الحجاج على البصرة .

(٢، ٣) الطبرى ج ٨ ص ٣٥ وابن الأثير ج ٤٠ ص ٢٢٥ .

(٤) ابن الأثير جزء ٥ ص ٤٨ فى كتاب الكامل . والوزراء والبيكات الجوشيارى ص ٥٧ .

وقد حدثت بعد ذلك محاولة لإصلاح هذا الوضع الذي كان يعانيه الموالي وذلك في عهد الخليفة هشام وفي سنة ١١٠ هـ إذ قال والي خراسان وهو أشرس بن عبد الله السلمي : ابغوني رجلا له ورع وفضل أوجهه إلى من وراء النهر . فأشاروا عليه بأبي الصيдаء صالح بن طريف مولى بني ضبة فقال أبو الصيдаء : أخرج على شريطة أن من أسلم لم تؤخذ منه الجزية . قال : نعم . فشخص أبو الصيдаء إلى سمرقند وعليها الحسن بن أبي العمرطة الكندي على حربها وخراجها فدعا أبو الصيдаء أهل سمرقند ومن حولها إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس إلى الإسلام وقد ترتب على ذلك انكسار الخراج . فلما علم أشرس بذلك كتب إلى ابن أبي العمرطة : إن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل السند وأشباههم لم يسلموا رغبة وإنما دخلوا في الإسلام تعوذاً من الجزية فانظر من اختن وأقام القرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراج ، ثم عزل ابن أبي العمرطة عن الخراج وصيره إلى هاني بن هاني وضم إليه الأشحيد فقال ابن أبي العمرطة لأبي الصيдаء : لست من الخراج الآن في شيء فدونك هانثاً والأشحيد . فقام أبو الصيдаء يمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم . وحينئذ كتب هاني : إن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد . فجاء دهاقين بخاري إلى أشرس وقالوا : ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً (أي مسلمين وموالي للقبائل العربية) فكتب أشرس إلى هاني وإلى العمال : خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه فأعاد الجزية على من أسلم . وقد ترتب على ذلك ثورات دامية ومعارك عنيفة بين جيوش الأمويين وبين أهل تلك البلاد^(١) .

وفي سنة ١٢١ هـ في عهد هشام بن عبد الملك خطب والي خراسان نصر بن سيار في بلاد ما وراء النهر فقال : إني قد استعملت عليكم منصور بن عمر وأمرته بالعدل فيكم فأيا رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه أو ثقل عليه في خراج

(١) الطبري جزء ٨ ص ١٩٦، ١٩٧، وابن خلدون جزء ٣ ص ٨٧، ٨٨ .

وخفف مثل ذلك عن المشركين فليرفع ذلك إلى منصور بن عمر يحوله عن المسلم إلى
المشرك . قال : فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدّون
الجزية عن رؤوسهم وثمانون ألف رجل من المشركين قد أقيمت عندهم جزيتهم فحول
ذلك عليهم وألقاه عن المسلمين ثم صنف الخراج حتى وضعه مواضعه ثم وظف الوظيفة
التي جرى عليها الصلح . قال : فكانت مرو يؤخذ منها مائة ألف سوى الخراج أيام
بنى أمية^(١) .

فهذا النص يوضح لنا أن الموالي كانوا قبيل سنة ١٢١ هـ في بلاد ما وراء النهر
يدفعون الجزية وأن الموالي الجديد رفع عنهم ذلك وأن الخراج كان يوضع في غير موضعه
وأن الموالي الجديد وضعه في مواضعه .

وفي سنة ١٢٣ هـ قامت ثورة من البربر في الشمال الأفريقي لأن حاكم طنجة قد
وضع الجزية على من أسلم منهم^(٢) .

وفي سنة ١٢٤ هـ قام الموالي في الأندلس — وهم المسلمون من البربر — بثورة
عنيفة ضد العرب من أجل سوء المعاملة التي يلقونها إذ كان العرب هناك يحضون
بهم ويعتبرونهم في منزلة أقل منهم وذلك أنهم يعطونهم الأقاليم الجبلية في الشمال
وهي تلك الأقاليم المجردة الوعرة المليئة بالأخطار والأهوال حيث توجد فلول
المسيحيين وعصاباتهم ، بينما يستأثر العرب بالمقاطعات الخصيبة البعيدة عن تلك
العصابات مع أن الفضل الأكبر في فتح الأندلس هو للبربر قبل غيرهم^(٣) .

وهذه المعاملة من العرب للموالي في الأندلس تشبه بالضبط فرض الجزية والخراج
على الموالي في البلاد الأخرى وذلك للاجحاف الذي لامبرر له فيما يتعلق بالموالي
والترجيح الذي لامبرر له فيما يتعلق بالعرب .

(١) الطبري جزء ٨ ص ٢٦٨ والكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١١١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٠ .

(٣) فتح الأندلس لابن القوطية ص ١٣ .

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نستنتج أن الأمويين بعد عصر عمر بن عبد العزيز قد رجعوا في سلوكهم مع الموالي فيما يتعلق بالجزية والخراج إلى سياسة الحجاج ، أو على الأقل قد حاولوا الرجوع إليها وأنهم قد استطاعوا أن ينفذوها في بعض الجهات بينما استعصت عليهم في جهات أخرى وكانت سبباً لأضرار كثيرة وثورات عنيفة .

وأما سياسة الدولة فيما يتعلق بالعطاء فقد تغيرت وتبدلت أيضاً عما كانت عليه قبل ذلك ففي أيام النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأعطيات غير محدودة لأنها كانت تتبع ما يقع في أيديهم من الغنيمة أو الفء فكان يفرد خمسة للنبي يوزعه كما بين القرآن الكريم في قوله تعالى: «واعلموا أنما غنمنا من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»^(١) . وتفرق الأربعة الأخماس الباقية في الصحابة على السواء بلا تمييز في السابقة أو النسب^(٢) . وجرى على ذلك أبو بكر رضي الله عنه فلما تولى عمر ووضع الديوان الخاص بالعطاء وجعل لكل مسلم راتب يتناوله هو ورواتب لعائلته وأولاده ميز عمر الناس في العطاء باعتبار السابقة (أي السبق إلى الإسلام) والنسب ورتبهم طبقات كما تقدم . وقد عرفنا في الفصل الأول موقف عثمان وعلى رضي الله عنهما^(٣) .

فلما جاءت الدولة الأموية لم تسر على نظام ثابت في هذه الناحية ولكنها جعلت الغاية هي تمكين الأمر لها وتثبيت دعائمها ، واستخدمت الأموال واستغلت العطاء لتحقيق هذه الغاية . فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء حتى ليروى أن مسكيناً درامى وهو من قبيلة قيس قدم على معاوية فسأله

(١) سورة الأنفال آية ٤١ .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢٣ .

(٣) راجع ص ٢٥ - ٢٧ من الكتاب .

أن يفرض له فأبى وكان لا يفرض إلا لليمن فخرج من عنده مسكين وهو يقول :
 أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح
 وإن ابن عم المرء — فاعلم — جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح^(١)
 وقد وقعت بسبب ذلك العصبية بين قيس واليمن فاضطر معاوية أن يفرض
 عطاء لقيس^(٢) .

والغالب أن معاوية كان يبذل الأموال ويضعف الأعطية حيث يتوسم نفعاً
 ويرجو حظاً هائلاً ، ويدلنا على ذلك أنه بذل بسخاء في سبيل إرضاء العلويين
 فضعف لهم العطاء أضعافاً كثيرة فبعد أن كان عطاء الحسن والحسين ابني علي بحسب
 ديوان عمر خمسة آلاف درهم في السنة جعله معاوية مليوناً من الدراهم أي أنه ضاعفه
 مائتي مرة وأعطى مثل ذلك لعبد الله بن عباس لأنه ابن عم النبي صلى الله عليه
 وسلم ، وكذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم من كبار أبناء الصحابة أهل
 النفوذ في الإسلام ممن يقيمون بالمدينة^(٣) .

ويروى أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قدم على يزيد بن معاوية فقال له
 يزيد: كم عطاؤك؟ قال: ألف ألف درهم. قال: قد أضعفناها لك. قال: فذاك أبي
 وأمي وما قبلها لأحد قبلك. قال: أضعفناها لك ثانية. فقيل ليزيد: أعطى رجلاً
 واحداً أربعة آلاف ألف درهم؟ قال: ويحكم إني أعطيتها أهل المدينة أجمعين فأيده
 فيها إلغارية^(٤) . وذلك كله عدا الجوائز والصالات التي لا علاقة لها بالعطاء .

(١) البيتان ليسا من كلام مسكين ولكنهما من كلام قيس بن عاصم وقد تمثل بهما مسكين :
 الحماسة للبحتري ص ٢٤٥ — رقم ١٣٢١ .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٦٩ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جزء ٨ ص ١٣٧ .

(٤) العقد الفريد ج ١ ص ١٠٣ .

فيروي أن الحسن بن علي وفد على معاوية بعد عام الجماعة فقال له معاوية : والله لأحبونك بم جائزة ما أجزت بها أحداً قبلك ولا أجز بها أحداً بعدك ثم أمر له بمائة ألف^(١).

كما يروي أن عبد الله بن جعفر كان عليه دين بلغ خمسمائة ألف فركب إلى معاوية فقضاها عنه ثم وعده بإرسال عطائه كاملاً^(٢).

وقد يكون في مثل هذه الروايات شيء من المبالغة ولكننا مهما اقتصدنا في القول ومهما أسأنا الظن فإننا سوف نخرج بنتيجة لا شك فيها وهي أن الأمويين كانوا لا يبخلون بمال في سبيل القضاء على قوة المعارضة وإحباط أغراضها .

وإذا حاولنا فيما يختص بالعطاء أن نتبين سياسة الأمويين مع الموالى وسط هذا الجو الموبوء بالخلافات الحزبية والمصادمات السياسية فإننا نستطيع أن نجزم بأنها سياسة القوى مع الضعيف ومنطق الغالب للمغلوب . وليس أدل على ذلك من أن معاوية بن أبي سفيان قد هم يوماً أن يقتلهم لولا موقف الأحنف بن قيس . فلقد روى أن معاوية ابن أبي سفيان دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال : إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت (يقصد بالحمراء الموالى) وأراها قد قطعت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق . فما ترون ؟ . فقال الأحنف : أرى أن نفسي لا تطيب .. أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب . وأطرق . فقال سمرة بن جندب : اجعلها إلى أيها الأمير فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه . فقال : قوموا حتى أنظر في هذا الأمر . قال : الأحنف فقمنا عنه وأنا خائف . وأتيت أهلي حزيناً ، فلما كان بالغداة أرسل إلى فعلت أنه أخذ برأيي وترك رأي سمرة .

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) البداية والنهاية جزء ٨ ص ١٣٧ .

فهذا النص وإن كان يوضح لنا أن معاوية قد هم بأن يقتل شطراً من الموالى لأنه
تخوف من وثبة منهم على العرب والسلطان ، إلا أنه في نفس الوقت يوضح لنا أنهم
كانوا في نظره طبقة مستضعفة وإلا لما حاول أن يقتل بعضهم لولا موقف الأحنف .
ومثل هذه السياسة المنطوية على القسوة من ناحية والاحتقار من ناحية أخرى تجعلنا
نتوقع أن يكون نصيبهم من العطاء قليلاً ، وحظهم فيه ضئيلاً .

وقد ذكرت بعض الروايات أن أول من فرض لهم العطاء من بنى أمية معاوية
فجعل لكل واحد خمسة عشر درهماً . جعلها عبد الملك عشرين ، ثم أبلغها سليمان إلى
خمس وعشرين وجعلها هشام ثلاثين^(١) .

ونحن إذا قارنا ذلك بما كان يعطى لغيرهم تجلى لنا البعد الشاسع والمدى الواسع
بين الفريقين . على أن هذا الفرض قلما كان يعطى لهم لأن العمال كانوا يستخدمونهم
في الغالب بلا عطاء ولا رزق فكان فرض هذا العطاء بالنسبة إليهم أقرب إلى الرسميات
منه إلى الحقيقة . ويدلنا على ذلك أن المختار الثقفي لما قام يطالب بئار الحسين وانضم
إليه كثير من الموالى نظر العرب فوجدوا أن المختار يعطى للموالى نصيباً من القىء
فأحنتهم ذلك أشد الحنق كما يروى الطبرى إذ يقول : « ولم يكن فيما أحدث المختار
عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالى من القىء نصيباً وكانوا يقولون للمختار :
عمدت إلى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر
في ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا^(٢) » .

والذى يلفت النظر في هذه الرواية عجب العرب من أن يفرض للموالى عطاء مع
أنهم شركاؤهم إذ ذاك في حرب الأمويين ولو كان أخذ الموالى للعطاء أمراً معتاداً من
الولاة والحكام لما وقف العرب من إخوانهم الموالى هذا الموقف في هذه الحنة القاسية

(١) العقد الفريد جزء ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) الطبرى جزء ٧ ص ١١٥ ، والبياهى جزء ٢ ص ١٢٥ - تاريخ الفرس الأدبي لبراون ص ٢٣٤ .

ولقد شكوا بعض الموالى لعمر بن عبد العزيز سوء معاملة الولاة ومنعهم العطاء
عنهم إذ قال : إن عشرين ألفاً من الموالى يغزون بلا عطاء .. إلخ تلك الرواية (١) .
وكان له موقف سند كره فيما بعد إن شاء الله .

وذكروا أن من أسباب سخط الموالى في شمال أفريقية — وهم مسلمو البربر —
وثورتهم ضد الأمويين أنهم كانوا لا يمنحون عطاء كإخوانهم العرب . ويروى
الطبرى أن جماعة منهم وفدوا على هشام بن عبد الملك فطلبوا الإذن فصعب عليهم
فأتوا الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا ويجنده فإذا أصاب نفلهم
دوننا وقال : هم أحق به وقالوا : إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وآخر
جنده ... إلخ تلك الرواية .

ولا ينبغي أن يستغرب القارىء مثل هذا من الخلفاء والعمال الأمويين في مجموعهم
فإن الظاهرة الواضحة في عهدهم هي تسخير الأموال في سبيل مصلحتهم ، فكانوا
يعطون ويمنعون على حسب الأهواء والأغراض حتى ليروى أن الخليفة هشام لما
خرج عليه زيد بن علي عاقب أهل الحرمين فمنع عنهم العطاء سنة . فلما جاء الوليد بن
يزيد بعده كتب إليهم يطمنئهم فقال :

ألا أيها الركب الخبون أبلغوا سلامي سكان البلاد فأسمعوا
وقولوا أتاكم أشبه الناس سنة بوالده فاستبشروا وتوقعوا
سميوشك إلحاق بكم وزيادة وأعطية تأتي تباعاً فتشفع
ضمنت لكم إن لم ترعنى منيتي بأن سماء الضر عنكم ستقلع
ولما أخلف مواعده معهم أجابه واحد منهم فقال :

وصلت سماء الضر بالضر بعدما زعمت سماء الضر عنا ستقلع
فليت هشاماً كان حياً يسوسنا . وكنا كما كنا نرجى ونطمع (٢)

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٣٤ .

(٢) الأغاني ج ٦ ص ١٠٨ .

ونستطيع مما تقدم أن نحكم على الأمويين بأن سياستهم في العطاء كانت سياس
مضطربة يملها عليهم ذلك الجو المحيط بهم ، فتارة يرون أن الحكمة هي في إغداق
العطاء على المعارضين من العرب لتأليف قلوبهم كما فعل الأمويون مع الحسن والحسين
ابني علي . وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم ، وتارة يرون أن الحكمة هي في
منع العطاء عنهم لردعهم كما فعل هشام والوليد بن يزيد مع أهل الحرمين . أما الموالي
فلم يكن لهم من العطاء نصيب . وإن نالهم منه شيء فهو النزر اليسير والحظ القليل .

ويمكننا بعد ذلك كله أن نتوقع نصيب الموالي في وظائف الدولة وهو نصيب
ضئيل لا يكاد يذكر . إذ كانت الوظائف الكبيرة مقصورة على العرب دون غيرهم .
وكانت القاعدة المشهورة : لا يقضى بين الناس إلا عربي ^(١) . ولقد ظل الموالي متأثرين
بهذه القاعدة حتى في العصر العباسي الذي تغيرت فيه النظرة اليهم . ويؤيد ذلك
ما روى أنه لما مات سوار قاضي البصرة . دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة فقال له : إن
سواراً قد مات وإنه لا بد لهذا المصر من قاض فاقبل القضاء . فقد وليتك قضاء
البصرة . فقال أبو حنيفة : والله الذي لا إله إلا هو إني لا أصلح للقضاء ، والله يا أمير
المؤمنين لئن كنت صادقاً فما يسمعك أن تستقضى رجلاً لا يصلح للقضاء ، ولئن كنت
كاذباً فما يسمعك أن تستقضى رجلاً كذاباً وإنه لا يصلح للقضاء إلا رجل من العرب
وقد أصبحت مخالفاً لك . وفي نهاية الحديث قبل أبو جعفر عذر أبي حنيفة وخلى
عنه ^(٢) . ومما يتصل بهذا المعنى — وهو أنه لا يقضى بين الناس إلا عربي — ما ذكره
المبرد من أن شاعراً بالكوفة لما استقضى عليها نوح بن دراج قال :

يا أيها الناس قد قامت قيامتكم إذ صار قاضيك نوح بن دراج

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٨١ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ج ١٠ ص ٩٨ .

لو كان حياً له الحجاج ما سلمت كفاه ناجية من نقش حجاج^(١)

٢ فقد شبه الشاعر العصر الذى يعين فيه مولى للقضاء بأنه عصر غريب انقلبت فيه الأوضاع وانعكست الآيات حتى كأن الساعة قربت والقيامة قامت .

٣ ولقد كان تعريب الدواوين منذ عصر عبد الملك بن مروان محاولة واضحة من الأمويين فى إقصاء الموالى عن تلك الوظائف التى لم يكن يصلح لها غير الأعاجم سواء أ كانوا من الموالى كصالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم^(٢) ، أم لم يكونوا من الموالى وهم الأعاجم غير المسلمين كسرجون بن منصور الرومى كاتب الخراج فى عهد معاوية ابن أبى سفيان^(٣) . ولقد كان ديوان الشام بالرومية (أى بالإغريقية) وديوان العراق بالفارسية ، وديوان مصر بالقبطية ، فنقلت دواوين هذه الأمصار إلى العربية ، وكان الذى نقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد الخشنى كاتب الرسائل فى عهد عبد الملك بن مروان^(٤) . والذى نقل ديوان العراق إلى العربية صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج . ولقد شق على الفرس هذا العمل حتى بذلوا لصالح مائة ألف درهم على ألا يظهر النقل فأبى عليهم . فقال له مروان شاه بن زاذان فروخ : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . وكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب^(٥) ، وأما الذى نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية فهو عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر فى خلافة الوليد بن

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٨٢ .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٩٨ ، والوزراء والكتاب للجهمشيارى ص ٢٣ ط حنفى .

(٣) الجهمشيارى ص ١٥ .

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٠١ ، الوسائل إلى معرفة الأوائل للسيوطى ص ٣٧ ، والخطط للمقريزى ج ١ ص ٩٨ والجهمشيارى ص ٢٤ .

(٥) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، والوسائل للسيوطى ص ٣٨ .

عبد الملك سنة ٨٧ هـ . ونسخها بالعربية وصرف أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن
يربوع الفزاري من أهل حمص^(١) .

وبتعريب تلك الدواوين لم يعد الأمويون بحاجة إلى الأعاجم من الموالي وغيرهم
في القيام بهذه الوظيفة ، فأصبحنا نرى من كتّاب الخراج من هم من العرب مثل
النضر بن عمرو كتّاب الخراج على عهد يزيد بن الوليد^(٢) . بعد أن كانت هذه الوظيفة
مقصورة على الأعاجم والموالي .

والآن وبعد بيان السياسة العامة للأمويين نحو الموالي - وهي كما رأينا سياسة تتجه
إلى العنف والقسوة - نتساءل قائلين : هل كان الموالي جميعهم يلاقون من الأمويين
مثل هذه المعاملة ؟ . وجوابنا على ذلك أن هذه السياسة كانت تشبه أن تكون
سياسة عامة ، ولم يكن يشذ عنها إلا نفر ضئيل من الدهاقين . وهم أمراء بعض الولايات
الذين كانوا يسمون ، ويتعهدون للولاة من العرب بأداء ما يطلبونه من الجزية
والخراج اللازمين من الأهالي ، ويتولون هم جمعهما . وفي مقابل ذلك تبقى لهؤلاء
الدهاقين سلطتهم في تلك الجهات . ولكنهم رغم هذه السلطة كانوا خاضعين لسيادة
العرب . وبذلك كان هؤلاء الدهاقين يثرون ويجمعون الأموال الطائلة على حساب
الطبقات الفقيرة وهي الأكثرية الساحقة .

وفي ذلك يقول بارتولد : « رضيت الدهاقين في العصور الإسلامية الأولى في
إيران بزوال خطورتهم السياسية . نظير ما نالوا من الامتيازات الاقتصادية
والاجتماعية »^(٣) .

وهكذا كانت تصدق عليهم تلك الكلمة التي قالها أعجمي لعربي : « الشريف
من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم »^(٤) .

(١) الولاة والقضاة للكندي ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) الوزراء والكتّاب للجهشياري ص ٤٤ .

(٣) الحضارة الإسلامية لبارتولد تعريب حمزة طاهر ص ٦٥ .

(٤) رسائل البلقاء طبعة الحلبي ص ٢٧٠ .

ولقد كانت سياستهم مع هؤلاء الدهاقين وسيلة لا بد منها لإخضاع تلك الولايات
النائية وإقرار الأمن والنظام فيها . إذ كان أهل تلك الولايات حينما يرون خضوعهم
المباشر لأناس ليسوا من عنصر أجنبي عنهم تطمئن نفوسهم وتهدأ قلوبهم . وفوق
ذلك فإن هؤلاء الدهاقين كانوا يتولون جباية الأموال من الأهالي قبل الفتح
الإسلامي لهذه البلاد ، وبذلك كانوا أكثر مراناً من العرب في هذه الناحية ^(١) .

ولعلنا نستطيع الآن أن نلخص سياسة الأمويين مع الموالي في كلمة قصيرة هي أن
الدولة الأموية قد طفت عليها العصبية العربية فأنستها الكثير من مبادئ الإسلام
العادلة وحينئذ شعر الموالي — وهم مسلمون — بأن هذه العصبية العربية قد أطبقت
عليهم بظلامها الكثيف ، وأنهم وسط هذا الظلام قد ضاعت معظم حقوقهم وتبددت
أكثر آمالهم فقاموا يلتمسون طريقاً للخلاص .

ولقد شاءت الأقدار أن يشرق عليهم النور فجأة في عصر عمر بن عبد العزيز .
ولكن لم يلبث هذا النور إلا وقتاً قصيراً ثم احتجب عنهم . فعادوا مرة ثانية إلى
الظلم والظلام ، وحينئذ وجدوا أن لا سبيل للخلاص إلا بمواصلة الجهاد والنضال .
فقاموا بتلك الحركات العنيفة الهدامة التي عصفت بالدولة الأموية ، وكانت من
الأسباب الهامة في انهيارها وزوالها .

وسيتبين لنا في الفصل الآتي إن شاء الله موقف عمر بن عبد العزيز نحوهم ، وما
ترتب على هذا الموقف من آثار ونتائج .

(١) السيادة العربية ص ٣٦ .

الفصل الرابع

عمر بن عبد العزيز والموالي

أخلاقه الشخصية وروحه الإسلامية — سياسته مع الموالى
في الجزية والحراج والعطاء — تقدير عام لسياسته

« وبينما كان الموالى يتخبطون في ظلام حالك ويسيرون في طريق شائك تحيط بهم الخيرة والوحشة وتكتنفهم القسوة والشدة ، إذ طلع عليهم نور أضاء لهم السبيل فذهب الكثير من حيرتهم ووحشتهم وأحسوا برد الراحة ونعيم السعادة .
ولقد انبثق ذلك النور من جبين الرجل التقى عمر بن عبد العزيز وهو الخليفة الورع الذى شهد له بذلك أعداؤه على اختلاف مللهم وأجناسهم . والفضل ما شهدت به الأعداء كما يقولون .

وإنما آثرنا أن نتكلم عنه في فصل خاص لأن سياسته كانت متميزة عن سياسة غيره من الخلفاء إذ كانت تسودها العدالة الكاملة والإنصاف الشامل حتى لقد لفتت هذه العدالة أنظار المستشرقين فبالغوا في تمجيدها والثناء عليها ، فيقول « براون » في كتابه تاريخ الفرس الأدبي : « ينفرد عمر بن عبد العزيز عن سائر خلفاء بني أمية بالورع والإيمان ، فلم يكن مدفوعاً في إدارته للدولة بدوافع مالية ، ولكنه كان يرغب في نشر الإسلام ؛ وكان هذا المعنى مسيطرًا على نفسه حبیباً إلى قلبه ؛ ويعتبر هذا الخليفة استثناء لما كان عليه خلفاء بني أمية من طمع واستئثار بالنفوذ وبعد عن الطريق القويم » (١) .

(١) تاريخ الفرس الأدبي لبراون ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

ويقول فلهوون: « لم يكن عمر بن عبد العزيز يعنى بنفسه فقط وإنما كان يعنى بالصالح العام وجعلته تقواه يصرف شئون الحكومة على وجه يجعلها تؤدي ما فرض عليها من الواجب نحو المحكومين وكان يؤدي هو ما فرض عليه من الواجبات الثقال باستقامة نادرة المثال » (١).

ولقد كان عمر بن عبد العزيز طيلة الأزمان التي سبقت توليه الخلافة كغيره من إخوانه ولداته بعيداً عن الزهد ميالاً إلى الترف (٢).

فلما تولى الخلافة ترك كل مظاهر الترف والنعيم مرة واحدة وانصرف إلى الزهد والتقشف وأوغل فيهما إلى درجة لا تكاد تخطر ببال أحد. وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم: « وكان عمر بن عبد العزيز من أعظم الأمويين ترفهاً وتملكاً غذى بالملك ونشأ فيه لا يعرف إلا هو. تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الذي يحل فيه

(١) فلهوون. الدولة العربية وسقوطها. فصل عمر بن عبد العزيز والموالي.

(٢) ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة عام ٦٢ هـ فلما ولي أبوه عبد العزيز بن مروان مصر عام ٦٥ هـ حمل إليه ولبت بمصر زمناً نعم فيه بصحبة أبيه ومشاهدة آثار الحضارة المصرية والبيزنطية فلما بلغ سن التأديب بعثه أبوه إلى المدينة ليتأدب بها وكانت المدينة إذ ذاك بيئة حركية غير بسيطة يعرف فيها من يحملها الروح الديني الصحيح ماثلاً في نفر من بقايا الصحابة وكبار التابعين أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. كما يعرف فيها الجانب الأروفي من الحياة ممثلاً في مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربي وطائفة من المغنين والقيان يتقدمها معبد ومالك بن أبي السمح المغنيان المديان الشهيران. ثم إن المدينة كانت إذ ذاك من الناحية السياسية موطناً للمعارضة التي تستند إلى الكتاب والسنة في مقاومة الحكومة الأموية. وفي عام ٨٥ هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر وكان ابنه عمر قد تم تأديبه بالمدينة فأرسل إليه الخليفة عبد الملك بن مروان وزوجه من ابنته فاطمة ثم ولاه خناصره وهي بلدة من أعمال حلب فمكث بها سنتين وفي عام ٨٧ هـ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينة بدلاً من هشام بن اسماعيل الخزومي الذي أساء السيرة في أهلها ثم ضم إليه بعد زمن قليل مكة والطائف فأصبح عمر بذلك أميراً على الحجاز كله، وقد ظل أميراً على الحجاز حتى سنة ٩٣ هـ حيث عزله الخليفة الوليد لسبب من الأسباب لا يعيننا الخوض في تفاصيله، وحيث ذهب عمر إلى الشام حيث مكث ست سنوات في انتظار الخلافة التي أقيمت إليه مقابلتها عام ٩٩ هـ (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صفحات ١٩، ٢٠، ٢٧، ٣٢)، ومقال للاستاذ العبادي بمجلة الرسالة.

ويمشي مشية تسمى العمرية فكان الجوارى يتعلمنها من حسناتها وتبخرته فيها . وكان يسبل إزاره حتى ربما دخلت نعله فيه فيتحمّل عليه فيشقه ولا يخلعها ويستقط أحد شقي ردائه عن منكبه فلا يرفعه وتنقطع نعله فلا يعرج عليها وربما لحقه بها المملوك فيعنفه .. فلم يزل على ذلك حتى ولى الخلافة فزهد في الدنيا ورفضها ^(١) .

ولقد تلمس الخليفة عمر رعاياه في كل مكان وخرج من نطاق الأبهة والرفاهية الذي كان يقف سداً منيعاً بين الخلفاء وبين المصلحة العامة لشعوبهم إلى نطاق آخر استطاع فيه أن يسمع إلى نجوى شعبه وأن يحس آلامه وآماله وأن يشاركه في مشاعره ووجدانه ؛ ولذا فإنه لم يطق أن يستبقي واحداً من العمال الذين كان يعرف فيهم القسوة والغلظة ومجافاة الروح الدينية ^(١) .

(١) يمكننا أن نعلل لهذا الزهد الطارئ المفاجيء بأنه أثر من آثار الوراثة فنقول إن عمر بن عبد العزيز قد ورث هذه الناحية الخلقية السكرية عن جده لأمه وسميه عمر بن الخطاب وإن هذه النزعة الأخلاقية كانت كامنة في نفس عمر بن عبد العزيز مغطاة بستر من الشباب والجو المحيط به ولكنها لم تلبث أن تنبثت في نفسه حينما تولى الخلافة ورأى أمور الساميين قد أصبحت كلها في يديه وأنه قبل غيره هو المسئول عن كل صغيرة وكبيرة . ويعبر عن هذا المعنى قول أحد الأمويين حينما رأى عمر ابن عبد العزيز لا يحامى بنى أميه ولا يعطيهم أكثر من غيرهم : « لا تلوموا إلا أنفسكم يا معشر بني أمية عمدتم إلى صاحبكم - يعني عبد العزيز بن مروان والد عمر - فزوجتموه بنت ابن عمر - أي ابن الخطاب - فجاءتكم بهم مملوفاً في ثيابه فلا تلوموا إلا أنفسكم » (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٢١ ، ٢٢ ، ٥٠) .

(٢) كتب عمر بن عبد العزيز وقت توليه الخلافة وقبل أن يدفن سلفه بعزل أسامة بن زيد التنوخي وكان على خراج مصر وأمر به أن يحبس ويقتل . ويحل عن العيد عند كل صلاة ثم يرد في القيد، وكان أسامة هذا غاشماً ظلوماً معتدياً في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به ويتقى أجواف الدواب ويطرحها للتماسيح فحبس بمصر سنة ثم نقل إلى أرض فلسطين فحبس بها سنة ثم مات عمر رحمه الله وولى يزيد بن عبد الملك فرد أسامة على مصر . (ابن عبد الحكم ص ٣٤) . وكتب أيضاً بسزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية وكان شديد الجور والمخالفة للحق ويتظاهر مع ذلك بالصلاح ويكثر الذكر والتسبيح ويأمر القوم فيكونون بين يديه يعذبون وهو يقول سبحان الله والحمد لله شديداً غلام موضع كذا وكذا لبعض مواضع العذب ثم يقول : لا إله إلا الله والله أكبر ... شد يا غلام موضع كذا وكذا فكانت حالته تلك شر الحالات فكتب عمر مزله (ابن عبد الحكم ص ٣٥) .

• ولقد كان الخلفاء قبل عمر بن عبد العزيز يطلقون العنان للولادة ويغضون الأعين عن هفواتهم لأن هؤلاء الولاة كانوا يوافقون الخلفاء بما يطلبونه من الأموال الكثيرة التي تشبع رغبتهم في الترف والنعيم ؛ ولكن عمر بن عبد العزيز لم يكن من هذا الصنف بل كان — بعد توليه الخلافة — زاهداً في الدنيا إلى درجة لا تكاد تعقل في مثل ذلك الأوان الذي كان يعيش فيه ^(١) ولذا فإنه قد راقب أعوانه وولايته بعين الحزم والعدالة والسهر على مصلحة الرعية .

ومن يتصفح سيرة عمر بن عبد العزيز يجدها مليئة بالأخبار العجيبة والحوادث الغريبة عن هذا الخليفة المثالي ولكننا مهما شككنا في مثل هذه الروايات ومهما أسأنا الظن بها فسوف نخرج بشيء لا ريب فيه ، وقد أجمعت عليه المصادر كلها . وهو أن هذا الخليفة العظيم كان مثلاً أعلى للحاكم المسلم الحريص على نشر الدين وإعلاء كلمته .

• وطبعي أن الموالي — وهم مسلمون — قد تنفسوا الصعداء في عهده وأصبحوا يشعرون بالمساواة والعدالة تظلمهم وتزفر عليهم ، وقد استرعت حالتهم انتباهه منذ توليه الخلافة فعمل على تخليصهم مما كان يحيق بهم من الشر والضرر ؛ فلقد كانت إلى عهده تؤخذ الجزية ممن يدخلون في الإسلام على الرغم من أن القواعد الإسلامية تمنع

(١) يروي الثقات من المؤرخين عن زهد عمر أنه حينما تولى الخلافة أتى له بالمرأى التي يركبها الخليفة أول ما يبلى ، من البراذين والحيل والبغال والكل دابة سائس . فقال : ما هذا ؟ قالوا : مراكب الخلافة . قال : دابتي أوفى إلى « الطبرى ج ٨ ص ١٣٠ . ابن عبد الحكم ص ٣٥ » وأمر بضم هذا إلى بيت مال المسلمين . ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يبلون . فقال : ما هذا ؟ قالوا : سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يبلى قال : يأمر أحم ضم هذه إلى أموال المسلمين . ثم ركب بقلته وانصرف إلى القرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول ما يبلون وجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضى إلى الحصير م قال : يأمر أحم ضم هذا لأموال المسلمين (ابن عبد الحكم ص ٣٥) .

ذلك ، حتى لقد قل إقبال الناس على اعتناق الإسلام ولكن عمر أمر برفع الجزية
عن أسلم وأرسل كتباً إلى الولاة والعمال بذلك .

فكتب إلى حيان بن شريح عامله على مصر أن يضع الجزية عن أسلم من أهل
الذمة فإن الله تبارك وتعالى قال « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم
إن الله غفور رحيم » وقال « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون
ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية
عن يدهم صاغرون » . وكتب حيان بن شريح إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد
فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابت عشرين ألف دينار
تمت بها عطاء أهل الديوان فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل . فكتب
إليه عمر : أما بعد فقد بلغنى كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد
أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطاً فضع الجزية عن أسلم قبج الله
رأيتك فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل
الناس كلهم الإسلام على يديه ^(١) .

ودعا عمر ملوك السند لاعتناق الإسلام ووعدهم المساواة التامة مع المسلمين
فاعتقوا الإسلام واتخذوا أسماء عربية ^(٢) . ودعا البربر أيضاً إلى الإسلام فلما أسلموا رفع
الجزية عنهم وكانوا قبل ذلك يلزمون بدفع الجزية وكان الولاة يتشددون في تحصيلها
منهم حتى أن من قصر في أداء ما عليه كانوا يلزمون بتسليم نسائه أو أبنائه لكي
يبيعوهم لسداد هذه الضريبة وقد أبطل عمر بن عبد العزيز ذلك وكتب في اللواتيات ^(٣)
أن من كان عنده لواتية فليخطبها إلى أيها أو فليردها إلى أهلها ^(٤) .

(١) الخطط للمقريزى ١-٧٨ ، وفتح العرب لمصر لبتلر ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ وفلهوزن ص ٢٩٤ .

(٣) أى النساء المنتسبات إلى لواته وهى قرية من قرى البربر .

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٣٣ وفلهوزن ص ٢٩٥ .

- وكتب الى الجراح الحكمي عامله على خراسان : انظر من صلى قبلك إلى القبلة
فضع عنه الجزية فسارع الناس إلى الإسلام فقيل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى
الإسلام وإنما ذلك نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان. فكتب الجراح بذلك إلى عمر
فكتب إليه عمر : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ولم يبعثه خاتناً . ثم عزله
عمر عن خراسان^(١) وكتب إليه عدى بن أرطاة عامله على العراق : إن الناس قد كثروا
في الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج . فكتب إليه عمر يقول : والله لو ددت أن
الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا .

وكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة : كتبت إلى تسألني
عن أناس من أهل الحيرة يسمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة
وتستأذني في أخذ الجزية منهم ؛ وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم
داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جانياً فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة
ولا جزية عليه وميراثه لذوي رحمه إذا كان منهم يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام
وإن لم يكن له وارث فميراثه في بيت مال المسلمين الذي يقسم بين المسلمين وما أحدث
من حدث ففي مال الله الذي يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه^(٢) .

وقد ذكرنا فيما مضى أن الحجاج قد أمر بإرجاع الذين أسلموا من أهل الذمة إلى
قراهم حتى يظلوا يعملون في الأرض وحتى يظل الخراج باقياً عليهم . . ولكن عمر بن
عبد العزيز لم يشأ أن تظل مثل هذه السياسة حتى لا توجد عقبة أمام الراغبين في الإسلام
ويستنتج هذا من كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة إذ يقول
فيه : سلام عليك أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام

(١) الطبري جزء ٨ ص ١٣٤ ، وابن خلدون ٣ - ٧٦ ، واليعقوبي ٣ - ٤٥ ، وعقد

الجمان ج ١١ م ٣ ص ٤٣٣ ، وفلوهوزن ص ٤٥١ .

(٢) الخراج لأبي يوسف ص ١٥٧ .

الله وسنة خيثة سنتها عليهم عمال سوء ، وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكون شئ أهم اليك من نفسك فإنه لا قليل من الإثم ولا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض^(١) .

• وقد وجد عمر أن سياسة رفع الخراج عن الأرض التي أسلم أصحابها ستؤدي حتماً إلى نضوب بيت المال وقلة إيراده فوضع حلاً وسطاً لتلك المشكلة وذلك أنه رفع الخراج عن الأرض التي يملكها المسلمون حتى سنة ١٠٠ هـ ثم قرر أن شراء المسلمين وامتلاكهم للأرض بعد هذا التاريخ غير جائز لأن المسلمين كانوا حينما يشترون تلك الأرض تصبح أرضاً عشرية ويسقط عنها الخراج^(٢) وبذلك يقل إيراد بيت المال وتبعاً لهذه السياسة كان إذا أسلم رجل من أصحاب تلك الأرض الخراجية فإن ملكيته تنزل عن هذه الأرض وتصبح ملكاً مشاعاً للمسلمين^(٣) . وما دامت الأرض ليست ملكاً لشخص بعينه فكان يؤخذ منها الخراج والعشر معاً . أما الخراج فلأنه في مقابل الإيجار لتلك الأرض . وأما العشر فلأنه مسلم تجب عليه الزكاة في الزروع والثمار إذا بلغت النصاب المعروف^(٤) . وفي هذا يذكر يحيى بن آدم في كتابه الخراج عن عمرو ابن ميمون بن مهران . قال : سألت عمر بن عبد العزيز عن المسلم يكون له أرض خراج . قال : خذ الخراج من ههنا ، وأشار بيده إلى الأرض ، وخذ الزكاة من ههنا وأشار بيده إلى الزرع . وقال في رواية أخرى : الخراج على الأرض وفي الحب الزكاة^(٥) .

(١) الطبري جزء ٨ ص ١٣٩ .

(٢) راجع ص ٥١ ، ٥٢ من الكتاب .

(٣) الخراج ليحيى بن آدم فقرة ١٩٣ المطبعة السلفية ، العصر العباسي الأول للدكتور الدوري ص ١٢

(٤) قدر النصاب الموجب للزكاة بأربعة أرادب وكيلتين بالكيل المصري ، ويجب فيه العشر إن سقيت الأرض بماء السماء ، ونصف العشر إن كانت تسقى بالآلات .

(٥) الخراج ليحيى بن آدم فقرة ٦٠١ و ٦٠٢ . وذهب إلى هذا الشافعي . وأما أبو حنيفة فلا يجمع بين الخراج والزكاة .

٣ أما فيما يتعلق بالعطاء فيروى البلاذري أن عمر فرض لمن أسلم بخراسان بعد أن رفع الخراج عنهم^(١)؛ ويذكر الطبري أنه كتب إلى عقبة بن زرعة الطائي - وكان قد ولاه الخراج في خراسان - فقال له : استوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم . فإن يك كفافاً لأعطيتهم فسبيل ذلك ، وإلا فآكتب إلى حتى أحمل اليك الأموال فتوفر لهم أعطيتهم ؛ قال فقدم عقبة فوجد خراجهم يفضل عن أعطيتهم^(٢) .

ولكن لم نر في المراجع التي بين أيدينا إن كان عمر بن عبد العزيز قد سوى بين العرب والموالي في العطاء أم فعل غير ذلك . وأغلب الظن أنه قد خالف بين الفريقين لأنه قد وجد الموالي في حالة سيئة ومن المتعذر تسويتهم بالعرب في العطاء في مثل هذه السرعة العجيبة . فلقد روى أن عشرين ألفاً من موالي خراسان كانوا يغزون في عهده من غير عطاء^(٣) . فالمعقول إذن أن يكون عمر بن عبد العزيز قد حسن حالهم فحسب . إذ لو أراد مساواتهم بالعرب لترتب على ذلك نقص في أعطيات العرب ومثل هذا العمل يؤدي إلى ثورتهم ووقوع الفوضى والاضطراب في صفوفهم . .

ولقد كانت وظيفة القضاء قبل عصر عمر وفقاً على العرب لا يتسامى إليها الموالي كما ذكرنا من قبل ، ولكن عمر بن عبد العزيز لم يفرق بين العربي والمولى في هذه الناحية ، بل جعل الأساس هو التقوى والصلاح .

فيروى الكندي أن جماعة من أهل مصر وفدوا على سليمان بن عبد الملك وفيهم ابن خدامر الصنعاني مولى سبا ، فسألهم سليمان عن شيء من أهل المغرب فأخبروه . وأبى ابن خدامر أن يتكلم . فلما خرجوا قال له عمر بن عبد العزيز : ما منعك من الكلام يا أبا مسعود ؟ قال : خفت الله أن أكذب . فعرفها له عمر ، فلما ولي كتب

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٣٢ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٣٩ .

(٣) الطبري ج ٨ ص ١٣٤ .

إلى بن أيوب شرحبيل بولاية ابن خذامر القضاء فوليه من سنة ١٠٠ إلى ١٠٥^(١).
وإذا كنا قد تبينا فيما سبق أن عمر بن عبد العزيز كان من أولئك القلائل
الذين يحترمون مبادئ الإسلام ويحافظون على تطبيقها بقدر المستطاع . فهل نستطيع
أن نقول إن المجتمع العربي في عصره كان يتجه إلى هذا الهدف . وإن العرب في
تلك الحقبة من الزمن كانوا قد تناسوا عصيتهم العربية ، وأصبحوا ينظرون إلى الموالي
على أساس من العصبية الإسلامية ؟ ؟ .

لقد ذكر بعض المؤرخين ما يفيد أن الشعب يكون دائماً على غرار الخليفة الذي
يلي أموره ويدير شؤنه . كما يقول ابن العميد : المرء أشبه شيء بزمانه وصبغة كل
زمان منتخبة من سجايا سلطانه . فقال : كان الوليد بن عبد الملك شديد الكلف
بالعمارات والأبنية . . . فكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية
والعمارات .. وكان أخوه سليمان يحب الطعام والنكاح فكان الناس في خلافته إذا
التقوا سأل بعضهم بعضاً عن الطعام والنكاح . وكان عمر بن عبد العزيز صاحب
عبادة وتلاوة ... فكان الناس إذا تلاقوا في أيامه سأل بعضهم بعضاً ما وردك الليلة ؟
وكم تحفظ من القرآن ؟ وكم تقوم من الشهر ؟^(٢) .

ولكننا نعتقد أن المحكومين وإن كانوا يتأثرون إلى حد كبير بأخلاق الحاكم
و يترسمون آثاره فإن هذه المدة القصيرة التي حكمها عمر بن عبد العزيز^(٣) لم تكن
كافية لاقتلاع العصبية العربية من نفوس العرب ، ولتجديد مارث من مبادئ
الإسلام في قلوبهم . وليس أدل على ذلك من أن الحالة التي كانت قبل عهد عمر ،
والتي كانت تتمثل في سياسة الحجاج القاسية نحو الموالي . وتتمثل أيضاً في قول الخليفة

(١) الولاة والقضاة للسكندى ص ٣٨٨ .

(٢) الفخرى لابن مطا طبا ص ٩٣ ط مصطفى محمد ، وكثير الدرر ج ٤ م ٣ ص ٢٢٦ .

(٣) حكم عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف سنة .

سليمان بن عبد الملك — حينما كان أحد عماله يستشير في التخفيف عن الرعايا الأجانب وعدم إرهابهم — : احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم ^(١) . هذه الحالة العنيفة التي كانت قبل عهد عمر قد رجعت بعد وفاته إلى ما كانت عليه وأكثر ^(٢) . ومعنى ذلك أن السياسة العادلة التي كان يقوم بها عمر لم تكن تصادف القبول والارتياح لدى الجماهرة من العرب أو على الأقل لدى العمال والخلفاء الأمويين وإلا لما لجأوا إلى تغييرها بعد وفاة عمر بمثل هذه السرعة العجيبة !

- وقد استهدف عمر بن عبد العزيز على الرغم من محاولاته الإصلاحية ، وروحه الإسلامية لبعض حملات من النقد القاسي العنيف . فهذا فان فلوتن يقول : « إن تصرف عمر بن عبد العزيز في رفعه الجزية عن أسلم من أهل الذمة وفي جعله للموالى نصيباً من العطاء ؛ قد أنضب بيت المال وكان أبعد أثراً في وهن العرش الأموي » ^(٣) . وهذا فليب حتى يقول : « وعلى الرغم من أن النوايا الحسنة هي التي أوجت إلى عمر بهذا (أى برفع الجزية عن أسلم) إلا أن سياسته لم تنجح إذ قلت دخل الدولة وزادت من عدد الموالى في المدن » ^(٤) .

وكريم ومولر يقولان : إن عمر بن عبد العزيز قد خلبت له ، واستولت على مشاعره مدينته الفاضلة التي صورها له خياله الديني ورسمتها له تقواه ، فتورط في أمور مالية لم تكن تقتضيها الضرورات العملية . وقد سبب بذلك اضطراباً في مجرى المالية الطبعي . وخرج بها عن سبيل التطور الذي سارت فيه من قبل ^(٥) .

(١) الجهشيارى ص ٣٢ .

(٢) عزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر جميعهم . ورد أسامة بن زيد وهو المعروف بقسوته على الأهالي وعنفه في معاملتهم (ابن عبد الحكم ٣٤ . واليعقوبي ج ٣ ص ٥٢) .

(٣) السيادة العربية ص ٥٩ . (٤) ترجمة خاصة .

(٥) قلا عن كتاب الدولة العربية لغلوزن ص ٣٠٦ .

وإننا نكتفى في الرد على هؤلاء بما ذكره فلهوزن إذ يقول : « إن أولئك الذين يتعرضون لنقد هذا الخليفة في الأزمنة الحديثة هم الذين يخطئون في إدراك حقيقة الحال في عصره . فقد كانت الأحوال إذ ذاك قد داخلها الاضطراب واعتورها الفساد ؛ وكانت في حاجة إلى يد مصلحة تتولى الإجراء عليها وتنظيمها .

• وليس عمر أول من خلق الاضطراب في نظام الضرائب . ولكن الاضطراب كان قائماً من قبله .. ولم يكن الخليفة عمر قد تصدى لمسألة خيالية خلقها له الأوهام وإنما كان يعالج مشكلة حقيقية تتطلب علاجاً سريعاً ... وكان الحجاج من قبل قد عالج هذه الحالة في حزم ، ولكنه سلك سبيلاً في علاجها أثارت ضده الرأي العام الإسلامي . ثم جاء دور عمر فعالجها بطريقة أخرى . عالجها وهو يرعى في حذر تلك الحساسية الشديدة التي ركزت في الإسلام أو على الأقل التي يركز الإسلام عليها . فكلما الرجلين كان يتصدى لمشكلة قائمة بالفعل تقتضي الضرورات الملحة التوفر على حلها وكانت النتيجة أن أرض الخراج كثر انتقالها إلى أيدي طائفة من الملاك كانوا معفين من الخراج . كذلك ندفع عن عمر القول بأنه قد هز بنيان الدولة الأموية من أساسه لأنه قول منقوض مردود فقد كان بنيان هذه الدولة قد أصيب من قبل ؛ ولم يكن بنيانها قوياً حتى وقت قيامها » (١) .

والذي نراه بوجه عام أن عمر بن عبد العزيز لم ينفذ بيت المال بتلك المحاولات الإصلاحية لأن الجزية لم تكن هي المورد الرئيسي للدولة ، وهي وإن كان قد رفعت عن كل من أسلم فإنهم قد ألزموا بضريبة أخرى وهي الزكاة إذا ما بلغت أموالهم النصاب الخاص .

وأما الخراج وهو مورد الدولة الرئيسي فلم ينقص منه إلا النزر اليسير وذلك أن

(١) فلهوزن ص ٣٠٦ .

الأرض الخراجية وهي كل أرض فتحها المسلمون عنوة ولم يقسمها الخليفة على المحاربين وجعلها وقفاً على مصالح المسلمين كأرض السواد . وكذلك الأرض التي ملكها المسلمون من غير قتال وصالحوا أهلها على زوال ملكهم عنها وعلى أن يتركوهم بخراج معلوم يؤدونه لبيت المال . . هذه كلها قد أبقاها عمر على ما هي عليه فلم تتأثر بإسلام أصحابها . .

وَأما الأرض التي صولح أهلها على بقاء ملكهم عليها فإن القواعد الإسلامية كانت تقضى بجواز بيعها ، وإذا بيعت لمسلم أو أسلم عنها صاحبها سقط خراجها ، وأصبحت أرضاً عشرية ، وهذه قد منع عمر بيعها للمسلمين منذ سنة ١٠٠ هـ لئلا تصير أرضاً عشرية ، وكذلك لم يرفع الخراج عن أصحابها إذا أساموا منذ ذلك الحين ، وبهذا يكون عمر غير مفرط في حقوق الدولة ، ولا منضب لبيت المال .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن نفقات الخلافة قد قلت في عهده إلى درجة كبيرة بسبب زهده وتقشفه ، وأن الولاة والخلفاء قد تقلص نفوذهم ، وضعفت سطوتهم وهبطت درجة معيشتهم إلى المستوى العادي بعد أن كانوا غارقين في الترف والنعم . . وإذا ما علمنا أن هذه الأموال التي تتوفر كانت تصرف في سبيل الصالح العام ، وترجع للفقراء والمساكين . . أدركنا أن المجتمع الإسلامي كان في عهد عمر ينعم إلى حد كبير باليسر والرخاء . . وتروى لنا المصادر الإسلامية ما يؤيد ذلك .

فيروى الطبري أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عقبة بن زرعة الطائي - وكان قد ولاه الخراج في خراسان - فقال له : استوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم . فإن يك كفافاً لأعطيتهم فسبيل ذلك . وإلا فاكسب إلى حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطيتهم . قال فقدم عقبة فوجد خراجهم يفضل عن أعطيتهم^(١) ويروى ابن عبد الحكم أن رجلاً من ولد زيد بن الخطاب قال : إنما ولي عمر

(١) الطبري ج ٨ ص ١٣٩ .

ابن عبد العزيز سنتين ونصفاً فذلك ثلاثون شهراً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتيها بالمال العظيم فيقول اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فلا يجده . فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ^(١) .

ورأينا في موقف هذا الخليفة من الموالي أنه موقف إسلامي إلى حد كبير . فهو قد رفعهم إلى مستوى العرب أو كاد . وقد تحدى بذلك شعور القبائل العربية المختلفة لأنه كان مؤمناً بفكرة المساواة التي تستمد من قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » .

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد نجح كخليفة مسلم ، فهل نجح كرجل سياسي يعمل تحت لون حزبي خاص أم أخفق ؟ . أغلب الظن أنه قد خطا خطوات واسعة نحو النجاح في هذا السبيل .. ولو أن من جاء بعده من الخلفاء أمكنه أن يتجه إلى مثل طريقه ، لكان من الممكن أن يطول عمر الدولة الأموية وأن تقل الأخطار المحيطة بها . ولكن الخلفاء الأمويين بعد عهد عمر رجعوا إلى سيرة أسلافهم قبل عهده .. وحينئذ وجد الموالي أنفسهم مضطرين إلى مواصلة الجهاد من أجل استرجاع حقوقهم وتحقيق آمالهم .. وقد سلكوا في سبيل تلك الغاية ثلاثة طرق .

أولاً - السيطرة على الحركة الفكرية وقد استفادوا من ذلك فائدتين : إحداهما أنهم قد عوضوا أنفسهم بالعلم عن ذلك الازدراء الذي كان ينالهم من العرب حيث أن العلم يسمو بصاحبه ويرفعه . وثانيتهما : أن بعضاً منهم قد أدخل إلى الإسلام مبادئ غريبة ترجع إلى دياناتهم القديمة فكان هذا من الأسلحة الفتاكة التي أوهنت من قوة العرب والإسلام .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٢٨ .

ثانياً - مناوأة ذلك التيار القوى - تيار العصبية العربية - بتيار قوى آخر
هو تيار الشعوبية . وقد كان لذلك إرغاصات ومقدمات في العصر الأموي .

ثالثاً - مؤازرة الحركات الثورية المتعاقبة التي كانت تقوم ضد الدولة الأموية

لكي ينتقموا لأنفسهم ، ويقتربوا من أهدافهم ..

وقد عقدنا لذلك ثلاثة فصول متتابعة .

الفصل الخامس

الموالى والحركة الفكرية

عقليتهم واستمدادهم - تراجم قصيرة للمشاهير من علماءهم - العصبية العربية
عامل إيجابي في نبوغهم وتفوقهم - أثر الموالى في العلوم والمبادئ الإسلامية

ولما رأى الموالى أن العرب قد نظروا إليهم نظرة لا تليق بماضيهم المجيد
ولم يعاملوهم على أساس من العدالة والمساواة ، واعتبروهم في درجة أقل منهم .. حاولوا
أن يتلمسوا السبيل لإرجاع مجدهم واسترداد عظمتهم . وكان العلم من الوسائل التي
اتخذوها لتحقيق هذه الغاية . فإن العلم يسمو بصاحبه ، ويرفع من شأنه ومقداره ،
ويعوضه عن كرم الأصل وشرف العنصر . ولذا تسابق الموالى في هذا السبيل حتى
قطعوا شوطاً بعيداً وساهموا بنصيب كبير .

وسنحاول أن نبين آثارهم العلمية والفكرية في هذا العصر الذي نؤرخه فنقول :
فتح الإسلام الكثير من الممالك الأجنبية وهي إذ ذاك تقف على درجات مختلفة
من سلم العلم والمعرفة . ولكنها على اختلاف درجاتها كانت قد قطعت مراحل
لم يقطعها العرب في جاهليتهم . فمصر والشام مثلاً كانتا ملحقتين قبل الفتح الإسلامي
بمملكة الروم ، وكانت الآداب والعلوم في هذين القطرين قد سارت أشواطاً بعيدة
في سبيل الرقي بفضل مدرسة الإسكندرية - وجهادها العلمي قديم وطويل - وبفضل
مدرسة بيروت بالشام ، وكانت ذات شهرة كبيرة وصيت ذائع في ذلك الأوان .

وفي بلاد الفرس كانت نهضة علمية قبل الإسلام وشجعها كسرى أنوشروان

الذى أنشأ في جندى سابور مدرسة عظيمة اشتهرت في بلاد الفرس اشتهار مدرسة الإسكندرية بمصر ، وبيروت بالشام^(١) .

فلما فتح المسلمون تلك البلاد ، ودخل كثير من سكانها الأصليين في الإسلام — وهم من نسميهم بالموالى — كانت لهم عقلية علمية ناضجة ، أو على الأقل أقرب إلى النضوج من إخوانهم العرب الذين لم تهى لهم الأقدار مثل هذا الحظ من الثقافة والمعرفة .. ولذا فإن العلوم الإسلامية قد ازدهرت في كنف هؤلاء الموالى وأثمرت فنبع فيهم العلماء الكثيرون الذين ساهموا في بناء النهضة العلمية في الإسلام بأوفى نصيب ..

ولا شك أننا لو تتبعنا تاريخ الحركة العلمية في الإسلام بعد عصر الرسول وصحابته الراشدين . فإننا نجد المسلمين من الأعاجم — وهم الموالى — يقفون في الطليعة ، ويحملون قبس العلم والمعرفة أمام الناس .

I فكان في المدينة سليمان بن يسار مولى ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج النبي صلى الله عليه وسلم وكانت له شهرة علمية فائقة ، وكان ثقة عالماً كثير الحديث ، وهو أحد الفقهاء السبعة ، واتفقوا على وصفه بالجلالة وكثرة العلم ، وتوفى سنة ١٠٣ هـ في خلافة يزيد بن عبد الملك^(٢) .

I ونافع مولى عبد الله بن عمر وكان ديلمياً وأصابه عبد الله بن عمر في إحدى الغزوات وهو من كبار التابعين . وروى عن عبد الله بن عمر وأبى سعيد الخدرى ، وروى عنه الزهرى وأيوب السختياني ومالك بن أنس ، وهو من المشهورين بالحديث ومن الثقات الذين يؤخذ عنهم ويجمع حديثهم ويعمل به . وقال مالك : كنت إذا سمعت

(١) راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ١ ص ٢١١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥ - ١٣٠ ط أوروية . وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ١ - ٢٣٥ والنجوم الزاهرة لأبى الحاسن ١ - ٢٥٢ ط دار الكتب .

حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي ألا أسمع من أحد غيره . وكان ابن عينة يقول : أى حديث أوفى من حديث نافع ؟ . وأهل الحديث يقولون : رواية الشافعى عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب لجلالة كل واحد من هؤلاء الرواة . وتوفى سنة ١٢٠ هـ (١) .

وربيعة الرأى مولى آل المنكدر التميميين وهو شيخ الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه . وكان فقيه المدينة فى وقته غير منازع حتى كان القاسم بن محمد يقول : لو تميت أحداً تلده أمى لتميت ربيعة . وكان يجلس فى مسجد المدينة وحوله حلقة كبيرة من العلماء والأشراف يتلقون العلم عنه . وقد اتفق العلماء من المحدثين وغيرهم على توثيقه وجلالته وعظم مرتبته فى العلم والفهم وكانت وفاته سنة ١٣٦ هـ (٢) .

وكان من علماء مكة مجاهد بن جبر مولى قيس الخزومى . وكان فقيهاً عالماً ثقة كثير الحديث . وهو من أكبر رواة التفسير عن ابن عباس حتى كان يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة . وتوفى حوالى سنة ١٠٢ هـ (٣) .

وعكرمة مولى ابن عباس وكانت له شهرة علمية فائقة حتى يروى عن معمر بن أيوب أنه قال : « قدم علينا عكرمة فاجتمع الناس عليه حتى أصعد فوق ظهر بيت » وكان من أعلم الناس بالتفسير . وقد توفى سنة ١٠٥ هـ هو وكثير عزة فى يوم واحد وصلى عليهما فى مكان واحد . وقال الناس إذ ذاك : مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس (٤) .

وعطاء بن أبى رباح مولى بنى فهر وكان من أجلاء الفقهاء ومن أعلام التابعين

(١) ابن خلكان ج ٣ ص ٥٠ و ٥١ ط الوطن . وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ج ٢ ص ١٢٤ وأبو المحاسن ١ - ٢٧٥ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٥ و ٣٢٦ . تهذيب الأسماء واللغات للنووى ج ١ ص ١٨٩ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٣٤٣ . معجم الأدباء لياقوت ج ١٧ ص ٧٨ ط الدكتور رفاعى .

(٤) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢١٢ ، وأبو المحاسن ج ١ ص ٢٦٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات

للنووى ج ١ ص ٣٤١ .

وإليه وإلى مجاهد بن جبر انتهت فتوى مكة . وكان أعلم الناس بمناسك الحج حتى كانوا في زمان بني أمية يأمرهم في الحج صائحاً يصيح : لا يفتي الناس إلا عطاء ابن أبي رباح ، وكان عالماً ثقة كثير الحديث وتوفي سنة ١١٤ هـ ^(١) .

٦ واشتهر من علماء الكوفة سعيد بن جبيرة مولى بني والبة بن الحارث . وكان سعيد يحدث عن نفسه فيقول : ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفة حتى أملأها وكتبت في نعلي حتى أملأها وكتبت في كفي . وكان ابن عباس بعد ما عمى إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه في شيء يقول لهم : « تسألوني وفيكم سعيد بن جبيرة ؟ » . وكان يجلس للدرس كل يوم مرتين ، بعد صلاة الفجر وبعد العصر . وكان ورعاً متمسكاً بمبادئ الإسلام حتى يروى أنه قال : لأن أضرب على رأسي أسواطاً أحب إلي من أن أتكلم والإمام يخطب يوم الجمعة . إلى غير ذلك من أخباره الكثيرة . وقد قتله الحجاج الثقفي سنة ٩٤ هـ ، فأنكر الناس على الحجاج فعلته وتسخطوا عليه ، وقال أحمد بن حنبل : قتل الحجاج سعيد بن جبيرة وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه ^(٢) .

٧ واشتهر من علماء البصرة الحسن البصري ، وكان من سادات التابعين وكبرائهم ، وجمع كل فن من علم وورع وزهد وعبادة وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه خيرة مولاة أم سلمة . قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج الثقفي ، فقليل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال الحسن . وقال الذهبي عن الحسن : هو إمام أهل العصر . وكان الحجاج وهو وال على العراق يقف بنفسه على حلقة الحسن البصري لكي يستمع إلى علمه . ولما مات خرجت البصرة كلها تشيعه إلى مقره الأخير فلم تقم صلاة العصر بمسجدها الجامع ، ولم تعطل قبل ذلك منذ كان

(١) طبقات ابن سعد ٥ - ٣٤٤ . وابن خلكان ١ - ٥٧١ ، ٥٧٢ . وأبو المحاسن ١ - ٢٧٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦ - ١٧٨ . وتاريخ ابن عساكر ٤ - ٧٩ . وابن خلكان ١ - ٣٦٥ .

وعقد الجمان للعيني ج ١١ م ٢ ص ٣٣٣ .

الاسلام ، وذلك يدل على المكانة العظيمة التي كان يتمتع بها الحسن في قلوب الناس .
وقد روى عن عمران بن حصين والنعمان بن بشير والمغيرة بن شعبة وغيرهم من الصحابة
وكانت وفاته سنة ١١٠ هـ^(١) .

١ محمد بن سيرين وكان من التابعين الأجلاء . روى عن أبي هريرة وعبد الله بن
عمر وعبد الله بن الزبير وعمران بن حصين وأنس بن مالك . وروى عنه قتادة بن دعامة
وخالد الحذاء وأيوب السخيتاني وغيرهم من الأئمة . وهو أحد الفقهاء من أهل البصرة
والمذكور بالورع في وقته وكان الأصمعي يقول : « الحسن البصري سيد سمح وإذا
حدث الأصم (يعني ابن سيرين) بشيء فاشدد يدك » وكان الشعبي إذا أعضلت
مسألة علمية يقول : « عليكم بذاك الأصم (يريد ابن سيرين) »^(٢) .

٢ واشتهر من أهل الشام مكحول بن عبد الله وهو من التابعين الأجلاء والعلماء
الأعلام حتى قيل إنه لم يكن في زمنه من هو أبصر منه بالفتيا وتوفي سنة ١١٨ هـ^(٣) .

٣ واشتهر في مصر يزيد بن حبيب مولى الأزدي وكان مفتي أهل مصر وعنه أخذ
الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة . وكان يزيد بربري الأصل وقال فيه الليث بن سعد :
يزيد عالمنا وسيدنا . وهو أحد ثلاثة عهد إليهم عمر بن عبد العزيز بالفتيا في مصر وقد
جمع ناحيتين كبيرتين من نواحي العلم : إحداهما الناحية التاريخية فيروى عنه الكثير
في حروب مصر وفتنها وفتحها ، والثانية الناحية الفقهية فكان واسع العلم في الحلال
والحرام حتى قيل فيه إنه أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحلال والحرام . وقبل
ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن ، وتوفي يزيد سنة ١٢٨ هـ^(٤) .

وهكذا إذا رجعنا إلى كتب الطبقات والتراجم ، وجدنا الموالى في العصر الأموي

(١) تاريخ ابن عساكر ٤-٧١ وأبو المحاسن ١-٢٦٧ و٢٦٨ وابن خلكان ١-٢٢٧ و٢٢٨

(٢) ابن خلكان ٢-٢٢٦ وعقد الجمان ج ١١ م ٣ ص ٤٧١ وأبو المحاسن ١-٢٦٨ .

(٣) ابن خلكان ٢-٨٥٠ وتهذيب الأسماء واللغات ٢-١١٤ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطي ١-١٣١ والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن ١-١٤٣ و٢٣٨ و٣٠٨

الذى تؤرخه ، يساهمون بالنصيب الأكبر فى بناء النهضة العلمية الكبرى التى بلغت الذروة والغاية فى العصر العباسى .

وإنه لمن الصير علينا أن نقوم بعمل إحصائية للعلماء الموجودين فى ذلك الأوان حتى تتبين لنا نسبة العرب للموالى ، أو نسبة الموالى إلى العرب . ولكن المقطوع به والذى تجمع عليه المصادر فيما رجعنا إليه أن كفة الموالى فى هذه الناحية كانت هى الراجحة .. ومما يوضح لنا ذلك رواية ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد إذ يقول : قال ابن أبى لیلی قال لى عيسى بن موسى وكان ديانا شديد العصبية (أى للعرب) : من كان فقيه البصرة ؟ قلت الحسن البصرى . قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين . قال فما هما ؟ قلت موليان . قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت عطاء بن رباح ومجاهد بن جبر وسليمان بن يسار قال فما هؤلاء ؟ قلت موال . قال فمن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح . قال فما هؤلاء ؟ قلت موال . فتغير لونه ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت ربيعة الرأى وابن أبى الزناد قال فما كانا ؟ قلت من الموالى فاربذ وجهه ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت طاووس وابنه وابن منبه . قال فمن هؤلاء ؟ قلت من الموالى . فانتفخت أوداجه وانتصب قاعدا . ثم قال فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراسانى . قال فمن كان عطاء هذا ؟ قلت مولى . فازداد وجهه ترابا واسودادا حتى خفته . ثم قال فمن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول . قال فما كان هذا ؟ قلت مولى . قال فتنفس الصعداء^(١) ثم قال فمن كان فقيه الكوفة ؟ قلت فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة وعمار بن أبى سليمان^(٢) ولكن رأيت فيه الشر فقلت ابراهيم النخعى والشعبى . قال فما كانا ؟ قلت عرييان . قال : الله أكبر وسكن جأشه^(٣) . وأيضا ما جاء فى معجم البلدان لياقوت . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما مات العبادلة ، عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن

(١) يريد أنه تنفس الصعداء من فرط الغم الذى أصابه .

(٢) وهما موليان . (٣) العقد الفريد ٢ - ٦٤ .

العاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالى فصار فقيه أهل مكة نطاء بن أبي رباح و فقيه أهل اليمن طاووس، و فقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير، و فقيه أهل البصرة الحسن البصرى، و فقيه أهل الشام مكحول، و فقيه أهل خراسان عطاء الخراساني، إلا المدينة فان الله تعالى خصها بقرشي. فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب^(١)

ولقد كان أساس الحركات العلمية في أوائل الإسلام هو الدين الذي يتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية. فأساس الفقه هو ما ورد من آيات قرآنية أو أحاديث عن النبي تتعلق بالعبادات والمعاملات؛ والتاريخ مستمد من سيرة النبي وغزواته، وبحث العلماء يتركز ويدور حول هذا الغرض من تفسير لآية قرآنية أو رواية لحديث بسند يتصل إلى الرسول. وأما ما أثر عن هذا العصر من دراسات دينوية، كطب و كيمياء مثلاً فقليل نادر وأكثر من اشتغل به من غير المسلمين.. ولذا فقد كان الفقه والتفسير، والحديث والقراءة والتاريخ كان هذا كله علماً واحداً في أوائل الإسلام، ثم أخذت هذه العلوم يستقل بعضها عن بعض عملاً بناموس الارتقاء. ولكن استقلال العلوم وتميزها ظل غير ملحوظ طيلة العصر الأموي على وجه التقريب. ففي كتب التراجم عن علماء ذلك العصر ما يفيد أنهم كانوا يأخذون من كل علم بنصيب وافر. وأن العلوم التي استقلت فيما بعد لم تكن إذ ذاك مستقلة في نظرهم.. فالحسن البصري مثلاً يجلس في درسه فيتكلم في الفقه والتفسير والحديث ويصدر الفتاوى والأحكام دون أن يلاحظ أنه انتقل من علم إلى علم، وتلاميذه يستمعون إليه ولا يفكرون أنه قد انتقل بهم إلى مجموعة من العلوم، وإنما يفهمون أنهم حضروا درساً من العلم الديني. وكتب التراجم التي ألفت بعد استقلال العلوم وتميزها حيناً تتحدث عن علماء العصر الأموي تتحدث عنهم بصفة عامة.. فسعيد بن جبيرة عالم ثقة كثير الحديث. ومجاهد بن جبر عالم فقيه ومحدث ثقة.. وهكذا.

(١) معجم البلدان كلمة خراسان.

ولم يكتمل نضوج العلوم وتميزها إلا في العصر العباسي . فظهر الفقهاء وألقوا الكتب الكثيرة في الأبحاث الفقهية الخالصة ، وكذلك المفسرون والمحدثون وعلماء الكلام إلى غير ذلك . وليس من شأننا أن نبين كيفية انفصال العلوم وتميزها فذلك خارج عن نطاق البحث الذي نحن بصدده .

ولم يقتصر ذلك النشاط الفكري للموالى على تلك النواحي الدينية . بل إنه امتد إلى اللغة العربية نفسها على الرغم من رطانة ألسنة الموالى وبعدهم عن السليقة العربية . وقد كان العقول أن يكونوا بحكم بيئتهم أزهد الناس في اللغة العربية وما يتعلق بها . ولكن حسن استعدادهم ، وقوة رغبتهم وشدة طموحهم . كل هذه النواحي قد ذلت أمامهم تلك المصاعب الجمة حتى رأينا منهم علماء أجلاء يساهمون في وضع قواعد للغة العرب ، وفي رواية الشعر العربي . بل وفي قرض الشعر نفسه .

فمثلاً أبو بحر عبد الله بن اسحق — وهو من موالى بنى عبد شمس — كان إماماً في النحو واللغة ، وكان يعيب الفرزدق في شعره فقال الفرزدق يهجوهُ :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا ^(١)
فقال له عبد الله : وقد لحنت أيضاً في قولك « مولى مواليا » بل ينبغي أن تقول « مولى موال » ^(٢)

١ وكان عيسى بن عمر النحوى مولى خالد بن الوليد — وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية — إماماً في النحو . وقد ألف كتاباً يسمى الجامع في النحو . ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره . ولما كمل بالبحث والتحشية نسب إليه — وهو كتاب سيبويه المشهور — والذي يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر المذكور ولازم الخليل بن أحمد سألَه

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٢ .

(٢) عقد الجمان للعيني ج ١ ص ١٢٤ م ٦٢ .

الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال له سيوييه : صنف نيفاً وسبعين مصنفاً في النحو .
وأن بعض أهل اليسار جمعها وأتت عنده عليها آفة فذهبت ولم يبق منها في الوجود
سوى كتابين : أحدهما اسمه « الإكمال » وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر
« الجامع » وهو هذا الكتاب الذي أشغل فيه وأسألك عن غوامضه . فأطرق
الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى وأنشد :

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقر
فأشار بالإكمال إلى الغائب وبالجامع إلى الحاضر . وكان عيسى بن عمر يطعن على
العرب ويخطئ المشاهير منهم مثل النابغة في بعض أشعاره ، وغيره ^(١) .

وكان حماد الراوية — مولى بنى بكر بن وائل — من أعلم الناس بأخبار العرب
وأنسابها وأيامها وأشعارها ولغاتها . وكانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره وتستزيده فيغد
عليهم وينال منهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها . وقال له الوليد بن يزيد
الأموي يوماً وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية ؟ قال : بأني
أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به . ثم أروى لأكثر منهم ممن
تعترف أنك لا تعرفه ولا سمعت به . ثم لا ينشدني أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت
القديم من الحديث . فقال له : فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير . ولكني أنشدك
على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية
دون شعر الإسلام . قال : سأمتحنك في هذا ، ثم أمره بالإشاد فأنشد حتى ضجر
الوليد . ثم وكل به من استحلفه أن يصدق عنه ويستوفى عليه . فأنشده ألفين وتسعمائة
قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم ^(٢) !!

وقد نبغ في الشعر العربي كثير من الموالى في هذا العصر الأموي ، فامتزجت

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٢ و ٦٣ ، ووفيات الأعيان ٢ - ١١٩ ط الوطن .

(٢) ابن خلكان ١ - ٢٩٢ مطبعة الوطن والأغاني ٥ - ١٥٦ .

الثقافة الأعجمية بالثقافة العربية ، وكان هذا الشعر مرآة لذلك المزيج من الثقافتين .
ولكن يظهر أنهم قد لجأوا إلى الشعر كوسيلة للتكسب والمنفعة الشخصية ، ولذا كانت
أشعارهم لا تعبر في الغالب عن أهدافهم الحقيقية . إذ كانوا موزعين بين الأحزاب
السياسية المختلفة يساهمون في الدعاية لها تبعاً للحالة التي تصادفهم والظرف الذي
يحيط بهم .

فمثلاً أبو العباس الأعمى واسمه السائب بن فروخ مولى بنى الدئل ، كان من
المقربين لبني أمية يمدحهم وينال من عطاءهم ؛ وكان منحرفاً عن آل أبي طالب وقد
هجا أبا الطفيل عامر بن وائلة لأنه كان شيعياً فقال :

لعمرك أنتى وأبا طفيل لمختلفان والله الشهيد
لقد ضلوا بحب أبي تراب كما ضلت عن الحق اليهود^(١)
وقال في مدح بني أمية :

أبني أمية لا أرى لكم شهباً إذا ما التفت الشيع
وقال أيضاً في مدحهم :

خطباء على المنابر فرسا ن عليها وقالة غير خرس
لا يعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس^(٢)

وعمر بن الحصين مولى تميم ، كان من أنصار الخوارج . وله في الدعاية لمذهبهم
أشعار كثيرة نذكر منها على سبيل المثال قوله في مدح الخوارج ووصفهم بالتقى
والصلاح :

ومبرئين من المعاييب أحرزوا خصل المكارم أتقياء أطايب
وقوله في وصفهم بالشجاعة والإقدام :

في فتية صبر ألفهمو به لف القداح يد المغيض الضارب
فندور نحن وهم وفيما بيننا كأس المنون تقول هل من شارب؟

(١) معجم الأدباء لياقوت ط الدكتور رفاعي ج ١١ ص ١٧٩ .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٥٧ و ٥٨ .

فنظّل نسقيهم ونشرب من قنّى سمر ومرهفة النصول قواضب
سائل بيوم قديد عن وقعاتها مخبرك عن وقعاتها بعجائب^(١)
ولكن كانت تظهر منهم أحياناً نزعة قومية تنسيهم ولاءهم للقبائل العربية
فيفضلون الأعاجم على العرب كقول اسماعيل بن يسار في حضرة الخليفة هشام بن
عبد الملك :

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به . ولى لسان كحد السيف مسموم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً . والمهرمزان لفخر . أو لتعظيم^(٢) ؟
وكقول يزيد بن ضبة مولى ثقيف :
ألم تر أننا لما ولينا أموراً خرقت فوهت سددنا
رأينا الفتق حين وهى عليهم . وكم من مثله صدع رقانا^(٣)
والآن تتسائل عن السر الذى دفع هؤلاء الموالى إلى الاشتغال بالعلم والنبوغ فيه
وجعلهم يترفعون الحركة الفكرية ويسبقون العرب إلى هذه الدرجة الكبيرة .
لقد ذكر ابن خلدون أن السبب فى ذلك هو أن العرب كانوا لا يزالون قبل
الإسلام فى طور البداوة فلم تكن عندهم ملكة البحث العلمى ، ولا الاستعداد الذى
يسرع بصاحبه إلى النبوغ كما كان عند غيرهم^(٤) .
وذكر جورجى زيدان فى كتابه التمدن الإسلامى ما يؤيد هذا المعنى . ثم قال :
وكان الفرس من جهة أخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح
فجعلوا يتقربون إليهم بخدمة العلم وفق ما تتطلبه حال الإسلام^(٥) .

(١) راجع تلك القصيدة بالأغاني ج ٢٠ ص ١٠٢ و ١٠٣ ط الساسى وقد قالها عمر بن الحصين
على أثر انتصار الخوارج بمعركة قديد قرب المدينة . إذ انتصر الخوارج على الجيش الأموى
بقيادة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك .

(٢) الأغاني ج ٤ ص ١٢٤ .

(٣) الأغاني ج ٦ ص ١٤٢ وقد عاصر هذا الشاعر الخلفيتين هشام بن عبد الملك والوليد
ابن يزيد .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٥ ، ٦٣٦ .

(٥) التمدن الإسلامى ج ٣ ص ٤٧ .

وذكر أحمد أمين بك في كتابه فجر الإسلام سبباً آخر لنبوغ الموالى في هذه الناحية العلمية : وهو يرجع في بعض نواحيه إلى السبب الذي ذكره ابن خلدون فقال : « إن الصحابة قد استكثروا من الموالى يستخدمونهم في بيوتهم وفي أعمالهم . فإذا كان الصحابي تاجراً فمواليه أعوانه في التجارة ، وإذا كان عالماً كانت مواليه تلاميذه وأعوانه في العلم . ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم في السر والعلن . وملازماتهم لهم في الإقامة والسفر ، ودليلنا على ذلك نافع مولى عبد الله ابن عمر فقد أخذ عنه أكثر علمه » ^(١) .

ونحن نؤيد وجهات النظر السالفة جميعها ونرى أنها جميعاً أسباب اجتمعت فأدت إلى هذه النتيجة .

✓ « والواقع أن هؤلاء الموالى حينما شعروا باحتقار العرب لهم . ورأوا أن العصبية العربية في العصر الأموي قد تطاير شررها وتناثر ، وأنهم بسبب ذلك قد غمطت حقوقهم وانحدرت منزلتهم ، أوجد هذا في نفوسهم ما يسميه علماء النفس بمركب النقص ^(٢) . وأرادوا أن يتلمسوا طريقاً إلى المجد حتى يتسنى لهم أن يقفوا على قدم المساواة مع العرب ، وحتى لا يتألم مثل هذا الازدراء والاحتقار ، وقد كان العلم من الوسائل التي اتخذوها لتحقيق تلك الغاية .. ولما كان أفقهم كما تقدم أوسع من أفق العرب واستعدادهم أكثر . فقد نجحوا في هذا المجال العلمي أيما نجاح وتحققت لهم أمنيته . فان العلم كان يرفع صاحبه ويجعله موضع التقدير والإجلال » ^(٣) .

— وإذن فقد كانت العصبية العربية ضد الموالى ذات أثر فعال في خدمة العلوم الإسلامية . إذ دفعت جمهرة كبيرة من الموالى إلى البحث والاستنتاج والتفوق العلمي حتى ترتفع منزلتهم لدى العرب ، وحتى لا يصيبهم شرر تلك العصبية العربية ... ✓ ولكنها من ناحية أخرى كانت ذات أثر سيئ . فإن هؤلاء العلماء من الموالى كانوا فريقين ، فريقاً قد تمكنت مبادئ الإسلام في نفوسهم وهؤلاء خدموا الدين

(١) فجر الإسلام ص ١٩١ .

(٢) شرح مركب النفس للعالم النفساني أدلر . (٣) راجع ص ٤٦ و ٤٧ من الكتاب .

وخدموا العلوم الدينية كالحسن البصري وسعيد بن جبير وغيرهما ممن تقدم ذكرهم ،
وفريقاً آخر لم تتمكن مبادئ الإسلام في نفوسهم ، ولم يكونوا قد تخلصوا من شوائب
دياناتهم السابقة وعاداتهم القديمة ؛ وهؤلاء أضروا بالإسلام وأضروا بالعلوم الدينية ،
ففسروا الآيات القرآنية بما يتفق مع أغراضهم ^(١) ووضعوا الأحاديث التي تلائم
مذاهبهم ^(٢) ، وكان هذا من الأسباب التي زادت من تفرق المسلمين ، وعكزت
من صفاء العقيدة الإسلامية .

فالشيعية مثلاً وهم أنصار علي بن أبي طالب كان منهم غلاة جاءوا بآراء غريبة
عن الإسلام ^(٣) . وكانت هذه الآراء متأثرة بالمذاهب الدينية التي كانت موجودة
في فارس والعراق وغيرها قبل الفتح الإسلامي كالمجوسية وغيرها . وكان الأساس
في نشرها أناس أسلموا لأغراض خاصة ، ثم صبغوا معتقداتهم الحقيقية بلون إسلامي
لكي يستطيعوا التأثير في قلوب الناس والتنفيس عن عواطفهم المكبوتة ^(٤) ويدين

(١) سيأتي بعض أمثلة لذلك .

(٢) لقد نشأ عن عدم تدوين الحديث في كتاب خاص في العصور الأولى واكتفاء المسلمين
بالاعتماد على الذاكرة وصعوبة حصر ما قال رسول الله (ص) أو فعل أن استباح قوم لأنفسهم
وضع الحديث ونسبته كذباً إلى رسول الله ، وقد كانت تدفعهم إلى ذلك أغراض كثيرة أهمها
الخصومة السياسية . فالخصومة السياسية بين أبي بكر وعلي ، حملت جماعة من أنصار علي أن يضعوا
الأحاديث في مدحه لكي يزداد حب الناس له ، فقابل أنصار أبي بكر هذا العمل بمثله . إذ وضعوا
الأحاديث في مدح أصحابهم وتفضيله على غيره وهكذا .. قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة
« واعلم أن أصل الكذب في حديث الفضائل كان من جهة الشيعة فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر
أحاديث مختلفة في أصحابهم . حملهم على وضعها عداوة خصومهم . فلما رأيت البكرية ما صنعت الشيعة
وضعت لصالحها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث .. ولقد كان في فضائل علي الثابتة الصحيحة ،
وفضائل أبي بكر المحققة المعلوم ما يغني عن تكلف العصبية لهما » (شرح ابن أبي الحديد ١٧/٢)
فلما فتحت الفتوح ودخل في الإسلام كثير من سكان تلك البلاد وكان إسلامهم ضعيفاً استباحوا
لأنفسهم وضع الأحاديث التي تخدم أغراضهم لكي يقبل الناس عليهم ، ويتعلقوا بأهدابهم ،
وبذلك كثرت الفرق في الإسلام . وأخذ الانحلال والتفرق يسريان في كيان المسلمين .

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعري ج ١ ص ٥ .

(٤) السيادة العربية لغان فلوتن ص ٨٥ و ٨٦ .

هؤلاء الغلاة من الشيعة بمبدأ الحلول والتناسخ^(١). وأول فرقهم السبئية؛ وهم أتباع عبد الله بن سبأ^(٢). وقد قالوا بأن علياً حتى لم يقتل وقد حل فيه الجزء الإلهي ولا يجوز أن يستولى عليه، وهو الذي يجيء في السحاب، والرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً.. كما قالوا بأن هذا الجزء الإلهي الذي حل في علي يتناسخ في الأئمة من بعده^(٣).

والذي يعنينا من ذكر هذه المعتقدات أنها متأثرة بالديانات القديمة التي كانت سائدة في تلك البلاد الأجنبية قبل الفتح الإسلامي من المزدكية والبرهمية والصابئة وغيرها^(٤)... ولذا يقول فلهوزن: «إن هذه الآراء الغريبة التي ظهرت تحت ستار الإسلام كانت كرد فعل لتلك الديانات التي غمرها الإسلام»^(٥). ولذا «كان معظم أتباع السبئية من الموالي وأقلهم من العرب»^(٦).

ثم ظهرت بعد ذلك فرقة الكيسانية، وهم أصحاب كيسان مولى علي بن أبي طالب، ويهمننا من هذه الفرقة أمران: أولهما أن رئيسها وهو كيسان من الموالي^(٧). وثانيهما: أن آراءها متطرفة وبعيدة عن الإسلام الصحيح. فهم يقولون إن الدين ليس إلا طاعة إمامهم. وإن الأحكام الشرعية الأساسية في الدين كالصلاة والصيام والحج لا ضرورة لها مادام الإنسان مطيعاً لإمامه^(٨). وهم يقولون بالحلول والتناسخ أيضاً متأثرين في ذلك بتلك الديانات القديمة من المزدكية والبرهمية والصابئة^(٩) كما تقدم

(١) الملل والنحل للشهرستاني (على هامش كتاب الفصل لابن خزم) ج ١ ص ١٩٦.

(٢)، (٣) الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ١١.

(٤) المرجع السالف ج ٢ ص ١٢.

(٥) فلهوزن: الدولة العربية وسقوطها ص ٥٠٤.

(٦) المرجع السالف ص ٥٠١.

(٧) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٩٦.

(٨) الشهرستاني ج ١ ص ١٩٦.

(٩) المرجع السالف ج ٢ ص ١٢.

ثم ظهرت فرقة الهاشمية ، وهم القائلون بأن الإمامة قد انتقلت من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم عبد الله ، وقد تطرف هؤلاء القوم في مذهبهم وأدخلوا فيه كثيراً من الآراء الغريبة عن الدين ^(١) . حتى لقد أدى ذلك التطرف إلى دخول كل من أسلم لطمع أو لخوف دون فهم للعقيدة الإسلامية في صفوفهم ^(٢) .

ثم ظهرت فرقة البنانية ، وهم أتباع بنان بن سمعان النهدي وهؤلاء يقولون بانتقال الخلافة من أبي هاشم إليه . وكان هذا الرجل يقول بألوهية علي بن أبي طالب فقال : « حل في علي جزء إلهي واتحد بجسده فبه كان يعلم الغيب إذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار وله النصر والظفر ، وبه قلع باب خير وعن هذا قال والله ما قلع باب خير بقوة جسدانية ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية » . وقال في تفسير قوله تعالى « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » : « إن المراد به علي فهو الذي يأتي في ظلل ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه » . وقد ادعى بنان أنه قد انتقل إليه ذلك الجزء الإلهي بنوع من التناسخ وبه استحق أن يكون إماماً وخليفة .

ومن العجيب أن هذا الرجل قد أرسل كتاباً إلى محمد بن علي بن الحسين (الباقر) يدعو إلى الدخول في طاعته ، وقد جاء في ذلك الكتاب « أسلم تسلم وترتقى من سلم فإنك لا تدري حيث يجعل الله النبوة » . وقد انتهى أمر هذا الرجل بقتله . فقتله خالد بن عبد الله القسري ^(٣) .

ثم ظهرت فرقة الرزامية ، وهؤلاء يقولون بإمامة إبراهيم بن محمد بن علي (وهو الذي كان يدعو إليه أبو مسلم) .

(١) المرجع السالف ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) السيادة العربية لغان فلوتن ص ٨٢ - ٨٩ .

(٣) الشهرستاني ج ١ ص ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٠٥ .

ويهمنا من هذه الفرقة ناحيتان :

الناحية الأولى : أنها تدين بفكرة الحلول والتناسخ ، وهذه الفكرة مأخوذة عن الديانات القديمة التي كانت سائدة بينهم قبل الفتح الإسلامى كما تقدم .

والناحية الثانية : أن أبا مسلم الخراسانى زعيم الموالى وقائد ثورتهم الحاسمة ضد الدولة الأموية كان يدين بهذا المذهب حتى ليروى أن بعض أنصاره جعل له حظاً في الإمامة ، وادعى بأن روح الإله حلت فيه . وأنه بسبب ذلك قد أیده الله على بنى أمية ... ويدلنا هذا على أن الموالى كان لهم ضلع كبير في تغذية مثل هذه الفرق بالبدع والخرافات التي تتنافى مع المبادئ الأساسية للإسلام .

إلى غير ذلك من تلك الفرق الكثيرة التي ظهرت إبان العصرى الأموى وغيره من العصور ، والتي خلطت بين مبادئ الإسلام وبين غيره من الديانات القديمة فأوهنت من قوة ذلك الدين الجديد وزعزعت من كيانه المتين .

وبهذا يتبين لنا أن موقف العرب من الموالى ، وعصبية العرب ضدهم ، وتجاهلهم في العصر الأموى عن المبادئ الإسلامية التي تسوى بين العربى وغيره ؛ كان سلاحاً ذا حدين ، فهو قد دفع بالموالى في سبيل النبوغ العلمى فأفاد العلوم الإسلامية من ناحية نضوجها السريع وعمق بحثها ؛ واستيفاء دراستها وجمع ما تفرق منها ، وتطبيق قواعدها العامة في الحياة العملية بإصدار الفتاوى والأحكام .

ولكنه من ناحية أخرى أضربها ، إذ كان من الموالى طائفة إيمانها ضعيف وأغراضها سيئة أدخلت على الدين ما ليس منه ، فشوهت من جلاله ، وعكرت من بهجته وصفائه ، وأوجدت الفوضى والانقسام في صفوف أبنائه ، فانتشرت البدع والخرافات وظهرت الفرق الكثيرة التي تتشع بثوب الإسلام ، ولكنها تتجافى عن تعاليمه وتتفكر لمبادئه ، والتي هي في الواقع أشد ضرراً على الإسلام من سائر الملل والديانات الأخرى .

الفصل السادس

إرهاصات الشعوية

الشعور القوي للأعاجم يصطدم بالعصبية العربية — نشأة الشعوية —
العصبية العربية تقف أمام تيارها القوي — الشعوية بين العصرين الأموي والعباسي.

وضع العرب الموالي في مركز اجتماعي منحدر ، كما بينا ذلك فيما سبق . وكان لدى هؤلاء الموالي وعي جماعي ، أو ما يمكن أن نسميه بلغة العصر الحاضر بالشعور القومي فكانوا يذكرون أنفسهم بما كانت عليه أممهم قديماً من عز تالد ، ومجد عريق . وإذا ذاك جالت بأذهانهم أفكار خاصة عن أقدار الأمم وخصائصها . ووجدوا أن أممهم ليست دون الأمة العربية منزلة . فتكلموا عن فكرة المساواة بين أممهم والعرب وغلا فريق آخر بتفضيل الأعاجم عليهم . ودارت بين الكتاب في العصر العباسي مساجلات في هذا الصدد ، وهي تلك الحركة الأدبية التي تعرف باسم الشعوية .

ولم تظهر هذه الحركة الأدبية فجأة في العصر العباسي ، بل كانت لها مقدمات وتمهيدات نشأت في أواخر العصر الأموي إن لم يكن في خلاله . وهذه المقدمات أو الإرهاصات تعتمد على أساس نفسي يرجع إلى ما كان يشعر به الموالي من زراية وتحقير يؤذيان كرامتهم ، وهو يرجع أيضاً إلى نزعة قومية ثابوا إليها بعد أن استفاقوا من غمرة الفتح التي غمرهم بها ذلك الشعب الفاتح الجديد .

ولتوضيح ذلك نقول :

كانت البلاد التي فتحتها الإسلام تقف على درجات مختلفة من سلم الرقي والمدنية

ولكنها في مجموعها كانت في ميدان الحضارة أرسخ قدماً من الدولة العربية الفاتحة .
حتى لقد اعترف بذلك بعض العقلاء من العرب فقال : كان هذا الحى من العرب أذل
الناس ذلاً وأشقاه عيشاً ، وأبينه ضلالة ، وأعراه جلوداً ، وأجوعه بطوناً ، معكومين
على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم . لا والله ما في بلادهم يومئذ شىء يحسدون
عليه ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات ردى في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ،
والله ما نعلم قبلاً يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً وأدق فيها شأنًا منهم ،
حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فورثكم به الكتاب ، وأحل لكم به دار الجهاد ،
ووسع لكم به من الرزق وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس ^(١) .

ولئن كانت هذه الأمم المغلوبة قد أزعجها ما رأت من تلك القوة المفاجئة التي
انبعثت من شبه الجزيرة العربية فأخضعت الممالك الكثيرة ، فلقد خفف عنها إلى
درجة كبيرة ما جاء به الدين الإسلامى من مبادئ قومية تدعو إلى مكارم الأخلاق
وتعمل على إزالة الفوارق بين الأجناس وتمثل في الآية القرآنية الكريمة « إنما
المؤمنون أخوة » . ولكن لم يقض ذلك على عاطفتهم الوطنية ، ونزعاتهم القومية التي
ظلت محتبئة كامنة تتلمس الفرص للظهور .

ولم يلبث الخلفاء والولاة من المسلمين في العصر الأموى . بل لم تلبث الغالبية من
الاجتمع العربى في ذلك الوقت ، أن ابتعدت عن ذلك المنهاج الذى رسمه الدين
الإسلامى وأخذت تمحى إلى العادات القديمة الموروثة . وإذ ذاك تيقظت العصبية العربية
في نفوسهم وأصبحوا ينظرون إلى الأعاجم — من أسلم منهم ومن لم يسلم — نظرة
هى مزيج من البغض والاحتقار !!!

وفي الوقت نفسه لم تلبث العناصر الأعجمية أن عاودها الحنين إلى المجد القديم

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٠ ط ١٣١٦ هـ .

والسلطان المغتصب . فتنبهت في نفوسها النزعات القومية الكامنة وصارت تتلمس
الفرص وتتربص الدوائر .

وكان من الطبيعي أن تصطدم هذه النزعات القومية بتلك العصبية العربية .
وأن يكون بينهما صراع قوى عنيف ... وفي ظل هذا الصراع القوى العنيف نشأت
فكرة الشعوية .

وقد اعتمد أصحاب هذه الفكرة على القرآن الكريم والأحاديث النبوية
الصحيحة في تأييد دعواهم فطالبوا بالمساواة بين المسلمين من العرب والعجم ، وأعلنوا
أن الناس جميعاً من طينة واحدة وسلالة رجل واحد ، واحتجوا بقول الرسول صلى
الله عليه وسلم : المسلمون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . وهم يد على من
سواهم . وقوله في حجة الوداع وهي الخطبة التي ودع فيها أمته وختم نبوته : أيها الناس
إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء . كلكم لآدم وآدم من تراب ليس
لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى^(١) . واحتجوا أيضاً بقول الله تعالى في هذا المعنى
« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم »^(٢) .

وهذا الحزب الذي نادى في مبدأ الأمر بالتسوية بين الأجناس والأمم قد
انتهى إلى آراء متطرفة تذهب إلى تفضيل العجم على العرب ، وتغض عن شأن العرب
وترميهم بأنواع النقائص والمثالب^(٣) .

ولا شك أن الشعوية كنزعة مستقرة في نفوس الأعاجم ، أو في نفوس غالبيتهم
كانت موجودة منذ ابتداء الفتح الإسلامي لبلادهم . ويمكننا أن نقول إن مقتل
الخليفة ابن الخطاب كان أثراً من آثار هذه الشعوية الكامنة في نفوس هؤلاء الأعاجم
كما كانت كل الحركات التي يؤازرها الموالي في سبيل القضاء على الدولة الأموية

(١) الرد الفريد ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٣) دراسات إسلامية لجولز فيهر (الشعوية) ج ١ ص ١٤٧ . وتاريخ الفرس الأدبي

لبراون ج ٢ ص ٢٦٥ .

ترتكز على أساس من تلك الشعبية ، وسنرى عند الكلام على ثورات الموالى أن
الختار الثقفى حتما كان يحامل العرب يتألم الموالى ويسخطون ، وحينما كان يبدو منه
إعراض عن العرب يفرح الموالى وتطمئن نفوسهم^(١) . وهذا يدلنا بلا شك على نزعة
شعوبية مستقرة بين جنوبهم كانت تظهر حيناً وتختفى أحياناً تبعاً لتغير الظروف
والأحوال .

ونستطيع أن نلمح تلك النزعة الشعبية ، فى قصيدة ليزيد بن ضبة مولى ثقيف
وقد قالها يذكر ما فعله معه هشام بن عبد الملك حيث لم يحسن مقابلته ولم يكرم وفادته .
وربما كان هذا الصنيع من هشام قد حرك الأشجان الكامنة فى نفس يزيد فحن لبنى
جلده وافتخر بهم . فتراه يقول :

ألم تر أننا لما ولينا أموراً خرقت فوهت سدنا
رأبنا الفتق حين وهى عليهم وكم من مثله صدع رقانا
إذا هاب الكريهة من يليها وأعظمها الهيوب لها عمدنا
وجبار تركناه كليلاً وقائد فتنة طاع أزلنا
فلا تنسوا مواطننا فإننا إذا ماعد أهل الجرم عدنا
وما هيضت مكاسر من جبرنا ولا جبرت مصيبة من هددنا
ثم يقول :

وقد كان الملوك يرون حقاً لو افدنا فنكرم إن وفدنا
وليناس الناس أزماناً طوالاً وسسناهم ودسناهم وقدنا
وفى نهاية تلك القصيدة يقول :

ونكوى بالعداوة من بغانا ونسعد بالمودة من ودنا
نرى حقاً لسائلنا علينا فنحبوه ونجزل إن وعدنا

(١) راجع ص ١٠٨ ، ١٠٩ من الكتاب .

ونضمن جارنا ونراه منا ونرفده فنجزل إن رقدنا
وما نعتد دون الحمد مالا إذا يغلى بمكرمة أفدنا
وأتلد مجدنا أنا كرام بحمد المشرفية عنه ذدنا^(١)

ولكن الشعوية لم تبرز إلى الوجود في صورة مجادلات كلامية ، ومساجلات
أدبية نثرية وشعرية إلا في العصر العباسي الذي ازدهى فيه العنصر الأعجمي بالنصر
والغلبة .. والسبب في ذلك أن الأمويين كانوا يحاربون هذه النزعة ويصدونها في
عنف وشدة ، فإذا ما اجتراً أحد على المجاهرة بها أوقعوا به أقسى العقوبات وأشدّها .
فيروى عن إسماعيل بن يسار مولى بني تميم أنه دخل على هشام بن عبد الملك
في خلافته فاستنشدته فأنشد قصيدة يقول فيها :

إني وجدك ما عودى بذى خور عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلى كريم ومجدي لا يقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قوم بتاج الملك معوم
ججاجح سادة بلج مرازمة جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً والهرمزان لفخر أو لتعظيم ؟
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون في حلق الماذى سابغة مشى الضراغمة الأسد اللهاميم
هناك إن تسألى تنبى بأن لنا جرثومة قهرت عز الجرائم^(٢)

فغضب هشام وقال : أعلى تفتخر ؟ وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعالج
قومك ؟ غطوه في الماء . فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج . ثم أمر بإخراجه
وهو يشرب . ونفاه من وقته إلى الحجاز^(٣) .

(١) الأغاني ج ٦ ص ١٤١ و ١٤٢ ط السامى .

(٢) الظاهر أن إسماعيل بن يسار قد طافت بنفسه بعض الخواطر التي ذكرته بمجد آبائه
الأقدمين . فاستولت عليه نشوة أنسته أنه في حضرة خليفة أموى ..

(٣) الأغاني ج ٤ ص ١٢٤ . دراسات اسلامية لجولديزير (فصل مترجم عن الشعوية)
وكتاب تاريخ الفرس الأدبي لبراون ٢ / ٢٦٥ . وكتاب معاوية للاب لامنسى ص ٤٢٩ .

الفصل السابع

ثورات الموالي ونهاية الدولة الأموية (١)

انتهازم القرص ضد الدولة - ثورتهم مع المختار الثقفي - ثورتهم مع عبدالرحمن ابن الأشعث - الدعوة لآل البيت وتستمرهم في ظلالها - ثورتهم مع الحارث ابن سريج - العصية القبلية في خراسان - ثورة أبي مسلم الخراساني - نظرة سريعة في رقعة الممتلكات الإسلامية - أبو مسلم والقضاء على الدولة الأموية - الموالي في ظل الدولة العباسية (الجديدة) .

لم تكن العصية العربية وحدها هي التي حركت الموالي وجعلتهم يخرجون على الدولة الأموية فيمن خرج من سائر الأحزاب المعارضة . ولكن كان للشعور القومي والعصية الجنسية المتأصلة في نفوس هؤلاء الموالي نصيب كبير في تغذية هذه الحركات وتقويتها . ولقد وضع هذا المعنى لدى العرب منذ مقتل الخليفة ابن الخطاب رضي الله عنه إذ كانت هذه المأساة كإنذار وجهته الأعاجم إلى العرب . فابتدأ الفريقان منذ تلك اللحظة يودعان عهد الصفاء والمودة ، وأخذ ذلك الستار الجميل الذي أسدله الإسلام على النفوس ينكشف رويداً رويداً لكي تظهر من ورائه الأطماع الكامنة والحزازات القديمة .

(ولا شك أن المتتبع لحركات الموالي وثوراتهم . يلاحظ أنهم كانوا ينتهزون

(١) لا تقصد بهذا التعبير أنها ثورات للموالي فحسب . ولكنها ثورات اشترك فيها العنصران العربي والأعجمي ، وإنما اخترنا لها هذا الاسم لأن الموالي كانوا فيها غالبية . وكانت لهم من وراء الاشتراك فيها أغراض خاصة .

الفصل السابع

ثورات الموالي ونهاية الدولة الأموية (١)

انتهازم الفرص ضد الدولة - ثورتهم مع المختار الثقفي - ثورتهم مع عبدالرحمن ابن الأشعث - الدعوة لآل البيت وتستمر في ظلها - ثورتهم مع الحارث ابن سريج - العصبية القبلية في خراسان - ثورة أبي مسلم الخراساني - نظرة سريعة في رقعة الممتلكات الإسلامية - أبو مسلم والقضاء على الدولة الأموية - الموالي في ظل الدولة العباسية (الجديدة) .

لم تكن العصبية العربية وحدها هي التي حركت الموالي وجعلتهم يخرجون على الدولة الأموية فيمن خرج من سائر الأحزاب المعارضة . ولكن كان للشعور القومي والعصبية الجنسية المتأصلة في نفوس هؤلاء الموالي نصيب كبير في تغذية هذه الحركات وتقويتها . ولقد وضع هذا المعنى لدى العرب منذ مقتل الخليفة ابن الخطاب رضي الله عنه إذ كانت هذه المأساة كإنذار وجهته الأعاجم إلى العرب . فابتدأ الفريقان منذ تلك اللحظة يودعان عهد الصفاء والمودة ، وأخذ ذلك الستار الجميل الذي أسدله الإسلام على النفوس ينكشف رويداً رويداً لكي تظهر من ورائه الأطماع الكامنة والحزازات القديمة .

(ولا شك أن المتتبع لحركات الموالي وثوراتهم . يلاحظ أنهم كانوا يتجهزون

(١) لا قصد بهذا التعبير أنها ثورات للموالي خصب . ولكنها ثورات اشترك فيها العناصر العربي والأعجمي ، وإنما اخترنا لها هذا الاسم لأن الموالي كانوا فيها غالبية . وكانت لهم من وراء الاشتراك فيها أغراض خاصة .

الفرص كلما لاحت لهم في سبيل القضاء على الدولة الأموية (العربية) . وأنهم كانوا ينضمون لكل خارج على هذه الدولة ، وأن كثرتهم وقلتهم في تأييد تلك الأحزاب الخارجة كانت تتبع إلى حد كبير شخصية الداعي وحسن سياسته . كما سيتبين لنا فيما بعد ... ولكنهم على كل حال كانوا يفرحون ويتهجون بكل خروج على الدولة الأموية ، وذلك لأنهم كانوا يحقدون على الأمويين — بل على العنصر العربي بأكمله — ويرون أن تلك الحروب التي تقوم بين الأحزاب المختلفة من العرب ستؤدي حتماً إلى إضعاف الغالب والمغلوب وفي ذلك قوة ونجاح لهم .

فتراهم قد انضموا إلى عبد الله بن الزبير الخارج على الدولة وأيدوه في مطالبته بالخلافة ... ولكن ابن الزبير كان شحيحاً بالمال حتى على المقربين إليه والمتفانين في خدمته . وقد أظهر الزهد في الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة . وقال : إنما بطنى شبر فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا وأنا العائد بالبيت والمستجير بالرب . فلما رأى الموالي منه هذا الشح والتقتير نفروا منه وانصرفوا عنه وفي ذلك يقول بعضهم موجهاً خطابه إلى ابن الزبير :

إن الموالي أمست وهي عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزونا أي الملوك على ما حولنا غلبا
ويقول الضحاك بن فيروز الديلمي (وهو من الموالي) يندد بسياسة ابن الزبير
تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قضمته كما قضمت نار الغضى حطب السدر
فلو كنت تجزى أو تبیت بنعمة قريباً لردتكَ العطوف على عمرو^(١)

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٩٩ . وهو يشير بالبيت الأخير إلى ما وقع بين عبد الله ابن الزبير وأخيه عمرو . وذلك أن يزيد بن معاوية كان قد ولي الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة ، فسرح منها جيشاً إلى مكة لحرب ابن الزبير . عليه عمرو بن الزبير (أخوه) ، وكان عمرو منحرفاً عن عبد الله . فلما تصاف القوم انهزم رجال عمرو وأسلموه فظفر به أخوه عبد الله فأقامه للناس بباب المسجد مجرداً ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات . (المرجع السالف ص ٩٩ و ١٠٠) .

ونراهم كذلك يشتركون في حركات الخوارج ضد الدولة الأموية . حتى ليرى لنا المبرد أن الخوارج لما اختلفوا فيما بينهم على عهد عبد الملك بن مروان — وكان عبد الملك قد أرسل جيشاً بقيادة المهلب لمحاربتهم ، وترتب على هذا الاختلاف أنهم خلعوا قطرياً وولوا مكانه عبد ربه — انفصل إلى عبد ربه أكثر من الشطر وجلهم من الموالي والعجم . وكان هناك منهم ثمانية آلاف (١) .

ولكن الثورات التي كانت تتشع بثوب شيعة كانت تلاقى من الموالي تأييداً وتعصيماً أشمل وأعظم . ولعل السرفى ذلك أنهم كانوا — وغالبيتهم من الفرس — يؤمنون بنظرية الحق الملكى المقدس ، ويعتقدون أحقية العلويين بالخلافة ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، فهم من سلالة محمد بن عبد الله من جهة أمهم فاطمة بنت محمد وزوج على ، وهم من سلالة آل ساسان من جهة أبيهم شهربانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس حيث تزوجها الحسين بن على (٢) .

وسنحاول أن نتعرض في هذا الفصل لأهم الثورات التي اشترك فيها الموالي ضد الدولة الأموية ، وكانت لهم فيها أغلبية واضحة .

المختار الثقفى ونستطيع أن نقول إن حركة المختار بن عبيد الثقفى سنة ٦٦ هـ كانت أول حركة قوية استغلها الموالي لكي ينتقموا لأنفسهم ، ويحققوا مآربهم بإرجاع السيادة القومية وتحطيم السيادة العربية .

والمختار الثقفى رجل عربي مغامر جرىء ذو آمال ومطامع . التمس المجد والسلطان في كنف عبد الله بن الزبير فأخفق فولى وجهه شطر محمد بن الحنفية (٣) ينصره

(١) الكامل للمبرد ج ٣ ص ٢٢٨ ط الدجوني ، وقد ذكر المبرد بعض الأسباب لخلع الخوارج قطرياً وتولييتهم عبد ربه في ص ٢٢٧ و ٢٢٨ من المرجع السالف .

(٢) كتب في ذلك بتوسع الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ (العصر العباسى الأول) ص ١٤ و ١٥ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ج ٥ ص ٢١٧ .

وينشر دعوته ويطالب بثأر الحسين بن علي لكي يتمكن من الوصول إلى أغراضه ومطامعه^(١).

ولقد وجد الموالي فيه ضالتهم المنشودة فهم يشاركونه الحقد على الدولة الحاكمة ويرون أن الحرب التي تقوم بين العناصر العربية ستؤدي حتماً إلى إضعاف الغالب والمغلوب وفي ذلك قوة ونجاح لهم... وكذلك وجد المختار في هؤلاء الموالي ضالته المنشودة فهو يريد أن يصل إلى المجد والسلطان مهما يكن الثمن. وهو في سبيل ذلك يغير سلوكه واتجاهه من وقت لآخر؛ فلقد كان أيام مؤازرته لابن الزبير يكره الموالي ويستهزئ بهم^(٢)، ولكنه بعد انضمامه لابن الحنفية أصبح يتقرب إلى الموالي ويتظاهر أمامهم بالحب والإخلاص ويشركهم مع العرب في العطاء^(٣). وكان في بعض الأحيان يكاد يتناقض مع نفسه فإذا كان مع العرب تظاهر أمامهم بالحب والإخلاص حتى إذا ما عاتبه الموالي من أجل ذلك لم يلبث أن يتراجع ويعلمن غضبه وحقده على العرب. ويروى المؤرخون في هذا الصدد أن رجلاً من الموالي يدعى كيسان أبا عمرة، وكان على حرس المختار، قام ذات يوم فرأى الأشراف (أي من العرب) يتحدثون المختار وراه قد أقبل بوجهه وحديثه عليهم. فقال لأبي عمرة بعض أصحابه من الموالي: أما ترى أبا إسحاق قد أقبل على العرب ما ينظر اليه فعداه المختار فقال له: ما يقول لك أولئك الذين رأيتهم يكلمونك؟ فقال له وأسر إليه: شق عليهم — أصلحك الله — صرفك وجهك عنهم إلى العرب! فقال: قل لهم لا يشقن ذلك عليكم فأنتم مني وأنا منكم. ثم سكت طويلاً ثم قرأ «إنا من المجرمين منتقمون» فما هو إلا أن سمعها الموالي منه حتى قال بعضهم لبعض: أبشروا كأنكم والله به قد قتلهم^(٤).

(١) الدعاة من التألهين والمنتبهين والمتمهدين تأليف وجيه الكيلاني ص ٦٣.

(٢) اليباسي ج ٢ ص ١٠٧. (٣) الطبري ج ٧ ص ١٠٩.

(٤) اليباسي جزء ٢ ص ١٢٠ والطبري ج ٧ ص ١٠٩.

ولما رأى العرب منه أنه يقرب الموالي ويسويهم بهم في العطاء تفروا منه وتأمروا عليه ؛ فاجتمع أشراف الكوفة عند شت بن ربيع وشكوا إليه من سيرة المختار وإيثاره الموالي عليهم ودعوه إلى الوثوب فقال : حتى ألقاه وأعذر إليه . ثم ذهب إليه وذكر له جميع ما نكروه وذكر له شأن الموالي وشركتهم في الفء ؛ فقال : إن أعطيتموني عهداً بقتال بني أمية وابن الزبير تركتهم (١) .

وهذه النصوص المتقدمة توضح أن المختار كان يتلاعب بعقول العرب حيناً والموالي حيناً آخر في سبيل الوصول إلى أغراضه ومطامعه . ولقد تحدث المختار عن نفسه أخيراً وكشف اللثام عن حقيقة ثورته حيناً رأى الأعداء قد أحاطوا به وحيناً أيقن بالهلاك والفشل فيروى أن المختار لما طارده أعداؤه وتحصن بالكوفة ودخل قصر الإمارة أقبل مصعب بن الزبير حتى أناخ عليه وحاصره أربعين يوماً . ففلق المختار من هذا الحصار قلعا شديداً وقال للسائب بن مالك الأشعري — وكان من خاصته — : أيها الشيخ اخرج بنا لنقاتل على أحسابنا لا على الدين . فاسترجع السائب وقال : يا أبا إسحاق لقد ظن الناس أن قيامك بهذا الأمر دينونة (٢) . فقال المختار : لا لعمري ما كان إلا لطلب دنيا فإني رأيت عبد الملك بن مروان قد غلب على الشام ، وعبد الله ابن الزبير على الحجاز ، ومصعبا على البصرة ، ونجدة الحروري على العروص ، وعبد الله ابن خازم على خراسان ، ولست بدون واحد منهم ، ولكن ما كنت أقدر على ما أردت إلا بالدعاء إلى الطلب بثأر الحسين (٣) .

ولا يعني إن كان المختار قد أخفق في هذه الحركة وانفض عنه أنصاره وانتهى الأمر بقتله ولكن يعني أن أ كثرية جيش المختار كانت من هؤلاء الموالي كما صرح

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٤ .

(٢) يريد ظن الناس أن قيامك بهذا الأمر في سبيل خدمة الدين .

(٣) الأخبار الطوال للدينوري ص ٢٩٨ ، وكتاب الدعاء لوجيه السكيلائي ص ٦٣ .

بذلك الدينورى فى أكثر من موضع ، إذ يقول ^(١) : وكان أكثر من استجاب له همدان وقوم كثير من أبناء العجم الذين كانوا بالكوفة وكانوا يسمون الحمراء وكان منهم بالكوفة زهاء عشرين ألف رجل . ويقول فى موضع آخر ^(٢) : وأرسل المختار إبراهيم بن الأشتر لقتال عبد الملك بن مروان وانتخب له المختار عشرين ألف رجل وكان جلهم من أبناء الفرس الذين كانوا بالكوفة و يسمون الحمراء . ويقول فى موضع ثالث ^(٣) : قال بعض الناس لإبراهيم بن الأشتر قائد الجيش من قبل المختار : لقد اشتد غمى منذ دخلت عسكرك وذلك أنى لم أسمع فيه كلاماً عربياً حتى انتهيت إليك ؛ وإنما معك هؤلاء الأعاجم وقد جاءك صناديد أهل الشام وأبطالهم وهم زهاء أربعين ألف رجل فكيف تلقاهم بمن معك ؟ فقال إبراهيم : والله لو لم أجد إلا النمل لقاتلتهم بها فكيف وما قوم أشد بصيرة فى قتال أهل الشام من هؤلاء الذين تراهم معي وإنما هم أولاد الأساورة من أهل فارس والمرازمة وأنا ضارب الخيل بالخيول والرجال بالرجال والنصر من عند الله .

ولا يعنينا أيضاً إن كان الموالى قد فهموا نفسية المختار على حقيقتها وأدركوا أنه غير مخلص فى دعوته أم لم يدركوا ذلك فإنهم ناصروه لأنهم وجدوا فى حركته — كما قدمنا — متنفساً لهم فقاموا تحت ستارها يحاربون العصبية العربية ويحاولون الانتقام من العرب والأخذ بالثأر وإرجاع مجدهم القديم .

وجاءت بعد ذلك ثورة عبد الرحمن بن الأشعث وهو رجل عربى مغامر جرىء كان من المقربين للحجاج الثقفى ثم خرج عليه لأسباب لا محل لذكرها . ومنذ خرج ابن الأشعث على الحجاج أخذ يؤلب الناس ضده ويجمع الجموع لمحاربتة ^(٤) . . . ومن الطبعى أن الموالى بظروفهم التى تحدثنا عنها فيما مضى وجدوا

(١) الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٨٢ .

(٢) الدينورى ص ٢٨٦ ، براون ص ٢٣٤ .

(٣) الدينورى ص ٢٨٧ و ٢٨٨ و براون ص ٢٣٨ .

(٤) الدينورى ص ٣٠٦ و ٣٠٧ .

في هذه الثورة أيضاً ميداناً لإشباع رغباتهم وميولهم في عداء العرب عامة وفي الكيد للدولة الحاكمة بصفة خاصة .

وقد أجمعت المصادر على اشتراك الموالى في ثورة ابن الأشعث وأن جمهرة كبيرة منهم قد حاربت في صفوفه حتى لقد قيل إنه في دير الجماجم كان عددهم نحو المائة ألف^(١) . وقد ذهب كثير من المؤرخين إلى القول بأن الموالى قد آزرُوا هذه هذه الحركة لظروفهم الخاصة وإن لم يكونوا هم السبب في قيامها^(٢) بينما نرى فون كرىمر وفان فلوتن^(٣) يجعلان أساس الثورة هو محاولة الموالى الخروج على الحجاج الذى فرض عليهم من الالتزامات المالية والقيود الاجتماعية ما جعلهم أحط من العرب وما ضيع عليهم الثمرة المرجوة من إسلامهم .

وقد تصدى فلهوزن في كتابه الدولة العربية وسقوطها للرد على فون كرىمر حيث قال: « حقيقة كانت لهم مصلحة خاصة في معاداة حكومة الشام ولكنهم كانوا في الدرجة الثانية فقط فالحركة لم ترتفع منهم بل من الجيش العراقى في سجستان الذى ضم إليه الجيوش الأخرى من الأقاليم الأخرى »^(٤) .

ونحن نؤيد هذا الرأى ونرى أن حركة ابن الأشعث قد اصطبغت في أساسها بعوامل نفسية شخصية بين رجل من سلالة ملوك كندة جعلته الظروف مرءوساً ، ورجل عصامى نشأ من أسرة خاملة بالطائف جعلته الظروف رئيساً .

ومهما يكن من شىء فقد اشترك الموالى في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج والدولة الأموية ، وكانت هذه الثورة ذات أثر كبير في إضعاف الحكومة القائمة ، وهى وإن فشلت في النهاية بالقضاء على ابن الأشعث سنة ٨٥ هـ إلا أنها أيقظت الآمال في نفوس الأحزاب المعارضة فاستسلموا للهدوء حيناً من الدهر ريثما تحين لهم الفرصة

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٥ وعقد الجمان للعيني ج ١١ م ٣ ص ٣٢٢ ، وابن كثير ج ٩ ص ٤١ .

(٢) ابن الأثير في كامله ج ٤ ص ٢٢٥ وتاريخ الفرس الأدبى لبراون ص ٢٣٤ .

(٣) السيادة العربية ص ٤١ و ٤٢ . وقد كتب في ثورة ابن الأشعث بتوسع الأستاذ محمود زيادة في رسالته عن الحجاج .

(٤) الدولة العربية وسقوطها لفلهوزن ص ١٥٢ و ١٥٣ .

المناسبة والجو الملائم . ولقد جاء بعد ذلك عهد عمر بن عبد العزيز فكان — كما قدمنا — عهد إنصاف وعدالة شاملين وفيه شعر الموالي بأن حقوقهم المهضومة أو على الأقل معظمها قد رد إليهم فكانت تلك السياسة — سياسة اللين والتسامح — مثيرة لأطماعهم ، ولما جاء خلفه ولم يسر بسيرته كان رد الفعل شديداً وإذ ذاك قام الموالي بحملة قوية لمناهضة السيادة العربية تحت ستار الدعوة لآل البيت النبوي . ولقد ابتدأت الدعوة لآل البيت ، أو الدعوة العباسية منذ سنة ١٠٠ هـ كما تذكر ذلك المصادر المختلفة^(١) .

وقد حاول الدعاة العباسيون جلب الشيعة العلويين إلى صفوفهم فأظهروا أن غايتهم هي قلب الحكومة القائمة والقضاء على الخلافة الأموية ، ولم يكن يظهر منهم ما يشعر بأنهم يطلبون الخلافة لأنفسهم ، فلم تكن تؤخذ البيعة باسم العباسيين بل كانت تؤخذ لشخص غير معين من آل البيت رمزوا إليه بالرضا من آل محمد .

ولقد بزغت هذه الدعوة في الكوفة^(٢) . ثم انتقلت بعد زمن يسير إلى إقليم خراسان ، وهو في الواقع أصلح مكان يمكن أن ينمو فيه هذا المولود الجديد وتتكامل قوته . فلقد كانت خراسان بوضعها الجغرافي بعيدة عن المركز الرئيسي للخلافة . وكانت تتجلى فيها أكثر من غيرها روح السخط والعداء للدولة الأموية وذلك لغلبة العنصر الأعجمي فيها على العنصر العربي^(٣) . وكان سكانها مزيجاً من قبائل وأمم مختلفة وهذه القبائل والأمم على اختلافها تتفق في كراهية الأمويين وعدائهم :

« أ » — ففيها من أسلم رغبة في الإسلام ، وهؤلاء كانوا يحقدون على الأمويين لتجافيتهم عن مبادئ الإسلام في بعض الأحيان .

« ب » — وفيها من أسلم طمعاً في الامتيازات التي نادى بها الإسلام وأهمها المساواة ، وهؤلاء خاب ظنهم حينما رأوا الأمويين لا يطبقون تلك المبادئ .

(١) الطبري ج ٨ ص ١٣٥ وغيره من المراجع في حوادث سنة ١٠٠ هـ .

(٢) يذكر المقدسي (ج ١ ص ٥٩) أن أول من استجاب لهذه الدعوة أربعة نفر من الكوفة ... ثم أمروا ببيت تلك الدعوة في خراسان .

(٣) فلهوزن ص ٤٩٣ .

« ج » — وفيها من حافظ على دينه الأصلي ، وهؤلاء كانوا ينتهزون الفرصة
لإيقاد دينهم .

ولعل مما يوضح لنا صلاحية خراسان لتلك الدعوة الجديدة تلك الكلمة المنسوبة
لمحمد بن علي والتي يروون أنه قالها لدعاته حينما وجههم إلى خراسان . وسواء أصبحت
هذه الكلمة أم لم تصح فهي على الأقل توضح لنا الوضع الحقيقي للأمصاير المختلفة
بالنسبة لهذه الدعوة .

قال : أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده . وأما البصرة وسوادها فغيمانية .
تدين بالكف^(١) وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة
فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام
فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهلا متراكما .

وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان فإن هناك
العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم
يتوزعها الدغل وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب
(يشير إلى شجاعتهم) وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة^(٢) .
وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق^(٣) .

وهكذا كانت خراسان حقلا خصيبا أفرخت فيه الدعوة وانتشرت مبادئها
حتى تشبعت النفوس وامتلات بكراهية الأمويين وغدت البلاد كالهشيم المتراكم
المتهيئ للاشتعال . وقد انتهز هذه الفرصة رجل من الغامرين يدعى الحارث بن
سريج فقام بثورة قوية سنة ١١٦ هـ^(٤) وانضم إليهم من الموالى عدد كبير . وقد قام

(١) أى بالكف عن القتال والاشتراك فيه . (٢) إشارة إلى التذمر .

(٣) الهمداني — كتاب البلدان — ص ٣١٥ ط ليدن

(٤) ذكر صاحب النجوم الزاهرة هذه الثورة في حوادث سنة ١١٥ هـ ج ١ ص ٢٧٤ ط دار
الكتب وذكرها الطبري في تاريخه ، وابن الأثير في كتابه الكامل في حوادث سنة ١١٦ هـ .

يدعو إلى العمل بالكتاب والسنة والرجوع إلى قواعد الاسلام ومحاربة الأمويين
لظلمهم واستبدادهم^(١) وغايته هي الوصول إلى السلطان واشتغل بالتمويه على الناس
وتضليلهم . لكي يتيسر له هذا السبيل .

فلقد ذكر المؤرخون أن الحارث بن سريج كان يظهر للناس أنه صاحب الرايات
السود وأنه الخلفاء المنتظر^(٢) . فأرسل إليه نصر بن سيار^(٣) : إن كنت كما تزعم .
وأنكم تهدمون سور دمشق وتزيلون أمر بني أمية ، فخذ مني خمسمائة رأس ومائتي
بعير ، واحمل من الأموال ما شئت وآلة الحرب وسر . فلعمري لئن كنت صاحب
ما ذكرت إنا لفي يدك ، وإن كنت لست ذلك فقد أهلكت عشيرتك ، فقال
الحارث : قد علمت أن هذا حق ولكن لا يبايعني عليه من صحبني (ومعنى ذلك
أنه لا بد لي من التمويه عليهم حتى أ كسب قلوبهم إلى جانبي) . فقال نصر :
فقد استبان أنهم ليسوا على رأيك . ولأهم مثل بصيرتك ، وأنهم هم فساد
ورعاع . فاذا كر الله في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن سيهلكون فيما بينكم .
وعرض نصر على الحارث أن يوليه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف فلم
يقبل^(٤) .

ومن ثانيا النص السالف نلمح قوة الحارث بن سريج وآماله الواسعة العريضة .
ويكفي أن الوالي الأموي يحاول أن يسترضيه بشتى الوسائل لكي يأمن جانبه
فلا يستطيع .. ولعل الذي يدل على مدى قوته ماروي من أن نصراً والحارث تناظرا

(١) الدولة العرية وسقوطها لفلهوزن ص ٤٦٥ .

(٢) كانت العناصر الساخطة على الدولة كثيراً ما تتعلق بأمل خلاص . هو ظهور مخلص لها
ينقذها مما تعانيه من المظالم .. ونظن أن الموالى الذين كانت تقع عليهم أ كثر التكاليف دون أن
يتمتعوا بنفس الحقوق التي يتمتع بها العرب قد تعلق قلوبهم بهذه الآمال .

(٣) وإلى خراسان من قبل الأمويين .

(٤) الطبري ج ٩ ص ٦٧ والعيني ج ١٢ م ١ ص ٦٥ .

ثم رضيا بالتحكيم . فحكم بينهما مقاتل بن حيان وجهم بن صفوان . وكان حكمهما أن يعتزل نصر ويكون الأمر شورى^(١) .

فلو كان نصر يترجح عنده الفوز بالولاية عند استشارة الناس لقبل هذا الحكم ونزل عند هذا الرأي منعاً للنزاع وحقناً للدماء !!

ولقد انتهت هذه الحركة بعد جهاد طويل بمقتل الحارث بن سريج سنة ١٢٨ هـ^(٢) ولكن يعيننا منها أن جمهرة كبيرة من الموالي قد انضمت إليه ، وجاهدت لتحقيق غايتها تحت لوائه^(٣) . ويعيننا أيضاً أن هذه الحركة قد فرقت صفوف العرب فجعلتهم ينقسمون بين مؤيدين ومعارضين في جو مليء بالأناية والعصبية القبلية^(٤) . وإذا ذاك شعر الموالي أن الآمال المرجوة تدنو منهم فازداد نشاطهم في سبيل القضاء على عدو أوهنه المرض وأحاطت به الأسقام والعلل .

وجاءت بعد ذلك ثورة أبي مسلم الخراساني وهي الحركة الفاصلة في حياة الدولة الأموية وتتميز عن غيرها من الحركات السابقة بأن بطلها وقائدها ليس من عنصر عربي^(٥) وبأنها كانت أقوى الحركات التي قامت ضد الدولة الحاكمية وبأن الموالي كانوا فيها أقوى وأكثر منهم فيما سبق ذلك من ثورات وحركات .

(١) الطبري ج ٩ ص ٦٧ .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٧٣ ، وعقد الجمان للعيني ج ١٢ م ١ ص ٦٤ .

(٣) راجع الطبري ج ٨ ص ٢١٩ - ٢٢١ .

(٤) راجع عقد الجمان للعيني ج ١٢ م ١ ص ٦٤ .

(٥) تنوزع في أمر أبي مسلم فمن الناس من رأى أنه كان من العرب ومنهم من رأى أنه كان عبداً فأعتقد . وكان من قرية يقال لها « خرطيسية » وهي من أعمال الكوفة وسوادها وكان قهرماناً لإدريس بن إبراهيم الجعفي ثم آل أمره إلى أن اتصل بمحمد بن علي ثم بإبراهيم بن محمد الإمام فأنفذه إبراهيم إلى خراسان وأمر أهل الدعوة بإطاعته والاقبياسد لأمره ورأيه أقوى أمره وظهر سلطانه (مروج الذهب للمسعودي جزء ٢ ص ٢٠١ والدينوري في كتابه الأخبار الطوال ص ٣٢٢ يذكر أنه عربي وكذلك ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٢ مطبعة الوطن) .

وستحدث في كلمة قصيرة عن حالة العرب في خراسان وقت قيام تلك الثورة
لنرى كيف كان الجو المحيط بالموالى ملائماً لمثل هذه الحركات الهدامة العنيفة .

لقد تعرضنا في ثانياً الفصول السابقة للعصبية التي كانت تقوم بين القبائل المختلفة
من وقت لآخر فتعمل عملها في إضعاف القوة العربية وتوهين بنائها المتين . ولقد حمل
العرب معهم هذه العصبية في كل مكان كانوا يحلون به أو ينتقلون إليه، وكان سلوك
الولاة من العرب الذين يتولون الحكم في الأقاليم المختلفة يزيد في إشعال هذه العصبية
ويقوى خطرها ، فإذا ما تولى الأمور تسمى مثلاً واسبى أهله وعشيرته وترك غيرهم ،
وإذا ما تولى يمتن إلى قبيلته بالمعونة وغمرها بالامتيازات وأهل الآخرين .

ويروى لنا المؤرخون في ذلك أخباراً كثيرة نكتفي منها بذكر بعض أمثلة
ما حدث في خراسان لكي نرى كيف كانت عوامل الهدم والإفناء تتجمع في هذا
الإقليم لكي تهدد الصرح الأموي بالزوال والانهدام .

فيروى أنه لما تولى بكير بن وشاح على خراسان اختلف عليه بطون بني تميم وأقاموا
في العصبية له وعليه سنتين . وخاف أهل خراسان أن تفسد البلاد ويقهرهم العدو
فكتبوا إلى عبد الملك بذلك . وأنها لا تصلح إلا على يد قرشي^(١) .

وتولى خراسان المهلب بن أبي صفرة وآله عهداً طويلاً ، وهم أزد يون (يمانيون) ،
فكانوا يمدون اليمانين بمالهم وجاههم إلى درجة لا يقاس بها غيرهم . حتى ليرى أن
وكيلاً ليزيد بن المهلب باع بطيخاً ليزيد جاءه من بعض أملاكه بأربعين ألف درهم
فغضب يزيد حينما بلغه ما صنع وكيله وقال له : أما كان في عجائز الأزد من تقسمه
فيهن^(٢) .

وكان أسد بن عبد الله القسري في ولايته على خراسان يتعصب حتى أفسد الناس

(١) ابن خلدون جزء ٣ ص ٤٠ . (٢) ابن خلدون جزء ٣ ص ٢٦٥ .

وضرب نصر بن سيار بالسياط وعبد الرحمن بن نعيم وسورة بن أبجر والبختري بن أبي درهم وعامر بن مالك وغيرهم وسيرهم إلى أخيه « بالعراق » وكتب اليه أنهم أرادوا الوثوب بي ، فلامه خالد وعنفه وقال : هلا بعثت برءوسهم ^(١) ! .

وأخيراً تولى خراسان نصر بن سيار وكان مضريراً فكث أربع سنين لا يستعمل في خراسان إلا مضريراً ^(٢) . ومن أجل ذلك فقد ساءت العلاقات بين القبائل المختلفة الموجودة في خراسان إلى درجة تنذر بالخطر البالغ والشر المستطير .

ولقد ظهر أبو مسلم الخراساني وسط هذا الجو الموبوء بالخلافات والاضطرابات فوجد الفرصة سانحة للإلقاء بذور القوضى وشن الغارة على أعدائه ؛ فقام بالدعوة لآل البيت وهو يخفي من ورائها الآمال والمطامع ويعمل على إرجاع المجد الفارسي القديم والنيل من العرب تحت ذلك الستار الخادع البراق ... ستار الدعوة لآل البيت .

وكان من الطبيعي أن يسارع الموالي وهم في هذا الإقليم أ كثرية وغالبية إلى الانضواء تحت راية ذلك الزعيم القوي الذي عرف كيف يدير السفينة وسط هذه الأمواج المتلاطمة ، وكيف يستغل العواصف الجائحة فيوجهها لمصلحته ويجعلها أساس خير لحركته ..

فلقد كان بخراسان قبائل ربيعة ومضر واليمانية وكذلك العجم . وكانت تلك القبائل العربية كثيراً ما تختلف فيما بينها ولكنها كانت تجتمع على كراهية الأعاجم . وقد استطاع أبو مسلم بمهارته أن يغمر بتلك القبائل العربية فوسع هوة الخلاف والشقاق بينها لكي يقيم على أنقاض هذا الخلاف قوته الكبيرة ... ومن ذلك أنه وقع خلاف على عهد الخليفة مروان آخر الخلفاء الأمويين بين المضرية واليمانية . وكان السبب في ذلك أن جديعاً بن علي المعروف بالكرماني كان سيد من بأرض

(١) ابن خلدون جزء ٣ ص ٨٧ .

(٢) الأخبار الطوال للدينوري ص ٣٣٤ ، وابن خلدون ج ٣ ص ٩٧ .

خراسان من اليمانية . وكان نصر بن سيار (المضري) متعصباً على اليمانية مبغضاً لهم فكان لا يستعين بأحد منهم .. وعادى أيضاً ربيعة لميلها إلى اليمانية^(١) . وكان على رأسها شيان الحرورى . وقد وقعت حرب عنيفة بين أنصار نصر وأنصار الكرماني قتل فيها عدد كبير من الفريقين^(٢) وهنا تدخل أبو مسلم بأساليبه السياسية الفاتكة لكي يصطاد في الماء العكر كما يقولون .

وذلك أنه حينما استيقن أن كلا الفريقين قد أئخن صاحبه جعل يكتب الكتب إلى شيان — من الربيعة — ثم يقول للرسول : اجعل طريقك إلى المضرية فإنهم سيعرضون لك ويأخذون كتبك . فكانوا يأخذونها فيقرأون فيها : إني رأيت أهل اليمن لا وفاء لهم ولا خير فيهم فلا تثقن بهم . ولا تطمئن إليهم فإني أرجو أن يريك الله ما تحب ولئن بقيت لا أدع لهم شعراً ولا ظفراً^(٣) . ويرسل رسولاً آخر في طريق آخر بكتاب فيه ذكر المضرية وإطراء اليمن بمثل ذلك حتى صار هوى الفريقين جميعاً معه . وجعل يكتب إلى كل من نصر بن سيار والكرماني — على فرط ما بين الفريقين من عداوة — إن الإمام قد أوصاني بكم ولست أعدو رأيه فيكم . وكتب إلى الكور بإظهار الأمر فكان أول من سود فيما ذكر أسيد بن عبد الله بنسا وسود معه مقاتل بن حكيم وابن غزوان . وسود أهل أبيورد وأهل مرو والروز وقرى مرو^(٤) وأقبل أبو مسلم حتى نزل بين خندق نصر بن سيار وخندق جديع الكرماني وهابه الفريقان وكثر أصحابه . فكتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد يعلمه حال أبي مسلم وخروجه وكثرة من معه ومن تبعه . وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد وختم كتابه بتلك الأبيات المشهورة :

أرى بين الرماد وميض جمر فأحجج بأن يكون لها ضرام

(١) الدينورى ص ٣٢٤ (٢) الطبرى جزء ٩ ص ٩١ والعيني جزء ١٢ م ١ ص ١١١ .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٩٢ . (٤) الطبرى ٩٢/٩ ومروج الذهب للمسعودى ٢٠١/٢ .

فإن النار بالعودين تذكي وإن الحرب مبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري أليقظ أمية أم نيام
فإن يقظت فذاك بقاء ملك وإن رقدت فإني لا ألام
فإن يك أصبحوا وثووا نياماً فقل قوموا فقد حان القيام
فقرئ عن رحالك ثم قولي على الإسلام والعرب السلام^(١)

فلما وصل كتابه إلى مروان كتب إلى معاوية بن الوليد بن عبد الملك وكان عامله
على دمشق ومروان حينئذ بمدينة حمص يأمره أن يكتب إلى عامله بالبقاء أن يسير إلى
الحميمة^(٢) فيأخذ إبراهيم بن محمد بن علي فيشده وثاقاً ويرسل به إليه ، وكان إبراهيم
ابن محمد قد أرسل إلى أبي مسلم خطاباً يرد فيه على كتاب أرسله أبو مسلم إليه وقد قال
إبراهيم في ثنايا هذا الخطاب بعد كلام طويل :

دونك أمراً قد بدت أشرطه إن السبيل واضح صراطه
لم يبق إلا السيف واختراطه^(٣)

فأتى إبراهيم إلى مروان فلما دخل عليه قال : ماهذه الجوع التي خرجت بخراسان
تطلب لك الخلافة ؟ قال له إبراهيم : مالي بشيء من ذلك علم فإن كنت إنما تريد
التجني علينا فدونك وما تريد ثم بسط لسانه على مروان فأمر به فحبس ثم قتل بعد
زمن يسير^(٤) .

ولما قتل إبراهيم بن محمد خاف أخواه أبو جعفر وأبو العباس على نفسيهما فخرجا

(١) الطبري ٩/٩٢ ، وعقد الجمان للعيني ج ١٢ م ١ ص ٨٥ ، والبيتان الرابع والخامس في
الدينوري ص ٣٤٠ والبيت الأخير في المسعودي ج ٢ ص ٢٠٢ .
(٢) قرية بالقرب من العقبة إلى الجنوب من البحر الميت .
(٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٢٠٥ .
(٤) الأخبار الطوال للدينوري ص ٣٤١ ، ومروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٢٠٥ .

من الحميمة هارين نحو العراق . ولما بلغ أبا مسلم قتل ابرهيم وهرب أخويه إلى العراق واستخفاؤهما بالكوفة عند أبي سلمة أحد أنصار هذه الدعوة سار من خراسان حتى قدم الكوفة ودخل عليهما فعزاهما بأخييهما ابرهيم الإمام . ثم قال لأبي العباس : مد يدك أبايعك . فمد يده فبايعه . وقد أوصاه أبو العباس ألا يدع بخراسان عربياً لا يدخل في أمره إلا ضرب عنقه^(١) .

ثم انصرف أبو مسلم إلى خراسان ، فجعل يدورها كورة كورة ، ورستاقا رستاقا ، فيواعدهم اليوم الذي يظهرون فيه ، ويأمرهم بتهيئة السلاح والدواب لمن قدر^(٢) .

وأما نصر بن سيار فإنه لما أعتته الحيل في أمر الكرمانى وخاف من إطباق أبي مسلم عليه بقوته كتب إلى يزيد بن عمرو بن هبيرة الفزارى - عامل مروان على العراق - يستمده ويسأله النصرة على عدوه وضمن كتابه أبياتاً من الشعر فقال :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تبينت أن لا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها بيضا لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها يلهن نيران حرب أيما لهب^(٣)

ولما أبطأ على نصر الغوث وضاق به الأمر كتب إلى مروان يبين له أن هذا الأمر الذى أزعمه من تلك الدعوة الجديدة سينمو حتى يملأ البلاد وضمن ذلك أبياتاً من الشعر وهى :

إنا وما نكتم من أمرنا كالثور إذ قرب للنخاع

(١) الاخبار الطوال للدينورى ص ٣٤١ و ٣٤٢ وتعجبنى هذه الرواية من الدينورى أكثر من الروايات الأخرى التى تقول : « وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل » . فانه لا يعقل أن يأمره بقتل جميع العرب مع أن منهم أنصاراً لهم .

(٢) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٤٢ .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٩٢ ومروج الذهب للسعودى ج ٢ ص ٢٠٣ . والدينورى يذكر تلك الأبيات بتغيير يسير على أنها موجهة لمروان لا ليزيد ، ص ٣٤٢ .

أو كالتى يحسبها أهلها عذراء بكرأ وهى فى التاسع
كنا نرفيها فقد مزقت واتسع الخرق على الراقع
كالثوب إذ أنهج فيه البلى أعيا على ذى الحيلة الصانع (١)

وكما قدمنا كانت الأخطار المحدقة بنصر بن سيار عامل الأمويين لا تقتصر على جانب أبى مسلم فحسب ، بل إن الخلاف القبلى كان يلعب دوره الخطير ، وكان أبو مسلم يستغل هذا الخلاف لخدمة أغراضه ومآربه . ولقد فزع نصر حينما رأى تلك الدسائس التى يقوم بها أبو مسلم لإذكاء الفتنة بين القبائل العربية وإغراء العداوة والبغضاء بينهم ، فكتب إلى قبائل ربيعة يحذرهما من التفرق والخلاف ويشجعهما على التعاون والتضامن قائلاً :

أبلغ ربيعة فى مرو وإخوتها أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجاج عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلمكم ممن تأشب لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم ولا صميم الموالى إن هموا نسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلى عن أصل دينهمو فإن دينهمو أن تقتل العرب

... ولكن سموم الفرقة والانقسام كانت قد سرت فى القبائل العربية فلم تحفل ربيعة بهذه الأبيات (٢) .

ولما وجد نصر أن نار الفرقة والانقسام بين العرب تنمو وتشتد ، وأن قوة أبى مسلم تزداد وتعظم ما بين لحظة وأخرى ، وأدرك أن الخطر واقع لاريب فيه بعث

(١) المسعودى ج ٢ ص ٢٠٤ والعينى ج ١٢ م ١ ص ٨٥ ، وفى الدينورى ص ٣٤٢ بتغيير يسير .

(٢) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٤٤ .

إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر^(١) «وهي الهيئة الحاكمة إذ ذاك». ومن العجيب أن ربيعة وقحطان أرسلتا إلى أبي مسلم بمثل ذلك. وقد تراسلوا بذلك أياماً. فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين حتى يختار أحدهما ففعلوا. وأمر أبو مسلم الشيعة أن يختاروا ربيعة وقحطان فإن السلطان في مضر، وهم عمال مروان الجعدى. وهم قتلة يحيى بن زيد، فقدم الوفدان. فكان وفد مضر عقيل بن حسان الليثي، وعبد الله بن عبد ربه الليثي، والخطاب بن محمد السلمي في رجال منهم. وكان وفد قحطان عثمان بن الكرمانى، ومحمد بن المثني، وسورة بن محمد بن عزيز الكندى في رجال منهم. فأمر أبو مسلم عثمان بن الكرمانى وأصحابه فدخلوا بستان المحتفز وقد بسط لهم فيه قفعدوا. وجلس أبو مسلم في بيت في دار المحتفز وأذن لعقيل ابن معقل وأصحابه من وفد مضر فدخلوا إليه ومع أبي مسلم في البيت سبعون رجلاً من الشيعة، فقرأ على الشيعة كتاباً كتبه أبو مسلم ليختاروا أحد الفريقين، فلما فرغ من قراءة الكتاب قام سليمان بن كثير فتكلم وكان خطيباً مفوها فاختار على بن الكرمانى وأصحابه، وقام أبو منصور طلحة بن رزيق النقيب فيهم وكان فصيحاً متكلماً فقال كمقالة سليمان بن كثير، ثم قام فريد بن شفيق السلمي فقال: مضر قتلة آل النبي (صلى الله عليه وسلم) وأعوان بنى أمية وشيعة مروان الجعدى ودمائنا في أعناقهم وأموالنا في أيديهم.. ونصر بن سيار عامل مروان على خراسان ينفذ أموره، ويدعوله على منبره ويسميه أمير المؤمنين، ونحن من ذلك إلى الله براء، وأن يكون مروان أمير المؤمنين، وأن يكون نصر على هدى وصواب، وقد اخترنا علياً بن الكرمانى وأصحابه من قحطان وربيعة. فقال السبعون الذين جمعوا في البيت بقول مزيد بن شفيق. فنهض وفد مضر عليهم الذلة والكآبة. ووجه معهم أبو مسلم القاسم بن مجاشع في خيل حتى بلغوا مأمنهم. ورجع وفد على بن الكرمانى مسرورين

(١) الطبرى ج ٩ ص ٩٧.

منصورين . وأمر أبو مسلم الشيعة أن يبتنوا المساكن ويستعدوا للشتاء فقد أعفاهم الله من اجتماع كلمة العرب ، وصيرهم (أى وصير العرب) بنا إلى افتراق الكلمة ، وكان ذلك قدراً من الله مقدوراً^(١) .

ومن ثنایا النص السالف تتجلى لنا مهارة أبي مسلم السياسية ، وقدرته على انتهاز الفرص ، واستغلال الظروف ، وهذا بلا شك هو أهم العوامل في نجاح حركته وفشل أعدائه ، كما تتجلى لنا أيضاً قوة أبي مسلم وكيف وصل به الأمر إلى حد أن العرب بقبائلها المختلفة أصبحت تتملقه ، وتحاول أن تجتذبه إليها .

والذى يهمنا من ثورة أبي مسلم أنه كان للموالى ضلع كبير في قوتها وشدة فتكها ويكفى أن نقباء الدعوة العباسية — وهى دعوة عربية — كان عددهم اثني عشر فكان منهم خمسة من الموالى وسبعة من العرب^(٢) .

وكان أهالى خراسان من السكان الأصليين يتسابقون إلى تأييد أبي مسلم ونصرته لأنه منهم ولأن غايته تتفق مع أغراضهم ، وتوافق هوى في نفوسهم ، وفي هذا يقول الدينورى : « وانجفل الناس على أبي مسلم من هراه ، ويوشنج ، ومرو الروز ، والطالقان ، ومرو ، ونسا ، وأبيورد ، وطوس ، ونيسابور ، وسرخس ، وبلخ ، والصغانيان ، والطخارستان ، وختلان ، وكش ، ونسف .. فتوافوا جميعاً مسودى الثياب وأقبلوا فرساناً وحماراً ورجالة يسوقونها ويزجرونها هم مروان يسمونها مروان ترغياً لمروان بن محمد . وكانوا زهاء مائة ألف رجل »^(٣) .

ويدلنا على قوة العنصر الأعجمي في ثورة أبي مسلم أن قحطبة وهو أحد الدعاة لبني العباس قد نسي أو تناسى جنسيته كعربي فخطب في أهل خراسان ، في إحدى

(١) الطبرى ج ٩ ص ٩٨ .

(٢) عقد الجمان للعيني ج ١٢ م ١ ص ١٢٤ و ١٢٥ .

(٣) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٤٣ .

حروبهم ضد الأمويين ، خطاباً يرفع فيه من شأن الفرس ويغض من قيمة العرب
إذ يقول :

يا أهل خراسان . هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين وكانوا ينصرون على عدوهم
لعدلهم وحسن سيرتهم . حتى بدلوا وظلموا فسخط الله عز وجل عليهم فانتزع سلطانهم
وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم واستنكحوا
نساءهم واسترقوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون
المظلوم ، ثم بدلوا وغيروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا أشد
عقوبة لأنكم طلبتموهم بالثأر . وقد عهد إلى الإمام أنكم تلقونهم في مثل هذه العدة
فينصركم الله عز وجل عليهم قهزموهم وتقتلونهم^(١) .

ومهما قيل في أمر هذه الخطبة وفي الدافع إليها فإن أقل ما تشير إليه هو غلبة
العنصر الأعجمي في ذلك الجيش . إذ لا يعقل أن تكون غالبية الجيش من العرب ،
ثم يواجههم قحطبة بمثل هذا الكلام .

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول إن الحالة في خراسان وقت ثورة أبي مسلم
كانت قد بلغت حداً كبيراً من الفوضى والاضطراب ، وإن جرائم الضعف والانحلال
كانت قد سرت في السكبان العربي في ذلك الإقليم فاكتمسب أعداء الدولة الأموية
من هذا الضعف قوة كبيرة ضاعفت من حماسهم وأذكت من ثورتهم حتى وصلت إلى
هذه الدرجة الخطيرة ، وحتى صارت منبعاً لثورة جارفة تخطت حدود خراسان لكي
تغزو العدو في أكثر من ميدان ..

ولعل هذا يقتضينا أن نلقي نظرة سريعة على رقعة الدولة الإسلامية في ذلك الحين
لكي نرى هل كانت عوامل الفوضى والاضطراب مقصورة على خراسان أم أن الأقاليم
الأخرى كانت على استعداد لقبول هذا الانقلاب وتأيينه ؟

(١) الطبري ج ٩ ص ١٠٦ .

لقد كانت رقعة الدولة الإسلامية في ذلك الحين قد أصابتها الفتوق ودب إليها
البلى والفساد من جراء السياسة الأموية ، والخلافات القبلية ، والتيارات المتعارضة
التي تنبعث دائماً من أنانية الأفراد والجماعات .. !!

فالخوارج قد قاموا بثورات عنيفة أقضت مضجع الدولة وشملت كثيراً من
جهاتها ، إذ كانوا يرون أن الأمويين مفرطون في حقوق البلاد بعيدون عن جوهر الدين
الإسلامي وحقيقته . ولذا فإنهم أعلنوا الحرب والجهاد ضدهم واستمر هذا الحرب
والجهاد ضد الأمويين منذ أعلن الخوارج رأيهم بعد موقعة صفين إلى أن كانت نهاية
الدولة الأموية ! .

ولقد أعلن أبو حمزة الخارجي رأيهم والسبب الدافع لهم على عدااء الأمويين .
فقال حينما هاجم المدينة سنة ١٣٠ هـ وفر منها على أثر هجومه عامل الأمويين عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك : « يا أهل المدينة . سألناكم عن ولائكم هؤلاء فأستم لعمر
الله فيهم القول . وسألناكم : هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم لنا : نعم . وسألناكم : هل يستحلون
المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم لنا : نعم . فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نناشدكم الله
إلا تنحوا عنا وعنكم فقلتم : لا يفعلون . فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم فقلتم لنا :
لا نقوى . فقلنا لكم : فخلوا بيننا وبينهم فإن نظفر نعدل في أحكامكم ونحملكم على
سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم فيئكم بينكم فأيتهم وقاتلتمونا دونهم فقتلناكم فأبعدكم
الله وأسحقكم » .

ثم يعلن بعد ذلك عزمه على مقاومة الأمويين والضرب على أيدي مناصريهم
فيقول : « وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحقكم الله عز وجل
بعذاب من عنده أو بأيدينا ، ويشف صدور قوم مؤمنين » ^(١) .

وهذا الخطاب يدلنا على قوة الخوارج كحزب معارض ، ويدلنا كذلك على أن

(١) الطبري ج ٩ ص ١٠٨ .

شعور الساميين بالمدينة لم يكن في صف الأمويين ، وأن الأمويين كثيراً ما كانوا يتجاوزون حدود الدين ويرتكبون الآثام والمنكرات ، وأن المسلمين أو غالبيتهم كانوا إذا حاربوا في صفوف الأمويين فإنما يحاربون بسيفهم لا بقلوبهم ... !!

وفي الشمال الأفريقي قامت ثورة البربر سنة ١٢٣ ، وكانت ثورة عنيفة جارفة بقيادة ميسرة أحد مشاهيرهم . وكان السبب في ذلك هو سوء تصرف الولاة الأمويين إذ فرضوا على كل طنجة الجزية على من أسلم منهم وعاملوهم معاملة تتنافى مع الكرامة كما يشير إلى ذلك الطبري إذ يقول : إن بضعة عشر من البربر وعلى رأسهم ميسرة قدموا على هشام بن عبد الملك فطلبوا الإذن فلم يسمح لهم فأتوا الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجندده فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال هم أحق به . فقلنا هو أخلص لجهادنا لأننا لا نأخذ منه شيئاً إن كان لنا فهم منه في حل وإن لم يكن لنا لم نرده . وقالوا إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وآخر جندده . فقلنا تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى إخوانه فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم . ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء البيض لأمر المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد . فقلنا ما أيسر ذلك لأمر المؤمنين فاحتملنا ذلك . وخليناهم وذلك ..

ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا : هذا ليس في كتاب ولا سنة — ونحن مسلمون — فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ قال الأبرش : نفعل . فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء وقالوا : هذه أسماؤنا وأنسابنا فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه ...

ثم كان وجههم إلى أفريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على أفريقية وبلغ هشام الخبر وسأل عن النفر فرفعت إليه أسماؤهم فإذا هم الذين جاء الخبر أنهم صنعوا ما صنعوا .

ولقد قام مسلمو البربر في نفس الوقت بثورة في الأندلس ضد العرب ، وذلك لما رأوه من معاملة العرب الشاذة البعيدة عن روح المساواة والعدالة . . فإن البربر — كما هو معلوم — قد أبلوا في فتح الأندلس أحسن البلاء وتحملوا أشد الأعباء . ولكنهم على الرغم من ذلك لم ينالوا حظهم المعقول من الجزاء .. فلقد أجحف بهم العرب واعتبروهم في منزلة أقل من منزلتهم فأعطوهم الأقاليم المجذبة الوعرة في الشمال حيث الأخطار والأهوال ، وحيث فلول الأعداء تتجمع وتتحصن في تلك الجبال ، بينما استأثر العرب بالمقاطعات الغنية الخصيبة البعيدة عن تلك الأخطار والأهوال ، لذلك أقاموا بتلك الجهات مرغمين يتحينون الفرص للحصول على حقوقهم وحررياتهم كاملة غير منقوصة . حتى إذا ما انتهوا من عملية الفتح وابتدأوا يستقرون بتلك البلاد ، شرعوا في مناصبة العرب العداء ، وزاد من حماسهم نجاح ثورة إخوانهم التي قامت في الشمال الإفريقي سنة ١٢٣ هـ ، وقد اعتنقوا مبدأ الخوارج حيث كان هو المبدأ الذي صادف هوى في نفوسهم لتعاليم الديمقراطية^(١) . فقام مؤنس أحد قواد طارق بن زياد وأشعل ثورة قوية عمت الولايات الشمالية ؛ حيث توجد الأعداد الهائلة من البربر فهاجموا مجموعة من المدن الشمالية وأخرجوا من بها من العرب سنة ١٢٤ هـ . ثم زحفوا جنوباً للهجوم على طليطلة وقرطبة ، وفوجئ عبد الملك بن قطن القهري والى الأندلس بنفلول العرب وقد تملكهم الذعر من هول ما أصابهم من البربر . فأعد جيشاً وأرسله للقضاء على تلك الثورة ولكنه باء بالفشل والهزيمة ، فاستعان بجند الشام الموجودين بسبته ، وبعد صراع عنيف بين الطرفين بالقرب من طليطلة هزم البربر . ولكنهم تركوا وراءهم جرحاً لا يندمل وفتقاً لا يرتق . فإن الأحقاد الكامنة في الصدور كانت تنتهز الفرص للأخذ بالثأر والتمتع بالحرية الكاملة التي طبعت عليها نفوسهم^(٢) .

(١) أخبار مجموعة ص ٤٢ . فتح الاندلس لابن القوطية ص ١٣ . البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٠ . فليب حتى فصل ٣٤ . نهاية الحكم الاسلامي بالأندلس للإستاذ نصار .

وفي مصر قام الأقباط بثورات عنيفة من جراء السياسة الأموية التي كانت تقسو بهم . فلقد زاد عبيد الله بن الحبحاب — متولى الخراج من قبل هشام — عليهم قيراطاً في كل دينار ، فلم يصبر القبط على ذلك ، وقاموا بثورة عنيفة . وكانوا لا يزالون هم السواد الأعظم . وقد حاربهم المسلمون وقتلوا منهم عدداً كبيراً^(١) . وكانت آخر ثورتهم تلك الثورة التي حدثت في ولاية عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير اللخمي سنة ١٣٢ هـ . وقد تمكن هذا الوالي من إخماد تلك الثورة ، بعد أن قتل عدداً كبيراً منهم^(٢) .

وهكذا كانت الممتلكات الإسلامية تغلى بالفتن ، وتموج بالأحقاد والضغائن . وهذه الأحوال المعقدة في سائر أقاليم الدولة الإسلامية ، كانت هي طريق الأمل وباب الخير لدى أبي مسلم وأصحابه ، بينما كانت من العوامل الرئيسية في إخفاق أعدائه . وليس من المهم لدينا بعد أن صورنا حالة خراسان ، وحالة الممتلكات الإسلامية بصفة عامة ، ورأينا كيف كانت تلك الممتلكات وقد أثقلتها المتاعب وتهدمت فيها الروح المعنوية حتى أنها لتكاد تفتح ذراعيها لاستقبال المنقذ والمخلص .. أقول ليس من المهم لدينا بعد هذا أن نتبع أبا مسلم في كل خطواته وحركاته ، ولكننا نقف برهة قصيرة عند معركة الزاب — وهي المعركة التي قامت بين الخراسانيين والأمويين في جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ وكانت هي الفاصلة في حياة الدولة الأموية — فنرى الجيش الأموي أكثر عدداً ولكنه أضعف روحاً وأوهن عزيمته من الجيش الخراساني الذي كان يشتعل حماساً وقوة^(٣) . ونرى العصبية القبلية قد أطلت برأسمها البغيض وسط الجيش الأموي فأوهنت كيانه وبنياه .. ومكنت منه عوامل الدمار والانهيار .

(١) الولاة والقضاة للكندي ص ٧٣ .
(٢) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ١ ص ٣١٦ ط دار الكتب الملكية . ويلاحظ أن الأقباط ليسوا من الموالى وإنما تعرضنا لثورتهم بمصر لكي نعطي للقارىء صورة واضحة عما كان يسود الممتلكات الإسلامية من اضطرابات وقلقل وإن كان بعضها ليس من الموالى .
(٣) ذكر الفخرى لابن طباطبا ص ١٠٦ ما يدل على قوة الروح المعنوية لدى الخراسانيين وضعفها عند الأمويين .

ويصور لنا مدى تلك العصبية القبلية في الجيش الأموي ما يرويه الطبري أن الخليفة مروان — حينما التقى الجمعان — قال لقضاة: انزلوا . فقالوا : قل لبني سليم فلينزلوا . فأرسل إلى السكاسك أن احملا . فقالوا : قل لبني عامر فليحملا . فأرسل إلى السكون أن احملا . فقالوا : قل لطفان فليحملا . فقال لصاحب شرطه : انزل . قال : لا والله ما كنت لأجعل نفسي غرضاً . قال : أما والله لأسوأئك . قال : وددت والله أنك قدرت على ذلك^(١) .

وقد انضم إلى هذا التفرق والتخاذل في صفوف الأمويين ، أن الحروب المتعددة التي كانت تنشب من وقت لآخر بين الأمويين والأحزاب المختلفة ، والتي أشرنا إليها في مواضع متعددة من هذا الكتاب ، كانت من أهم العوامل في إضعاف الجيش الأموي وتقويض دعائمه .. ولذا فإن هذه الموقعة قد انتهت بهزيمة الجيش المرواني العربي ، وانتصار الجيش الخراساني ..

ومهما يكن من شيء فقد فر مروان إلى مصر على أثر هذه الهزيمة الساحقة حيث لحقه أعداؤه فقتلوه بقرية بوصير^(٢) وإذ ذاك توارى العلم الأموي الأبيض بعد أن مرزقه أعاصير الفتن .. وارتفع العلم العباسي الأسود يزهر بقوته وشبابه .. وقام أبو العباس (السفاح) وقد غرق في نشوة من النصر والظفر ممسكا بإحدى يديه بردة الخلافة ، وممسكا بيده الأخرى سيف البطش والانتقام .. وابتدأ المجتمع الإسلامي في مجموعه يشعر بأن الأمانى المعسولة ، والآمال المرجوة التي كان يتعلق بها قد ذهبت أدراج الرياح ، حتى قال محمد ذو النفس الزكية : « لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا . فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم . وإن الحجة على بني العباس لأوجب

(١) الطبري ١٣١/٩ وقد ذكر الفخري ص ١٠٦ ما يقرب من هذه الرواية .

(٢) قرية بالقرب من الفيوم وفي مصر سبع قرى تشترك في هذا الاسم (قاموس الأمكنة

والبقاء للاستاذ على بهجت) .

منها عليهم .. ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر^(١) .

وحتى قال الآخر :

يا ليت ظلم بنى مروان دام لنا يا ليت عدل بنى العباس فى النار

ومن الخير لنا أن نتساءل الآن عن الموالى . وهم الذين جاهدوا فى سبيل
القضاء على الأمويين وكافحوا من أجل هذا الغرض ذلك الكفاح الطويل الذى
تجلى لنا فى صور مختلفة ، وألوان متنوعة . فنقول : هل حقق الموالى أهدافهم التى

كانوا يقصدونها من ذلك الكفاح الطويل ؟ حتى انقضى العصر العباسى

لا شك أن هدفهم الكامل الذى يتمنونه ويسعون إليه ، إنما هو القضاء على
السيادة العربية ، واسترجاع المجد القديم والسلطان المغتصب ، وإقامة دولة أعجمية
فى مظهرها وحقيقتها . . . ولكنهم على كل حال قد فازوا بالكثير من آمالهم . وقطعوا
شوطاً بعيداً فى سبيل النجاح . . . فالخلفاء العباسيون مقتنعون بأن الفرس قد ساهموا
فى بناء دولتهم بأوفى نصيب . حتى أن داود بن على - عم أبى جعفر المنصور - يخطب
فيقول : يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاه الله لنا
شيعتنا أهل خراسان ؛ فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ،
وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوقون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيض
به وجوهكم . وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام^(٢) الخ .

وأبو جعفر المنصور يخطب فى أهل خراسان فيقول : يا أهل خراسان . أنتم شيعتنا
وأنصارنا وأهل دعوتنا^(٣) . ويوصى ولده المهدي قبل وفاته فيقول : وانظر مواليك
فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك .. وأوصيك

(١) الأغاني ١٠/١٠١ . (٢) الطبرى ج ٩ ص ١٢٧ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٢٤١ .

بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك . ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن سيئهم . وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده ^(١) .

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي يعترف فيها العباسيون بحمائل الأعاجم وحسن بلائهم . ولذا وجد العباسيون أنفسهم مضطرين إلى رد هذا الجميل الذي قام به هؤلاء الأعاجم ، فأسلموا إليهم زمام الأمور ، وأفسحوا أمامهم المجال ، وفتحوا بين أيديهم أبواب الأمل ، فبعد أن كانت الوظائف الكبرى أيام الأمويين مقصورة على العرب وكان الموالي لا ينالون من وظائف الدولة إلا النزر اليسير . . . سما بهم الحظ أيام العباسيين حتى أصبح منهم الولاة والوزراء .

فأبو مسلم الخراساني يصير والياً على خراسان ، ويصبح له من القوة والنفوذ ما يزعج الخليفة العباسي ويقض مضجعه ، حتى ليروى في هذا الصدد أن الخليفة أبا العباس (السفاح) وجه أخاه أبا جعفر المنصور إلى خراسان وأمره أن يأتي أبا مسلم فيناظره في بعض الأمور ووجه معه ثلاثين رجلاً من وجوه القواد ، وفيهم الحجاج بن أرطاة الثقفي ، وإسحاق بن الفضل الهاشمي . فلما قدم المنصور على أبي مسلم لم يبالغ أبو مسلم في بره وإكرامه ، ولم يظهر السرور التام بقدمه . فانصرف إلى أبي العباس وقال : لست بخليفة مادام أبو مسلم حياً ، فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك ، فقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ، ومثله لا يؤمن غدره ونكته . فقال أبو العباس : وكيف يمكن ذلك ومعه أهل خراسان ، وقد أشرب قلوبهم حبه واتباع أمره وإيثار طاعته ؟ فقال أبو جعفر : فذاك والله أخرى ألا تأمنه فاحتل له . فقال أبو العباس يا أخي اضرب على هذا ولا تعلمن رأيك في ذلك أحداً ^(٢) .

(١) الطبري ج ٩ ص ٣١٩ .

(٢) الأخبار الطوال للدينوري ص ٣٥٦ .

كما يروى أن أبا العباس قال يوماً للحجاج بن أرطاة — وقد خلا به — : ما تقول في أبي مسلم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول في كتابه : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . فقال أبو العباس : أمسك لقد فهمت ما أردت ^(١) .

بل لقد بلغ من عظم نفوذه وقوة سلطانه أنه كان ينفذ آراءه ضد رغبات الخليفة والخليفة كاظم غيظه لا يستطيع حيلة ولا يجد سبيلاً . ومن ذلك أن أبا مسلم وجه محمد ابن الأشعث بن عبد الرحمن أميراً على فارس ؛ ورأى أبو العباس أن يستعمل عليها عمه عيسى بن علي ، فعقد له عليها وأمره بالمسير إليها . فلما قدم عيسى على محمد ابن الأشعث أبي أن يسلم إليه ؛ فقال له عيسى : يا ابن الأشعث . ألت في طاعة الإمام أبي العباس ؟ قال : بلى . غير أن أبا مسلم أمرني ألا أسلم العمل إلى أحد من الناس . قال عيسى : فإنما أبو مسلم عبد للإمام وإن الإمام لا يرضى أن يرد أمره . قال محمد : دع عنك هذا . لست أسلم العمل إليك إلا بكتاب أبي مسلم ؛ فانصرف عيسى إلى أبي العباس فأخبره بذلك فكظم وأمر عمه بالمقام عنده فأقام ^(٢) .

ويقول السيوطي : إن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب . وكثر ذلك بعده حتى زالت رئاسة العرب وقيادتها ^(٣) .

ويروى الطبري أن المنصور كان له خادم ماهر لا بأس به . فقال له المنصور يوماً : ما جنسك ؟ قال : عربي يا أمير المؤمنين . قال : ومن أي العرب أنت ؟ قال :

(١) المرجع السالف ص ٣٥٦ .

(٢) المرجع السالف ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ . ويلاحظ أنه لا يعكر على قضيتنا (وهي إثبات قوة نفوذ الموالى في هذا العصر العباسي) ما وقع من قتل أبي جعفر المنصور لأبي مسلم . . ونكبة الرشيد للبرامكة . إلى غير ذلك . فإن مثل هذه الحوادث كانت تخضع لظروف كثيرة أهمها مغالاة هؤلاء الموالى في إضعاف نفوذ الخلفاء ، ومحاولتهم سلب السلطة من أيديهم فكان الخلفاء يضطرون إلى القيام بمثل هذه الأعمال حتى لا يفلت الزمام كله من قبضتهم .

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي .

سبيت من اليمن فأخذني عدو لنا فجنى فاسترقت فصرت إلى بعض بني أمية ثم صرت إليك . قال : أما إنك نعم الغلام . ولكن لا يدخل قصرى عربى يخدم حرى . أخرج عافاك الله فاذهب حيث شئت ^(١) .

ويروى أن الشاعر العربى أبا نخيلة وقف على باب أبي جعفر واستأذن فلم يصل ، وجعلت الخراسانية تدخل وتخرج قهزاً به فيرون شيخاً أعرايياً جلفاً فيعشون به . فقال له رجل عرفه : كيف أنت يا أبا نخيلة ؟ فأنشأ يقول :

أصبحت لا يملك بعضى بعضا تشكو العروق الآبضات أبضا
كما تشكى الأزجى الفرضا كأنما كان شبابى قرضا
فقال له الرجل : وكيف ترى ما أنت فيه فى هذه الدولة ؟ فقال :

أكثر خلق الله من لا يدري من أى خلق الله حين يلقى
وحلة تنشر ثم تطوى وطيلسان يشتري فيغلى
لعبد عبد أو لمولى مولى يا ويح بيت المال ماذا يلقى ^(٢)

ولا شك أن هذه النصوص السالفة توضح لنا كيف انقلبت الأوضاع وتبدلت الأحوال ، وكيف تغير الوضع الاجتماعى للموالى فرجحت كفتهم وارتفعت منزلتهم بعد أن كانوا — أيام الأمويين — يلاقون ألواناً مختلفة من العنت والازدراء .

ولقد تولى الوزارة — وهى أرق مناصب الدولة — من الموالى عدد كبير ، فتولاها على عهد السفاح ، أبو سلمة الخلال مولى بنى الحارث بن كعب ، ثم تولاها خالد بن برمك جد البرامكة . وقد بلغ حظوة كبيرة لدى الخليفة ، وكان مقصد ذوى الحاجات فكثروا وافدون على بابيه ، ومدحه الشعراء ، وانتجعه الناس . وكان الوافدون قبل ذلك يسمون سؤالا . فقال خالد : إنى أستقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء . وفيهم الأشراف

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣١٦ ، ٣١٧ . ومهما كان الدافع للمنصور على إخراجهم من قصره فإن هذه القصة تشير إلى تغلغل العنصر الأجنبى حتى فى أخص الأشياء بالخليفة .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ١٤٨ ، ط الساسى .

من خولان . والأكابر فسماهم الزوار . وكان خالد أول من سماهم بذلك . فقال له بعضهم : والله ما ندرى أى أياديك عندنا أجل ؛ أصلتنا ؟ أم تسميتنا ^(١) ؟ .

وفي مدحه قال بشار بن برد :

أخالد لم أهبط عليك بحاجة سوى أننى عاف وأنت جواد
أخالد بين الأجر والحمد حاجتى فأيهما تأتى فأنت عماد
فإن تعطنى أفرغ عليك مدأحى وإن تأب لم يضرب على سداد
ركابى على حرف وقلبي مشيع وما لى بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد
وقد منحه خالد بعد أن سمع هذه الأبيات جائزة كبيرة ^(٢) .

وقد كتب بعض الشعراء إلى خالد بن برمك في يوم (نوروز) وقد أهدى الناس إلى خالد هدايا فيها جامات من فضة وذهب :

ما على خالد بن برمك فى الجو د نوال ينيله بعزير
ليت لى جام فضة من هدايا ه سوى ما به الأمير مجيزى ^(٣)

وفي عهد أبى جعفر المنصور تولى الوزارة من الموالى أبو أيوب سليمان المورىانى ثم أبو الفضل الربيع بن يونس وكانا ذوى نفوذ كبير ^(٤) .

وهكذا ظلت الوزارة تنتقل فيهم ، أو ظلوا هم ينتقلون فى الوزارة ؛ حتى جاء عهد الخليفة الرشيد . فأسندت الوزارة إلى يحيى بن خالد البرمكى . وقال له هرون حينما قلده الوزارة : « قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى » . ودفع إليه خاتمه ^(٥) .

(١) الفخرى لابن طباطبا ص ١١٤ ، وفى كتاب الوزراء والكتاب للجيشيارى ص ١١٠ بتغيير يسير . (٢) الأغانى ج ٣ ص ٤٩ ، ط الساسى . وورد فى بعض الطبقات « أخالد لم أخبط إليك بذهمه » أى لم أسر إليك لطلب معروفك متوسلا بعهد (٣) الفخرى ص ١١٤ . (٤) المرجع السالف من ص ١٢٨ إلى ص ١٣١ . (٥) الطبرى ج ١٠ ص ٥٠ .

وقد بلغ يحيى بن خالد من بعد الصيت وعظم الجاه ما جعله منتجع الرواد ومقصد ذوى الحاجات . وفي ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

إذا بلغتنا العيس يحيى بن خالد أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر
سمت نحوه الأبصار منا ودونه مفاوز تغتال النياق بها السقر
فإن نشكر النعمى التى عمنا بها فحق علينا ما بقينا له الشكر^(١)

بل لقد بلغت أسرة البرامكة درجة من المجد والسلطان يتضاءل دونها مجد الخليفة وسلطانه . فلقد انغمسوا فى الرفاهية والترف ، وامتلكوا الضياع والقصور ، ونافسوا الخليفة فى مظاهر الأبهة والعظمة ؛ حتى ليروى أن جعفر البرمكى بنى داراً أنفق عليها عشرين مليوناً من الدراهم^(٢) بل لقد غلبوه على أمره ؛ حتى أنه طلب مرة من يحيى ابن خالد مليون درهم — وكان قد ورد من فارس ستة ملايين من الدراهم — فلم يجب طلبه . ثم أخذ يحيى مليوناً ونصفاً وفرقها فى عماله^(٣) .

ولعل أصدق ما يصور لنا ذلك النفوذ العظيم هو ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته إذ يقول : إن البرامكة قد غلبوا الرشيد على أمره وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ؛ فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم^(٤) إلخ .

ومن ثانياً ما تقدم نستطيع أن نتبين مدى النفوذ الواسع الذى كان ينعم به الموالى فى ظل الدولة العباسية ، كما نستطيع أن نقارن ذلك بحالتهم فى العصر الأموى لكى نرى البون الشاسع والفارق الكبير . . . !

وإذا كنا قد ذكرنا فيما سبق أن الشعبية كان لها فى العصر الأموى إرهاصات ومقدمات ، فإنها الآن قد تنفست الصعداء ، إذ أصبح الأدباء والكتاب

(١) الوزراء والكتاب للجيشيارى ص ١٣٦ .

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٨٢ .

(٣) الوزراء والكتاب للجيشيارى .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ١٦ و ١٧ .

من الموالى يعبرون عن آمالهم وأمانهم ، ويفتخرون بقوميتهم وجنسياتهم في جو طليق بعيد عن القسوة والاضطهاد الذى كان يحيطهم به الأمويون . فالصوت الشعبى الذى كان ينبعث من مثل اسماعيل بن يسار فيقابل من هشام بن عبد الملك بالعقاب الصارم^(١) أصبح الآن ينبعث من بشار بن برد أمام الخليفة المهدى فلا يعاقبه .

فيروى أن بشار بن برد افتخر بالعجم أمام الخليفة المهدى قال :

ونبتت قوما بهم جنّة يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيها السائل جاهداً ليعرفنى أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قریش العجم
فيسأله المهدى : من أى العجم أنت ؟ فيقول : من أكثرها في الفرسان وأشدها
على الأقران أهل طخارستان^(٢) .

ثم لا يلبث بشار أن يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

I أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم مولى العريب فجد بفضلك فاخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعّال ومن قریش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر^(٣)
بل نراه أيضاً يدعو الموالى إلى نبذ ولائهم للعرب . فيروى الأغاني أن رجلاً من بنى زيد قال لبشار : يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الأصل . فقال بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ولقرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه^(٤) .

(١) راجع ص ١٠٣ من الكتاب .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٢١ ، ط الساسى . وطخارستان بضم الطاء والراء كجاضبها ابن خالكان فى

ترجمة بشار ، وضبطها ياقوت بفتح الطاء .

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٢٢ الطبعة السالفة . (٤) الأغاني ج ٣ ص ٥٠ .

وقال بعض العرب لبشار : ما للموالى والشعر ؟ فقال يهجو العرب :

خليلى لا أنام على اقتسار ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب غني وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع بنى الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح شركت الكلب فى ولغ الإطار^(١)
ترىغ^(٢) بخطبة كسر الموالى وينسيك المكارم صيد فار
مقامك بيننا دنس علينا فليتك غائب فى حر نار
وفرك بين خنزير وكاب على مثلى من الحدث الكبار^(٣)

وهكذا نرى ذلك التيار الشعبى القوى يتخذ سبيله بين الأدباء والكتاب مستنداً إلى ذلك النفوذ الكبير الذى أصبح للعصر الأعجمى فى هذا العصر العباسى^(٤).

وإذا كان الموالى فى العصر الأموى قد وضعوا أساساً ضخماً فى بناء العلوم الإسلامية فإنهم فى العصر العباسى قد عملوا على إتمام هذا البناء.

وقد عقد ابن خلدون فصلاً فى مقدمته بين فيه أن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من الأعاجم، فقال : « كان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى فاكتمبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم ؛ وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ؛ وكان علماء أصول الفقه

(١) من معاني الاطار ، ماحول البيت فعله المراد هنا ، وأن الكلب يلف فى المياه الرائدة حول الدور

(٢) ترىغ بالغين تريد وتطلب وهو المناسب لسياق الكلام .

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٣٣ ، ط السامى . (٤) راجع مفاخرات الشعوبين فى كتاب البيان

والتيبين للجاحظ ج ٣ ص ٢٧ وما بعدها ، وكتاب العقد الفريد ج ٢ ص ٦٠ - ٦٣ .

كلهم عجا — كما يعرف — وكذلك حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين ؛ ولم يتم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم . وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس^(١) .

وعقد ابن النديم في كتابه « الفهرست » فصلاً خاصاً^(٢) جعل عنوانه أسماء النقلة من الفارسي إلى العربي .. ومن يقرأ هذا الفصل ثم يتجول بعد ذلك في الفصول المختلفة لذلك الكتاب ، يلاحظ ذلك النشاط العلمي الفائق الذي بذلته العناصر الأعجمية في تدعيم الثقافة الإسلامية وتقويتها .

ويتجلى لنا مما تقدم أن الموالى قد وصلوا في ظل الدولة العباسية إلى تحقيق الكثير من أغراضهم وأهدافهم ؛ فهم فوق نفوذهم المادى قد وصلوا إلى مجد أدبى كبير كان ثمرة لنبوغهم الفكرى وتفوقهم العلمى .

على أن هناك طائفة من الموالى كانوا قد أسلموا ولما يدخل الإسلام في قلوبهم ، وهؤلاء كان لهم غرض سى^٥ هو تشويه الإسلام وإفساد مبادئه الحكيمة . وقد نجحوا في تحقيق أغراضهم إلى حد كبير فظهرت تلك الفرق التى تسترت بالإسلام وهى بعيدة وغريبة عنه ؛ وقد ابتدأ ظهور هذه الفرق إبان العصر الأموى ، ثم أفرخت في العصر العباسى وتنوعت . وكانت عامل هـدم وتقويض في بناء الإسلام الحصين^(٣) . وقد صاحب ذلك ظهور عدد من الموالى عرفوا بالمجون والزندقة والتجافى عن مبادئ الدين ، أمثال حماد عجرد ، ووالبة بن الحباب ، وعبد الله بن المقفع وغيرهم^(٤) .

وإذا كان الموالى قد جنوا تلك الثمرات الطيبة في ظلال العباسيين فإن نفوسهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٥ - ٦٣٧ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٣٤١ و ٣٤٢ .

(٣) راجع كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى من ص ٣٩ إلى ص ٥٤ (مطبعة المعارف) .

(٤) راجع كتاب تاريخ الإلحاد فى الاسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٤٠ وما بعدها .

قد تطلعت إلى ما هو أسمى من ذلك فظهرت في بعض الأقاليم نزعات انفصالية يمكن أن تعد إلى حد ما حركات قومية ترمي إلى إعادة الدولة الفارسية القديمة ، فالصفاريون والسامانيون والزيديون في طبرستان قد أحيوا العادات والتقاليد الفارسية^(١)؛ واصطنعوا أساليب الفرس في الحكم . بل استردت اللغة الفارسية مركزها السابق ، وبرزت إلى الوجود مستفيدة من غمرة الفتح العربي الذي أخفاها حيناً من الدهر . فصرنا نسمع بالفردوسي صاحب « الشاهنامه » وبغيره من شعراء الفرس . ولما جاءت الأسرة الصفوية في القرن السادس عشر جعلت التشيع ديناً رسمياً للدولة الفارسية الحديثة ، واتخذ الفرس من مأساة كربلاء التي حدثت في عهد يزيد بن معاوية عيداً دينياً يحتفلون به كل عام في العاشر من المحرم في حفل تمثيلي رائع يخرج فيه لمشاهدون عن طورهم ويفتكون أحياناً بالقائمين بدور قتلة الحسين^(٢) .

ولعلنا بعد أن عرضنا تلك الصورة الخاطفة لبعض الثمرات التي اكتسبها الموالي من الدولة العباسية ، على أثر جهادهم الشاق الطويل ؛ نستطيع أن نقول — بشيء من التسامح — إنهم قد وجدوا في ظلال العباسيين ما يجده المتخبط في صحراء مجلبة تعصف بالسموم إذا أسلمته الأقدار إلى واحة جميلة تجري من تحتها الأنهار ، وتتعانق فيها الأزهار والثمار ..

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه .

(٢) تاريخ فارس للسير برسي سيكس الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٠ ج ١ ص ٥٤٠ . وقد ذكرنا في ص ١٠٧ من الكتاب كيف اعتنق الفرس مبدء التشيع .

خاتمة

الآن وقد لفظت الدولة الأموية نفسها الأخير، وواراها أعداؤها تحت أطباق الثرى، ثم عادوا فأقاموا على أنقاضها دولة جديدة، نرى من الحق علينا أن نكون في موقف الحكم المنصف بين العرب والموالى، وأن نقضى القضاء العادل بقدر ما نستطيع بين فريقين متخاصمين تعارضت أهدافهما، واختلفت وجهة كل منهما، وانتهى الصراع بينهما إلى انهيار فريق وانتصار الفريق الآخر.

ومن الخير لنا إذن أن نقف على الشاطئ القريب لكى نشهد ذلك الصراع العنيف بين تيارين قويين: تيار العصبية العربية ممثلاً في الدولة الأموية، وتيار العصبية الأعجمية ممثلاً في الموالى من سائر الممالك التى فتحها الإسلام.

وقد رأينا أن العصبية العربية قد تنبّهت فى نفوس المسلمين منذ مقتل الخليفة ابن الخطاب رضى الله عنه لأسباب تحدثنا عنها، وأن تلك العصبية ظلت تتجه فى طريقها الإيجابى منذ ذلك الحين؛ وإذا ذلك تغير الوضع الاجتماعى للموالى، وساءت حالهم، وانحدرت منزلتهم فى نفوس إخوانهم المسلمين من العرب، وكان هذا الوضع الاجتماعى المنحدر سلاحاً فى أيدي الموالى يحتجون به على الدولة العربية الحاكمة التى تدين بالإسلام ولكنها تتجافى عن تعاليمه السامية فلا تقر مبدأ المساواة الذى أعلنه الإسلام فى وضوح وصراحة كما ذكرنا فيما سبق.

فهل كان الأمويون على خطأ فى مثل هذا السلوك مع الموالى؟
وإلى أى حد كانت الأضرار التى لحقت الأمويين من جراء هذا السلوك؟

أما عن السؤال الأول فنحن لا نستطيع أن نتجنى على الدولة الأموية فنكيل لها التهم جزافاً ونلصق بها المثالب والعيوب دون مبرر أو مسوغ . ونحن مع ذلك لا نستطيع أن نبرئها من الأخطاء والعيوب كما حاول بعض المؤرخين المحدثين من أمثال شبلى نعمان في نقده لكتاب تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان . لا نذهب أيضاً إلى مثل هذا رأى لأن الوقائع التى أجمعت عليها المصادر الموثوق بها تتجه إلى غير هذا الاتجاه^(١) .

ولكننا سنقف موقفاً فيه كثير من الحذر والاحتياط حتى يكون حكمنا أقرب إلى الصواب بقدر ما نستطيع .

أما منطق الدولة الأموية فإنه يتلخص فى أنها لم تكن لتستطيع يوماً أن تنسى أنها دولة فاتحة جاهدت فى سبيل هذا الفتح ، وأفنت الأموال والأرواح لتحقيق تلك الغاية ، وأقامت فوق أكداس الضحايا هذا الملك الشامخ البناء الواسع الأرجاء ، وكانت ظروفها العصبية تتطلب منها إغداق الأموال لإرضاء الخصوم الذين يناصرونها العداء والشحناء ، ويتربصون بها الدوائر .

فالمخارج قد ابتدأ عداؤهم للأمويين منذ استجاب على بن أبى طالب لدعوة الداعين لتحكيم القرآن بين أنصار على وأنصار معاوية ، وظل هذا العداء على قوته

(١) كتب الشيخ شبلى نعمان كتاباً سماه انتقاد كتاب التمدن الإسلامى لجورجى زيدان وهو يدافع فى هذا الكتاب عن الأمويين ويتعصب لهم إلى أوسم الأماد ، وإن من يقرأ فى هذا الكتاب من ص ١ إلى ص ٤٤ ينجلي له روح التحيز الشديد للعرب وللأمويين حتى أنه يرفع عنهم كل عيب ، ويبرئهم من العصبية العربية ، ويستدل على ذلك بذكر طائفة من علماء الموالى كانوا فى عهد الأمويين موضع التقدير والاحترام . ثم يقول فى ص ١٣ « ويظهر مما مر عليك أن الموالى كانوا فى أيام بنى أمية بأعلى محل من الشرف والمكانة وكانت العرب تدعن لهم وتقدمهم وتقندى بهم وترفع شأنهم » .

ولا شك أن القارئ قد رأى أننا فى الفصل الثانى من الكتاب قد ضربنا الأمثلة الكثيرة التى تدل على احتقار العرب للموالى ثم استثنينا من ذلك من كان يعرف من الموالى بصلاحه وقواه أو بعلته وأدبه ..

الإيجابية فانقلب إلى ثورات جائحة روعت الدولة الأموية حتى آخر عهدها^(١).

والعلويون الذين يعتقدون أحقية على وذريته من بعده في الخلافة كانوا شجعي في حلق الدولة الأموية وطالما عملوا على تقويضها في ظروف مختلفة^(٢).

وأنصار ابن الزبير الثائر على الخلافة الأموية كانوا عنصراً من عناصر الشعب والاضطراب وقد ذهب ضحية لثوراتهم أرواح كثيرة وأموال طائلة من كلا الفريقين المتحاربين^(٣)... إلى غير ذلك من تلك الظروف المتتوية التي صاحبت الأمويين منذ فجر حياتهم إلى أفول شمسهم !!!

وكان الموالي في ظل تلك الظروف المتتوية يتجهون في الغالب إلى الطرف المعادي للدولة الحاكمة. لأن سياسة الدولة المالية كانت لا تحقق أمانهم في المساواة التي ينشدونها من حكومة مسلمة. وقد رأينا في تلك الثورات المتعاقبة التي تحدثنا عنها في الفصل الأخير من الكتاب كيف كانت أعدادهم الهائلة تحارب في صفوف أعداء الدولة الأموية لكي تقضى على السيادة العربية وتقيم على أطلالها سيادة أعجمية..

ومن المعقول أن الدولة الأموية كانت لا تستطيع أن تحفظ كيانها في مثل هذا الجو العاصف إلا ببذل الأموال من ناحية، واستعمال العنف والقسوة من ناحية أخرى. وإذا كان إيراد الدولة يتوقف على كثرة الخراج والجزية وهما أهم الأركان في تدعيم ميزانيتها فقد كان من الصعب عليها أن توفق بين توفير الأموال وبين السير وفق المبادئ الإسلامية التي تقضى برفع الجزية عن كل من أسلم، وبتخفيض الخراج إلى العشر في كثير من الحالات كما أسلفنا ذلك من قبل^(٤). ولذا فإن الحجاج ومعظم الذين جاءوا بعده من الولاة قد صعب عليهم أن يسيروا وفق المنهاج الذي رسمه

(١) راجع ص ٤٨ ، ٤٩ من الكتاب .

(٢) راجع ص ٤٩ ، من الكتاب ، وثورة المختار الثقفي ص ١٠٧ والدعوة العباسية ص ١١٢ وما بعدها

(٣) راجع ص ٤٩ من الكتاب .

(٤) راجع ص ٥١ من الكتاب

الإسلام في تلك النواحي المالية التي هي أهم الأسس في حياة الدولة . ويدلنا على مبلغ احتياجهم للأموال أنهم كانوا أحياناً يفرضون على العرب ضرائب خاصة لامبرر لها . كما فعل محمد أخو الحجاج إذ فرض على اليمن خراجاً سماه الوظيفة ، وظلت هذه الوظيفة جائمة على صدورهم حتى ألغاهها عمر بن عبد العزيز .. إلى غير ذلك مما تعرضنا للكثير منه ^(١) .

أما عن الاحتقار والازدراء ، وسوء المعاملة ، ونظرة السخط والكراهية التي كان يجدها الموالي من العرب ومن الأمويين بصفة خاصة ، فيستطيع الأمويون أن يعللوا ذلك بأن الغالبية من هؤلاء الموالي لم تكن تؤمن بالإسلام إلا إيماناً ظاهراً وأن الديانات القديمة التي ورثوها عن آبائهم ، كانت مسيطرة على نفوسهم إلى حد كبير جعلهم ينفثون السموم الفتاكة التي تفيض بها نفوسهم ، محاولين تشويه الإسلام والغض من قدره .

وكان بعض الموالي يتسببون أحياناً في خلق روح الكراهية والعداء من الأمويين نحوهم . وإن من يقرأ قصة الحجاج الثقفي وسعيد بن جبير يتجلى له كيف كان الحجاج يحسن معاملة ابن جبير حتى خرج عليه مع ابن الأشعث فيمن خرج من أعدائه فاضطر إلى معاقبته كخارج على الدولة . وقد ذكر المبرد في كتابه الكامل : أن الحجاج لما قبض على سعيد بن جبير على أثر خروجه عليه مع ابن الأشعث قال له : « يا شقي بن كسير . أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عربى فجعلتك إماماً ؟ قال : بلى . قال : أفما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعربى فاستقضيت أبا بردة ابن أبي موسى الأشعري وأمرته ألا يقطع أمراً دونك ؟ قال : بلى . قال : أو ما جعلتك في سمارى وكلهم من رؤوس العرب ؟ قال بلى . قال : أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها في أهل الحاجة ثم لم أسألك

(١) راجع ص ٥٦ من الكتاب .

عن شيء منها؟ قال: بلى. قال فما أخرجك على؟ قال: بيعة كانت لابن الأشعث في عنقي. فغضب الحجاج. ثم قال: أئما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عنقك من قبل؟ والله لأقتلنك... يا حرسى اضرب عنقه.»

ولقد كانت قصة المجد القديم ومحاولة إرجاعه فكرة مختصرة في نفوسهم؛ حتى لقد ظهرت منهم روح الحنين إلى سلطان آبائهم وأجدادهم وتغنوا بذلك في شعرهم... فيقول اسماعيل بن يسار مولى بني تيم المتوفى سنة ١١٠ هـ:

إنما سمي الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا إمام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب؟
إذ نربي بناتنا وتدسو ن سفاهاً بناتكم في التراب^(١)

وكان هذا الفخر منهم ممزوجاً بالبغض والكراهية للعنصر العربي. وإن كانوا يحقون ذلك في ظروف خاصة.

ويروى في هذا الصدد أن إسماعيل بن يسار أيضاً استأذن في الدخول على الغمر ابن يزيد بن عبد الملك يوماً. فحجبه الغمر ساعة ثم أذن له فدخل يبكي. فقال له الغمر: مالك يا أبا فائد تبكي؟ فقال وكيف لا أبكي وأنا على مروانية ومروانية أبي أحجب عنك ساعة؟ فجعل الغمر يعتذر إليه وهو يبكي فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر. وخرج من عنده فلاحقه رجل فقال: أخبرني ويحك يا إسماعيل أي مروانية كانت لك أولاًيك؟ فقال: بغضنا إياهم... امرأته طالق إن لم تكن أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح. وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل: قل

(١) الأغاني ج ٤ ص ١١٩.

لا إله إلا الله فقال : لعن الله مروان تقريباً بذلك إلى الله تعالى وإبداله من التوحيد وإقامة له مقامه^(١) !

فهذه القصة تدلنا بلا شك على روح العداء التي كانت مستقرة في نفوس الموالى والتي كانت تظهر حيناً وتختفي أحياناً تحت تأثير الظروف والمناسبات . ولذا كان من السهل على كل نائر أن يحرك أشجانهم ويوجههم لمحاربة الدولة الأموية لأنه كان يصادف منهم نفوساً حائرة مهيئة للاشتعال ، متحفزة للثورة والقتال . فكانت الدولة الأموية إذن في موقف تمليه الحكمة والحزم ؛ فهي مضطرة إلى حفظ كيائها من عدوان المعتدين وثورات الخارجين ؛ والتراخى في مثل هذه الأحوال يزيد الشر ويقوى الخطر .

وفما عدا ذلك فإن الأمويين بل والعرب جميعهم كانوا يحترمون من الموالى من يعرف بصلاحه وتقواه وعلمه ؛ وقد رأينا عند كلامنا على « الموالى والحركة الفكرية » كيف كان العلماء ورجال الدين من الموالى يتمتعون في المجتمع العربي بكثير من الحظوة والإجلال .

وأما منطق الموالى فيعتمد في ظاهره على حجة قوية هي أن الشرع الإسلامي قد أعلن المساواة بين الناس في وضوح وصراحة . فقال الله في كتابه « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فلم يفرق بين عربي وأعجمي . وما يروى في سبب نزول هذه الآية من أنه لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً حتى أذن على ظهر الكعبة . فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟ وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيره . وقال أبوسفیان : إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء . فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما

(١) الأغاني ج ٤ ص ١١٩ .

1 قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء^(١) .. إلى غير ذلك من نواحي المساواة الكاملة والعدالة الشاملة التي جاء بها هذا الدين .

وإذن فمن حق الموالى — وهم مسلمون — أن يتمتعوا بكل شيء يمكن أن يتمتع به إخوانهم المسلمون من العرب ، فكيف يتجافى الأمويون عن هذه المبادئ فيعاملون الموالى بالشدة والقسوة ويتجاهلون حقوقهم المشروعة التي أوجبها الدين فيما يتعلق بالنواحي المادية والأدبية ؟ وإذا صح أن يتجاهل العرب تلك الفوارق الكبيرة التي كانت بينهم وبين تلك الشعوب الأعجمية قبل أن يفتح الإسلام بلادهم ، وإذا ساء لهم أن يتناسوا أن تلك الشعوب الأعجمية كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الرقي والمدنية ، بينما كان العرب يسبحون في ظلام جالك من القوضى والهمجية .. حتى لقد اعترف بذلك سليمان بن عبد الملك نفسه فقال : « عجبت لهؤلاء الأعاجم ملكوا ألف سنة فلم يحتاجوا إلينا ساعة . وملكنا مائة سنة فلم نستغن عنهم ساعة^(٢) » . فليس أقل من أن يقف الموالى مع العرب على قدم المساواة ، وعلى الأخص إذا كانت هذه المساواة من الأمور التي رغب فيها الإسلام وأمر بها !!!

والواقع أن الدولة الأموية وقد صاحبها تلك الظروف القاسية التي أشرنا إليها كانت في موقف من أدق المواقف وأخطرها ، وليس من العقل أن يتهمها إنسان بأن سياستها مع الموالى سياسة خاطئة بإطلاق هذه الكلمة . وإني أطالب أولئك الذين يسرفون في تخطي الأمويين ويوجهون اللوم العنيف لسياستهم بأن يتتبعوا تاريخ القافلة البشرية منذ عرف التاريخ إلى العصر الذي نعيش فيه ، فإنهم سيرون الأمويين لم يخرجوا

(١) أسباب النزول للواحدى .

(٢) زبدة النصرة ونخبة العصرة للإمام عماد الدين الأصفهاني ج ١ ص ٥٧ . ومقال للاستاذ فيت .

في سياستهم عن ذلك النطاق الذي رسمه المستعمرون في معاملة مستعمراتهم ، بل إنهم كانوا في درجة أقرب إلى الرحمة وإلى تحقيق العدالة من غيرهم .

وإذا قارنا بين الدولة الأموية والدولة العباسية فإننا نرى الأمويين لم يرتكبوا من الفظائع مع محكوميهـم كما فعل العباسيون ، حتى لقد اعترف بذلك بعض العلويين فقال : « لقد كنا نقمنا على بنى أمية ما نقمنا . فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم . وإن الحجة على بنى العباس لأوجب منها عليهم . ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر^(١) » .

وإننا نلتبس العذر لهؤلاء الأمويين إذا ما قصرنا في تحقيق المساواة التي أوجبها الإسلام ولا سيما إذا نظرنا إلى الدول الكبيرة في عصرنا الحاضر ، والتي زعمت في أكبر حريين عرفتهما الإنسانية أنها إنما تحارب في سبيل الديمقراطية والمساواة ؛ ثم تكون النتيجة بعد انتصارها على هذه الأسس أنها تتخلص من هذه المبادئ وتعود إلى سياسة التفرقة في المعاملة بين الأجناس والأمم المختلفة على الرغم مما أبلته هذه الأمم من بلاء حسن في صف تلك الأمم الداعية إلى هذه المبادئ .

وإننا نظن أن موقف الموالى ليس بأسوأ من موقف أهالى المستعمرات وأبناء الشعوب الملونة غير الأوروبية . وإن ما يحدث لهؤلاء في استراليا وفي جنوب أفريقية وفي الولايات المتحدة لما يدل على أن الدول الغربية لا يزال أمامها المدى فسيحاً حتى تحقق المساواة المنشودة والديمقراطية التي تزعم أنها تعمل بها .

فاليابانيون لا يحق لهم أن يهاجروا إلى استراليا على الرغم من الشوط الكبير الذى قطعوه فى اصطناع المدنية الأوربية . فأى مساواة هذه التى تقصر قارة من قارات الدنيا الست على بضعة ملايين من البيض يستأثرون بها دون غيرهم ؟ والهنود والزنوج فى جنوب أفريقية يلاقون من الإنجليز والبوير كل عنـت

(١) الأغاني ج ١٠ ص ١٠١ ط السامى .

واضطهاد لا شيء إلا لأنهم شعوب محكومة . حتى أن هذه الاضطهادات كانت هي المدرسة الأولى التي تعلم فيها الزعيم الهندي الكبير غاندى ، لكي يتجرد عن هذه المدنية الأوربية الزائفة ويعلن تلك الحرب الروحية الشعواء التي كشفت عن نفاق الاستعمار الحديث ، وأكسبت غاندى إعجاب المؤمنين بالمبادئ الإنسانية العالية .

وناهيك بما يلاقيه الزنوج في الولايات المتحدة من عنت البيض وإرهابهم . إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي يضيق بها الحصر والتعداد .

وليس معنى هذا أننا نقر سلوك الأمويين في تخطيطهم حواجز الدين في بعض الأحيان ولكننا نقارن بين سياستهم وسياسة غيرهم من الأمم . ونضع الجميع في ميزان النقد البريء ليعرف كل ماله وما عليه ...

وقد كان الأجدر بالموالي الذين ثاروا في العصر الأموى من أجل تحقيق المساواة والعدالة أن يتمسكوا بهذا المبدأ في العصر العباسى الذى أصبح لهم فيه النفوذ والسلطان ، ولكننا نجد الآية قد انعكست أو كادت تنعكس إذ أصبح الكثير من العرب يعانى العنت والإرهاب من الولاة والموظفين من الأعاجم ، وأصبحت معظم الوظائف الكبرى في أيدي الموالي ، بينما كان الأولى بهم أن يتعظوا بما أصاب الأمويين قبلهم ، ولكنهم استغرقوا في نشوة من الظفر فأنحرفوا عن مبدأ المساواة ، وجرفهم تيار الأنانية كما جرف من سبقهم .

ولم يحدث أن ظفرت الإنسانية بأناس مثاليين يرسمون برنامج الإصلاح ثم يطبقونه بحذافيره ولا يحيدون عنه .. لم يحدث ذلك إلا في أوقات قليلة^(١) ، ثم تعود الأنانية إلى مجراها الطبيعى في نفوس الناس .

وأما عن السؤال الثانى وهو مدى الأضرار التي لحقت الدولة الأموية من جراء عصبيتها العربية وسلوكها مع الموالي هذا المسلك العدائى الذى تعرضنا له فيما سبق ، فإنى

(١) لعل في تاريخ الرسول وخليفته أبى بكر وعمر ما يؤيد ذلك إلى حد كبير

أعتقد أن موقف الأمويين من الموالى ليس هو السبب الحاسم في هدم الدولة الأموية ، وأفترض أن الموالى لو كانوا يعاملون على أساس المساواة الكاملة والإنصاف الشامل فإن العرب من غير الأمويين كانوا سيستجيبون لعصبيتهم العربية ، ويثرون على الدولة الأموية ، وينقمون عليها أنها تسوى بين السادة والأتباع ولا تفرق بين العربى والأعجمى . ويتجلى لنا هذا في ثورة المختار الثقفى فإنه حينما خرج على الدولة الأموية وانضم إليه العرب والموالى ، تألم العرب حينما رأوا المختار يسوى بينهم وبين الموالى في العطاء ، وكان هذا الصنيع من أهم الأسباب في غضبهم عليه ، وقالوا له : « عمدت إلى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعا فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا » . إلى غير ذلك مما تعرضنا له بإسهاب في الفصل الخاص بحالة الموالى الاجتماعية ..

وأفترض أيضا أن الموالى لو لم تكن هناك عصبية عربية فإنهم كانوا سيستجيبون لعصبيتهم الأعجمية ، وسينتبه في نفوسهم الحقد على الدولة الأموية (العربية) . وسينظمون حركاتهم للقضاء على السيادة العربية ، وإرجاع سيادتهم القومية . ويدلنا على ذلك ما رأينا في ثورة المختار من تألم الموالى حينما رأوا المختار يقبل بوجهه على العرب .. ومن فرحهم واستبشارهم حينما عدل من موقفه أمامهم ، وتظاهر لهم بيقض العرب فقال « إنا من المجرمين منتقمون » ويقصد بذلك العرب .. فإنهم قد قال بعضهم لبعض : أبشروا كأنكم به والله قد قتلهم ^(١) . إلى غير ذلك مما تعرضنا له أثناء كلامنا عن « إرهابات الشعوية ، وعن ثورات الموالى » .

وأفترض أكثر من ذلك كله . أنه لو لم يكن هناك موالى ، وكانت الرقعة الإسلامية كلها من العرب ، فإن العصبية القبلية كانت ستقضى حتما على الدولة الأموية لتقيم مقامها دولة هاشمية أو عباسية .. وقد رأينا في الفصل الثانى من الكتاب ^(٢) أمثلة

(١) راجع ص ١٠٨ من الكتاب . (٢) راجع ص ٢٩ وما بعدها من الكتاب .

متنوعة توضح لنا مدى الأضرار التي كانت تنشأ عن العصبية القبلية .
والواقع أن هناك أسباباً كثيرة قد اجتمعت لإسقاط الأمويين ، ولا نستطيع أن
نتبين أعظم هذه الأسباب أثراً وأشدّها خطراً ، وإن كانت ثورات الموالى هي السبب
المباشر الذي أعقبته نهاية الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية .

وبعد فإن تنازع البقاء قد فرض على الإنسانية أن تظل في صراع عنيف وتطاحن
مستمر ، ولن يستقيم العالم أويسود الهدوء والصفاء فيه إلا بكبح جماح النفوس ،
وإحكام عقلاها عن الانزلاق في مهاوى الأنانية .

وفي الحق أن النظرية الإسلامية في سياسة العالم كفيلة بالقضاء على آلام الإنسانية
وتحقيق آمالها في الحياة الهادئة ، والمعيشة الراضية المطمئنة . ولقد اعترف بذلك أعداء
الإسلام أنفسهم ، وحسبنا أن نقبس تلك الكلمة من تقرير المعهد الملكي البريطاني
للشئون الدولية :

« لقد استطاع الإسلام أن ينشئ بناء اجتماعياً راسخاً متجانساً أمكنه أن يتغلب
به على الفروق الجنسية والقومية ، وإن النزعة الإسلامية العالمية قد مكنت الإسلام من
أن ينأى عن المشا كل السياسية المعقدة ^(١) » .

ولا غرو فالإسلام لم يدع إلى المساواة قولاً فحسب ، ولكنه يدعو إليها عملياً كل
يوم خمس مرات ، وذلك في الصلاة التي تنمحي فيها الفوارق المادية المصطنعة ، إذ يقف
المسلمون جميعاً جنباً إلى جنب دون تمييز بين حسيب أو وضيع ، غني أو فقير ^(٢) .

فإذا هيا الله للإنسانية قوة تنفذ مبادئ الإسلام ، وترغم الناس على اتباعها ، أمكن
أن تجف الأرض من الدموع والدماء ، وأن تهدأ نار البغضاء والشحناء ، لكي
تشرق السعادة في أفق الدنيا ، ويعيش الناس في جو مزدهر بالأمن والسلام .

(١) تقرير المعهد الملكي البريطاني للشئون الدولية . لندرة ١٩٣٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) كتاب النظام الجديد للعالم . ط لاهور ١٩٤٢ للعالم الهندي المسلم مولانا محمد علي ص ٤٤

وما بعدها .

تذييل - ١

الإسلام والرق

عرف الفقهاء من المسلمين الرق بأنه عجز حكى شرع في الأصل جزاء عن الكفر . . . أما أنه عجز فلأن الرقيق لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرها ، وأما أنه حكى فلأن العبد قد يكون أقوى في الأعمال الحسية من الحر . . وعرفه الأفرنج بأنه حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكاً للغير^(١) . . وأنت ترى أن تعريف الأفرنج للرق أوسع دائرة ، يتناول من يؤخذ نهباً وسلباً ، ومن يؤخذ من عرض الطريق كما كان يفعل النخاسون ، ومن يؤسر في حرب مشروعة ، وغير مشروعة من الحروب التي يكون مبعثها البغى والعدوان والمنافسة والغيرة . . . وتعريف الفقهاء لا يتناول إلا من يؤخذ أسيراً في حرب مشروعة مبعثها الدفاع عن الدين والوطن وقد ضرب الإمام عليه الرق . . ولما كان الكلام حول هذا الموضوع متشعب النواحي والأطراف رأيت أن أحصر الكلام عليه في أربع نقط وهي :

- (١) مصدر الرق ومنبعه (٢) تدرج الإسلام في إلغائه (٣) حقوق الرقيق (٤) موازنة بين موقف الإسلام وغيره من الرقيق .

١ - مصدر الرق ومنبعه :

الإنسان مدنى بالطبع . وتدعوه حالته المعيشية إلى من يعاونه في كل ما يحتاج إليه . . ولذا تسلط قويه على ضعيفه وسخره في أعماله وحاجاته . . وبتوالى الأيام وتولد الأطماع وكثرة الحروب ، صار الناس لا يقتلون العدو وإنما يبقون

(١) كتاب الرق في الاسلام لشفيق باشا ص ٧ .

عليه يسخرونه في أعمالهم ويستغلونه كما تستغل الآلة أو الماشية — لذلك كان الاسترقاق قديماً ومنبثاً في جميع أجزاء العالم .

ولقد حدث الأطماع البشرية بالناس إلى الإكثار من الاسترقاق . فلم تقف أطماعهم عند حد الاسترقاق في الحروب فحسب ، بل تجاوزوا ذلك إلى طرق تأبأها الإنسانية وتنفر منها الطباع السليمة — فالليونان كانوا يتلصصون في البحار فيخطفون من يصادفهم ممن يكونون على الشواطئ والسواحل فيصبح هؤلاء المختطفون أرقاء مستعبدين^(١) .. والرومانيون كانوا يسترقون المدين الذي لم يتيسر له الوفاء بما عليه من دين فيصبح المدين رقيقاً للدائن^(٢) .

وكانت المقامرة تخرج بالمولعين بها إلى حد أنهم يقامرون على نساءهم وأولادهم بل وعلى حرياتهم الشخصية فكان ذلك عند الجرمانيين (الألمان) مصدراً من مصادر الرق^(٣) .

وكانت الفاقة عند بعض الأمم ، كالصين مثلاً ، مصدراً من مصادر الرق فكان الفقر يؤدي بصاحبه إلى أن يرمى بنفسه في أحضان الغير فيبيع نفسه وأولاده إليه . وهذا كله فضلاً عن الحروب التي كانت الأمم تشنها على من تطمع فيهم ظملاً وعدواناً . فكانت تصبح البلاد التي تكون لهم الغلبة عليها جزءاً من بلادهم وأهلها عبيد لهم . من أجل ذلك كثرت مصادر الرق واتسعت موارده وانتشر أيما انتشار في كل العصور وعند كل الأمم . ولقد جاء الإسلام فوجد الرق على هذا النحو السالف من الكثرة والانتشار فوقف بإزاء تلك المشكلة موقف الأناة والحرزم .. فلم يلغها مرة واحدة لئلا تهيج الأفكار وتثور الخواطر ، وينهدم ركن هام تقوم عليه حياة الأسر والأمم ، فضلاً عما يتعرض له الرقيق إذا ألغى الرق ظفيرة من الجوع والعري والضياع .

(١) الرق في الاسلام ص ١٩ . (٢) نفس المرجع ص ٢٣ . (٣) نفس المرجع ص ٣١ .

كذلك لم يبقه على حالته التي وجده عليها لأن ذلك يتنافى مع أصوله ومبادئه التي تجعل بنى الانسان سواء في الحرية وتنظر إليهم كأبناء جنس واحد لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود وإنما الفضل بالتقوى ومكارم الأخلاق إذ يقول الله عز وجل : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ^(١) » .. نعم لم يسلك الإسلام بالرقائق أحد المسلكين السابقين منعا لتلك المفاسد ، ولكنه اتخذ طريقا وسطا لا يحدث في العالم انقلابا أو فوضى ، وتتحقق معه الحرية ولو على سبيل التدرج . وسنرى فيما سنبينه بعد أنه طريق ناجح في إنضاب معين الرق وتقويض دعائمه .

فالإسلام قد حارب الرق من ناحيتين . فوقف أولا في سبيل مصادره ومنابعه ، ثم وضع الحواجز أمام سيله المتدفق بقدر الإمكان ، وبذلك حصره في حدود ضيقة يمكننا أن نبينها إذا قارنا بين تعريف الأفرنج للرق ، وبين تعريف الفقهاء المسلمين له . . وهذه الحدود هي أن يكون الرقيق أسير حرب مشروعة مبعثها صد البغي والعدوان وإعلاء كلمة الاسلام ، وأن تكون الحرب بين المسلمين وغيرهم ، فلو كانت بين المسلمين بعضهم مع بعض فلا يكون الأسير رقيقا . وألا يكون وقت أسره مسلما . وأن يضرب الإمام عليه الرق ، فلو من عليه وأطلق سراحه أو قبل منه الفداء فلا يكون رقيقا . وألا يكون قد قبل الجزية والتزم أحكام المسلمين . فالذمى لا يكون رقيقا ما دام ملتزما ذلك العقد الذي أبرمه مع المسلمين .

وبهذا انحصرت دائرة الرق في مصدر واحد مقيد بتلك القيود السالفة . . ! !

أما الناحية الأخرى أو السلاح الآخر الذي حارب الاسلام به الرق فهو ما تتضمنه النقطة الآتية : —

(١) سورة الحجرات آية ١٣

ومع كل القيود المتقدمة التي وضعها الإسلام في سبيل الاسترقاق فإنه لم يترك ذلك الذي وقع في حظيرة الرق سجيناً طيلة حياته لا يجد لنفسه منفذاً ولا باباً يخرج منه إلى تلك الحرية المحبوبة التي خص الله بها بنى الانسان ، بل فتح له الأبواب والمسالك لكي ينفلت من قيود الرق ويتخلص من أغلاله . فكان من جمال التشريع الإسلامى وحسنه أنه ما ترك وسيلة من الوسائل في سبيل حرية المملوك إلا حث عليها ورغب فيها مراعيًا في ذلك حالة السيد وما تتطلبه نفسه ، مع اختلاف في المشارب ، وتباين في الأغراض والمقاصد ...

فبينما نجد شخصاً مقصده الأسمى الثواب من الله أو البر بالوالدين أو تكفير جريمة وقعت منه كجريمة القتل الخطأ ولا يبالي ما يتطلبه ذلك من تضحية بمال فشرع له الإسلام ضمن ما شرع في ذلك عتق الرقبة ... إذ نجد آخر يرغب في الثواب في الآخرة وفي الوقت نفسه يحرص على أن ينتفع بعبدته مدى حياته فرسم الإسلام له طريقاً يحصل منه على غرضه ، وذلك بالتدبير أو الاستيلاد إن كان الرقيق أنثى .. !!

وبينما نجد إنساناً يحرص على المال في الدنيا ويريد ألا يحرم من الثواب الأخرى فرسم له الشارع المكاتبه ، إذ نجد آخر يرضن بعبدته أن يكون حراً ، ويعامله معاملة قاسية من تمثيل به أو ضرب مبرح فيعاقبه الشارع بعقوبته عليه جزاء معاملته القاسية .

كذلك إذا حلف على عتق مملوكه أو نذر ذلك أوجب الإسلام عليه العتق إذا حث والوفاء بما نذر ... وسنتحدث الآن عن الطرق والمسالك التي شرعها الإسلام لتخليص الرقيق من ظلام الرق ، وإخراجه إلى نور الحرية .

... فمن الطرق المؤدية إلى ذلك أن تنطلق تلك الكلمة السهلة من السيد لمملوكه « أنت حر أو عبدى حر أو عتيق أو ما أشبه ذلك من كل ما يؤدى هذا المعنى » يحفز به إلى ذلك ويرغبه فيه ماورد من النصوص في فضل العتق وجزيل الثواب عليه

إذ يقول الله تعالى : « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة ^(١) » . وعن البراء ابن عازب قال : « جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : علمني عملاً يدخلني الجنة . قال : اعتق النسيمة وفك الرقبة . قال : أو ليسوا واحداً ؟ قال : لا ، اعتق النسيمة أن تفرد بعقتها . وفك الرقبة أن تعين في ثمنها ^(٢) إلخ » .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه ^(٣) » .

وقد جعل الإسلام من مسالك العتق ملك ذى الرحم المحرم برأ به وإحساناً إليه . روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجزى ولد عن والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه ^(٤) » . وروى عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ملك ذا رحم محرم فهو حر ^(٥) » . وظاهر هذا الحديث أنه لا فرق بين أن يكون المالك بالغاً أو صبيغاً ، عاقلاً أو مجنوناً ، مسلماً أو كافراً في دار الإسلام بأى سبب من أسباب الملك المشروعة من شراء أو هبة أو ميراث أو نصيبه من الغنيمة . وحكمة التشريع فى ذلك هى أن بقاء ذى الرحم المحرم فى يد قريبه مذل له مفسد للعلاقات التى يجب أن تكون بين الأسرة قائمة على أمتن ما يكون مدعمة بدعائم المحبة والوئام .

وفى كفارة القتل الخطأ أوجب الإسلام عتق الرقبة فيقول تعالى : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » . والتحرير الاعتاق . والرقبة النسيمة كما عبر عنها بالأس فى قولهم فلان يملك كذا رأساً من الرقيق . والمراد برقبة مؤمنة كل رقبة كانت على حكم الإسلام . والقتل الخطأ ما كان من غير قصد كأن يرمى كافراً فيصيب مسلماً ، أو يرمى شخصاً يظنه حريغاً فإذا هو مسلم .

(١) سورة البلد بالجزء الثلاثين (٢) مصابيح السنة للإمام البغوي ج ٢ ص ٤٦

(٣) صحيح مسلم ج ٩ ص ١٥١ ، نيل الأوطار للشوكاني ج ٦ ص ٢٠٥ .

(٤) الشوكاني ج ٦ ص ٢٠٣ . (٥) نفس المرجع والصفحة والجزء .

جعل الشارع قبول توبة ذلك القاتل في التكفير عن هذه الجريمة بعق رقبة مؤمنة جزاء له على عدم تحريره وحيطته .. وكأن الحكمة في ذلك هي أنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من ناحية أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار .. ولم يباح الإسلام العدول عن التكفير بعق الرقبة إلا إذا لم يجد سبيلاً إليها بأن كان لا يملك رقبة ولا يتيسر له شراء عبد .. وإذ ذاك أباح له الشارع أن يكفر بالصوم حيث يقول : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ^(١) » .

وإذا ظاهر رجل من امرأته بأن قال لها أنت على كظهر أمي فإنه يحرم عليه الاستمتاع بها ولا يحل له ذلك حتى يكفر بعق رقبة . وهذا ما يفيد قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة ^(٢) » .. وظاهر الآية يدل على أن الرقبة لا يشترط فيها الإيمان فالرقبة الكافرة تجزى في كفارة الظهار فيكون ذلك أظهر في دعوة الإسلام للحرية في المسلم والكافر على السواء .. ولا يعدل عن عق الرقبة متى وجد سبيلاً لذلك كما في كفارة القتل الخطأ حيث يقول تعالى « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » ومن أقدم على جريمة الوطء في نهار رمضان وهو عامد وجبت عليه الكفارة وهي عتق رقبة . لحديث سلمة بن صخر الأنصاري ، قال : هلكت يا رسول الله . قال وما أهلكك ؟ قال وقعت على امرأتي في رمضان .. قال هل تجد ما تعتق ؟ قال لا .. قال هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال لا . قال هل تجد ما تطعم ستين مسكيناً ؟ قال لا . ثم جلس . فأتى النبي عليه الصلاة والسلام بعرق فيه تمر فقال تصدق بهذا . فقال على أفقر منا ؟ فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه مني . فضحك رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى بدت أنياباه ثم قال اذهب فاطعمه أهلك .

(١) سورة النساء آية ٩٢ (٢) سورة المجادلة آية ٣

وقال عليه السلام: «من أفطر في رمضان فعليه ما على المظاهر». فكلمة من في الحديث الأخير عامة تشمل الذكر والأنثى سواء أكان الإفطار بجماع أو بغير جماع من أكل وشرب عمداً.

.. وبهذا أخذ الأحناف، كما أنهم قالوا إنها كفارة الظهار يلزم فيها الترتيب لا يعدل عن العتق إلى ما بعده إلا إذا لم يكن للعتق سبيل أخذاً من الحديث الأول. . . ويرى الشافعية أن هذه الكفارة لا تكون إلا بسبب الجماع في نهار رمضان فحسب، وأما غيره من المفطرات فليس بموجب لهذه الكفارة كما هو صريح الحديث الأول. ويحملون الحديث الثاني على الأول. وإنما وجبت الكفارة بالفطر في رمضان جزاء التهاون في الدين والإقدام على هتك حرمة هذا الشهر الكريم.

والحنث في اليمين المنعقدة موجب للكفارة وهي إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يأكل أو كسوتهم. أو تحرير رقبة. . . واليمين المنعقدة ما كان الحلف فيها بالله أو صفة من صفاته وصاحبها قصد ونية. . . وقد خير الشارع في كفارة اليمين بين الأمور السالفة تيسيراً للعباد ورحمة بهم. وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام «إن الدين يسر».

ومن طرق التحرير ما أباحته الشريعة الإسلامية من زواج الحرة بالرقيق. إذ أن أولادها يتبعونها في الحرية. والقاعدة الشرعية في ذلك هي أن الولد يتبع أمه في الرق والحرية. كما أنه يتبع خير الأبوين ديناً. والأمة إذا تزوجت حراً فإن أولادها يتبعونها في الرق. وكأن حكمه الشارع في ذلك أن ولدها لو كان حراً لحجر السيد عليها وعزلها عن الزواج. وفي ذلك تعريضها للبغاء. والله تعالى يقول «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً^(١)». على أن زوجها لا يعدم السبيل لتحرير أولاده كأن يشتريها فتصبح أم ولد.

(١) سورة النور آية ٣٣

ومن رحمة الإسلام بالرقيق وكمال عنايته به أن جعل جزاء السيد هو عتق عبده إذا مثل به أو آذاه بغير حق . والأصل في ذلك حديث جريح أن زنباعاً أبا روح وجد غلاماً له مع جارية له فجدع أنفه وجبهه فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من فعل هذا بك ؟ قال زنباع . فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما حالك على هذا ؟ قال كان من أمره كذا وكذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فأنت حر . فقال يا رسول الله فمولى من أنا ؟ قال مولى الله ورسوله ^(١) .. وروى أن رجلاً أقعد أمة له في مقل حار فأحرق عجزها فأعتقها عمر وأوجعه ضرباً . وروى عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه ^(٢) .

وقد جعل الشارع من أسباب التحرير الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام . I فإذا هرب العبد الأجنبي من بلاده وجاء إلى المسلمين وأسلم نال حريته . لذلك كان كثير من العبيد في بلاد الكفر يفرون من بلادهم ملتجئين إلى الإسلام رغبة في نيل الحرية . وقد حدث في واقعتي الطائف والحديبية أن التجأ عدد كبير إلى معسكر المسلمين فصرح النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم عتق ^(٣) .

والعتق في الأحوال السالفة يكون منجزاً لا تأخير فيه ولا إبطاء . وهناك نوع آخر يسمى العتق المعلق .. ومن الطرق المؤدية إليه :
«النذر» : فمن نذر لله عتق رقبة إذا شفى من مرضه أو قضى الله حاجته وجب عليه الوفاء بما نذر إذا ما تحقق شرطه وتم غرضه ..

و«التدبير» : وهو تعليق العتق بمطلق موته كأن يقول السيد لعبده أنت حر بعد موتى أو دبرتك .. وهو قرينة لأنه يقصد به العتق . ويعتبر من ثلث التركة سواء وقع من السيد في حالة الصحة أو المرض . للحديث المروى عن ابن عمر أن النبي صلى الله

(١) الشوكاني ج ٦ ص ٢٠٥ . (٢) نفس المرجع ج ٦ ص ٢٠٦ .

(٣) الرق في الإسلام لشفيق باشا .

عليه وسلم قال : « المدبر من الثلث » فهو كالوصية وكالعتق إذا وقع في مرض الموت فإنهما يخرجان من ثلث التركة . فإن لم يكن للسيد مال سواء طلب من العبد السعي لتحصيل قيمة الثلثين ، كما أنه يسعى في جميع القيمة إذا كان السيد مديناً ديناً يستغرق كل التركة . ومن أحكامه أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولا يرهن ولكن يستخدم ويؤجر . لحديث ابن عمر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المدبر لا يباع ولا يوهب ولا يورث وهو حر من الثلث ^(١) » .

والعتق على صفة : ومثال ذلك أن يقول لعبده إذا بشرتني بخبر سار فأنت حر . لأنه عتق على وجود صفة فجاز كالتدبير .. فإن قال ذلك في المرض فهو من ثلث المال ، وإن قال ذلك في حالة الصحة فهو من رأس المال سواء وجدت الصفة في حالة الصحة أو في حالة المرض ..

والاستيلاد : وهو طلب الولد من الأمة . ولو كانت الأمة مشتركة بينه وبين غيره ، أو ثبت له الملك فيها مآلاً كما لو ولدت بنكاح ثم ملكها .. أو وطئ الأب جارية ابنه فولدت فادعاه الأب فهذه الأمة تصبح بذلك أم ولد تعتق بموت سيدها . والأصل في ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه عن الرسول عليه الصلاة والسلام قال « من ولدت منه أمتة فهي حرة من بعد موته » .. وتعتق من رأس المال لأنه إتلاف حصل بسبب الاستمتاع ^(٢) .. ويملك السيد وطأها واستخدمها وإجارتها وتزويجها لأنها باقية على ملكه . وإنما تثبت لها الحرية بعد موته .. !!

والمكاتبة : وقد جعلها التشريع الإسلامي سبيلاً من سبل العتق أيضاً . وهي عقد بين السيد والعبد بلفظ الكتابة أو ما يؤدي معناها كأن يقول لعبده كاتبتك على مائة دينار . أو جعلت عليك ألفاً تؤديها إلى نجوماً أول نجم كذا وآخره كذا .. فإذا

(١) المذهب في فقه الشافعية باب العتق ج ٢ .

(٢) المذهب في فقه الشافعية ج ٢ ص ٢٠ .

قبل العبد ذلك انعقدت الكتابة .. والأصل في ذلك قول الله تعالى « والذين يبتغون
 الكتاب مما ملكت أيمانكم فكايتهم إن علمتم فيهم خيراً ^(١) » . وقد حجب الإسلام
 في الكتابة ، بل أمر بها حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب أنس بن مالك
 بالدرّة حينما امتنع عن مكاتبة عبده سيرين بعد ^(٢) .. ولا تجوز الكتابة إلا من جائز
 التصرف في المال لأنه عقد على مال .. ويملك المكاتب بعقد الكتابة اكتساب المال
 بالبيع والاجارة والصدقة والهبة والأخذ بالشفعة وغير ذلك من كل تصرف في المال
 يعود لمصلحته ومصلحة ماله .. وأخيراً إذا أدى بدل الكتابة عتق . وإن عجز حتى
 ولو كان عن آخر نجم من نجوم بدل الكتابة بقى عبداً . لما روى عمرو بن شعيب رضى
 الله عنه عن أبيه عن جده أن النبي عليه الصلاة والسلام قال « المكاتب عبد ما بقى
 عليه من كتابته درهم ^(٣) » . ولأنه علق عتقه على دفع مال فلا يعتق منه شيء مع بقاء
 جزء من المال .. وحرصاً على تخليص رقبة المكاتب جعل الشارع معاوته على أداء
 ما عليه من البر فقال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن
 البر من آمن بالله... إلى قوله وفي الرقاب ^(٤) » أى وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم .
 وقد عاون رسول الله عليه الصلاة والسلام السيدة جويرية رضى الله عنها في الكتابة
 وتزوجها . وإن هذا لقليل من كثير من النصوص الواردة في فضل معاونة المكاتب
 على فك رقبتهم مما يدل على مبلغ تشوف الإسلام إلى تحرير العبد بأية وسيلة !!
 فأنت ترى كيف تدرج الإسلام في إلغاء الرق بما شرعه من الوسائل المتقدمة ،
 وكيف عالج مشكلة الرقيق فحلبها بما يتفق ومصلحة السيد ومملوكه . وبذلك أسدى
 الى الإنسانية يداً بيضاء يقدرها خصومه قبل أصدقائه ، ويدين بها العالم على مدى
 العصور .

(١) سورة النور آية ٣٣ (٢) من الشوكاني ص ٢١٩ ج ٦ .

(٣) من الشوكاني ص ٢٦٧ ج ٦ . (٤) سورة البقرة آية ١٧٢ .

ومع كل ما تقدم ، لم يترك التشريع الإسلامى المملوك الذى لم تتح له وسيلة من وسائل التحرير يعامل كما كان يعامل من قبل بل شمله بالرعاية والعناية ، وجعل له حقوقاً تتجلى فيها الرحمة الكاملة والعطف الشامل . . وحسبنا أن نضع بين يدى القارئ تلك الأحاديث التى تتجلى لنا رحمة الإسلام بالرقيق وعنايته بأمره . . . !!

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « للملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق ^(١) » .

وكان آخر ما أوصى به الرسول أن قال : « اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتهم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فإنه ملككم إياهم ولو شاء للملكهم إياكم ^(٢) » .
وقال عليه الصلاة والسلام إخوانكم خولكم ^(٣) جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس » . وقال « لا يدخل الجنة خب ^(٤) ولا متكبر ولا خائن ولا سىء الملكة » .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يذهب إلى العوالى كل يوم سبت فإذا وجد عبداً فى عمل لا يطيقه وضع عليه منه . ويحدثنا التاريخ أيضاً أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء إلى بيت المقدس ومعه غلامه ولم يكن معها إلا ناقة واحدة فكانا يركبانهما على التناوب إلى أن اقتربا من تلك المدينة وكانت النوبة للغلام فأركبه الخليفة وسعى خلفه ماشياً على قدميه حتى وصلا . ولم يثنه عن الرحمة بالضعيف أبهة الخلافة ومركزها العظيم ، ولم تأخذه فى الشفقة به لومة لأئم . ولذلك

(١) الإحياء للغزالي ص ٤٩ ج ٤ . (٢) الإحياء للغزالي ص ٥٠ ج ٤ .

(٣) الخول العبيد . فعنى الحديث أن عبيدكم إخوانكم فيجب أن يعاملوا على هذا الأساس .

(٤) الحب الخداع الخبيث . وسىء الملكة هو سىء معاملة المالك .

قال لأبي عبيدة لما قال له : « إني أراك تصنع أمراً لا يليق فالأنظار متجهة نحوك » .
« قد كنا أذل الناس وأقل الناس فأعزنا الله بالأسلام . ومهما نطلب العزة بغيره
يذلنا الله ^(١) » .

وإنه ليبهرك ويملك زمام نفسك ما تراه في مبادئ الإسلام من مبلغ العفو عن
المملوك والغض عن هفواته ومقابلة ذلك بالإحسان إليه — فقد روى ابن عمر أن
رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كم نغفو عن الخادم ؟
فصمت عنه رسول الله ، ثم قال : اعف عنه في كل يوم سبعين مرة ^(٢) . وهذا كناية
عن كثرة العفو . وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء
فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة فعثرت وأراقها على رأس سيدها . فقال يا جارية
أحرقتنى . قالت : يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى . قال وما قال
الله تعالى ؟ قالت قال : والكاظمين الغيظ . قال : قد كظمت غيظي . قالت :
والعافين عن الناس . قال : قد عفوت عنك . قالت : زد فإن الله تعالى يقول : والله
يحب المحسنين . قال : وأنت حرة لوجه الله تعالى ^(٣) .

وقد رفع الإسلام من شأن الرقيق حتى في مخاطبته ومناداته فهي عن تحقيره
وإشعاره بما هو فيه من الاستعباد . فقد روى عن الرسول أنه قال « لا يقل أحدكم
عبدى أمتي .. وليقل فتى وفتاتى » . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : « اتقوا الله في الضعيفين : المملوك والمرأة » . وقال : « لقد أوصاني جبريل
بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » . وقد نهى الشارع عن
التمثيل بالمملوك وإيذائه . روى عن أبي حمزة الصيرفي قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله
عليه وسلم صارخاً فقال له النبي : مالك ؟ قال : سيدي رأى أقبل جارية له فجب ماذا كبرى

(١) ص ٧٨ من كتاب الرق في الإسلام لشفيق باشا .

(٢) الأحياء ج ٦ ص ٥٠ . (٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على بالرجل فطلب فلم يقدر عليه . فقال رسول الله : اذهب فأنت حر^(١) . وعن أبي مسعود قال : كنت أضرب غلاما بالسوط ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ... قلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : لو لم تفعل للفحتك بالنار^(٢) .

وقد أباحت الشريعة الإسلامية نكاح الرقيق فقال تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيماكم من فتياتكم المؤمنات^(٣)) . وقال (وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله^(٤)) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعتق أمة ثم تزوجها كان له أجران »^(٥) . وقد جعلت الشريعة للسيد تمام الحرية في أن يزوج مملوكه لمن يشاء من الأحرار والأرقاء ، ولم تجعل له الحق في التفريق بعد الزواج . كما أنها جعلت له الحق في أن يفترش أمته بشرط ألا يجمع بين الأختين ولا بين البنت وأمها والبنت وعمتها والخالة وابنتها وغير ذلك من كل ذى الرحم المحرم .. وقد جعل الإسلام للعبد نصف ما للحر في عدد الزوجات وعدد الطلقات كما جعل عدة الأمة والمدة وأم الولد والمكاتبة حيضتين إن كانت من ذوات الحيض ، ونصف الزمن المقدر للحررة إن لم تكن من ذوات الحيض ، ووضع الحمل إن كانت حاملا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » ، ولأن الرق منصف والطلقة والحيضة لا يتجزآن . وفي الحدود راعى الإسلام نهاية الرحمة والشفقة بالرقيق فجعله على النصف من الحر . قال تعالى : « فإن أتيتن بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب^(٦) » والمحصنات يقصد بهن في الآية الحرائر . فيجلد الرقيق سواء أكان

(١) الشوكاني ج ٦ ص ٢٠٥ . (٢) الشوكاني ج ٦ ص ٢٠٦ . (٣) سورة النساء آية ٢٥

(٤) سورة النور آية ٣٢ (٥) الشوكاني ج ٦ ص ٢٠٥ . (٦) سورة النساء آية ٢٥

ذكرا أم أثنى خمسين جلدة في جريمة الزنا . وأما الرجم فيعفى منه الرقيق لأنه لا يتنصف ، ولأنه تعلق به حق السيد ، فلورجم لفات حقه . وفي حد القذف يجلد الرقيق أربعين جلدة ويجلد في شرب المسكر عشرين جلدة ، أى على النصف من الحر . . . فأنت ترى أن الإسلام قد شمله بالرحمة حتى جعل عقابه على النصف من عقاب الحر . وذلك أنه فاقد الحرية فقد يمنعه سيده عن الزواج الذى به يعصم نفسه . وقد لا يمكنه من كل ما تشبهه نفسه فيقع في السرقة . فنظر الإسلام إلى كل هذه الظروف وشمل الرقيق بعين الرحمة الخالصة .

ولم يغفل الإسلام أمر تعليم الرقيق وتهذيبه بل رغب في ذلك وحث عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وتزوجها كان له أجران » . وكأن الإسلام بعد أن بسط على الرقيق جناح رحمته وعامله تلك المعاملة الحسنة ، لم يشأ أن يتركه يتخبط في ظلمات الجهالة ، بل مهد له طريق العلم والنور حتى يصير عضواً نافعاً في جسم المجتمع . وقد رأينا عند الكلام على الحالة الاجتماعية للموالى كيف كان العلم يسمو بصاحبه ويغنيه عن شرف الأصل والنسب ..

وفي ظل ما تقدم نستطيع أن نقرر أن الإسلام قد جعل للرقيق حقوقاً لم يكن يحلم بمثلها في وقت من الأوقات . ولعل ذلك من الأسرار التي حبيت الإسلام للنفوس وساعدت على انتشاره ونموه وازدهاره .

٤ — موازنة بين موقف الإسلام وغيره من الرقيق :

سنورد الآن بعض أمثلة يسيرة توضح لنا كيف كانت منزلة الرقيق عند غير المسلمين وكيف كانت معاملته عندهم ، لكي نستطيع على ضوء ذلك أن نوازن بين موقف الإسلام وغيره .

ففي الهند : كان يعامل الرقيق معاملة قاسية نزلت به إلى درجة أقل من درجة

الحيوان الأعجم . ذلك أن شريعة « ماني » جعلت الناس طبقتين : طبقة دينية (مستخدمة) وطبقة عليا .. ومن أحكامها أنه إذا اضطهد أحد رجال الطبقة الدينية أحد رجال الطبقة العليا فلا مندوحة من قتله ، وإذا سب واحداً فجزاؤه سل لسانه . وإذا وجد منه ازدراء وضع في فمه خنجرأ طوله عشر أصابع بعد إجمائه في النار ، وإذا نصح إلى أحد أفراد الطبقة العليا بما يتعلق بواجبه فإن الملك يأمر بوضع الزيت المغلي في فيه وفي أذنه . وإذا سرق أحد رجال الطبقة العليا من الدينئة عوقب بالغرامة . وإذا كان بالعكس عوقب بالإحراق ، وبالطبع هؤلاء لا سبيل إلى تحريرهم وخروجهم من رتبة الاسترقاق^(١) .

واليونان : على الرغم من كثرة الفلاسفة فيهم لم يكن من بينهم من اعتبر الاسترقاق منافياً للعدالة ومكارم الأخلاق مع مشاهدتهم ما يقع عليهم من صنوف العذاب وأنواع القسوة المتجاوزة حد الإنسانية . وقد أيد أرسطو مشروعيته فعرّف الرقيق بأنه « آلة ذات روح أو متاع قائمة به الحياة » ، ثم قسم الجنس البشري إلى قسمين أحرار وأرقاء بالطبع . وقد كانت معاملتهم للرقيق غاية في الشدة والقسوة ، يستخدمونه لأنفسهم أو لنفسه نظير أجر يدفعه كل يوم ، كما كانوا يعاقبونه بالجلد بالسوط والطحن على الرحي لأوهي الأسباب ، وكانوا يكونون الآبق على جبهته بالحديد المحمى في النار^(٢) . إلى غير ذلك .

والرومان : كانوا يعاملون الرقيق معاملة من أسوأ المعاملات ومن ذلك أنهم كانوا يستعملونه في مشاق حراثة الأرض وزراعتها وهو مكبل بالسلاسل والأغلال ، كما كان يجلد بالسياط ويعلق من يديه وتربط الأثقال في رجليه . وروى عن بعض أباطرة الرومان أنه كانت له فرقة موسيقية من الممالك فرأى أن يبتز سواعد الضارين على الآلة المسماة (الترومبيتا) وأن تربط مضاربها في أعضادهم لأجل ألا يتكفوا ثنى

(١) الرق في الاسلام لشفيق باشا ص ١٠ ، ١١ .

(٢) الرق في الاسلام ص ١٨ وما بعدها .

أذرعهم وهم يضر بون عليها . وكانوا يخلصون العبيد الذين يرغبون في خدمة نساءهم غير مبالين بموت من يموت في سبيل ذلك . ولقد روى عن بعضهم أنه كان يقرر بطن عبده ليضع فيها رجله خشية البرد . وكان بعضهم يلقي الرقيق للسّمك يأكله ليزكولمه^(١) .

وأما العرب في الجاهلية فكانوا بصفة عامة أحسن بكثير من غيرهم في معاملة الرقيق ... فكانوا يستعملونه في رعى الماشية حسبما تتطلبه معيشتهم ، وفي خدمة المنازل قليلا لأن غيرتهم كانت تمنعهم من التمكن لهم في المنازل . وكانوا يصحبونهم معهم في التجارة وفي الحروب وشن الغارات لحاجتهم إليهم في معاونتهم ، كما أنهم كانوا يفترون الإماماء ويسترقون من يولد لهم منهم ، وإذا ظهرت ملامح النجابة على أحد منهم استلحقوه بنسبهم وإلا بقى على حاله . ومن أمثلة ذلك عنقرة العبسي فهو ابن جارية ولكن والده شداداً استلحقه به لما ظهرت نجابته وشجاعته .. وكانوا في بعض الحالات يعتقون العبد إذا أظهر شجاعة مكافأة له ، كما كان التديير معروفاً عند بعضهم مكافأة للعبد على إخلاصه في خدمة سيده ! .

وأظن أن القارىء الكريم بعد أن بسطنا بين يديه مبادئ الإسلام ونظريته إزاء معاملة الرقيق وحل مشكلته ، وبعد أن سردنا أمامه تلك الأمثلة المتنوعة من معاملة الأمم الأخرى ومبادئهم في هذا الصدد — قد أتاحت له فرصة المقارنة والموازنة وأصبح في حل من إكبار موقف الإسلام والاعتراف بحميلة الخالد على الإنسانية .. ولكي تتمكن تلك الموازنة في ذهن القارىء يحسن بنا أن نورد كلمة مختصرة على سبيل الاستنتاج مما ذكرنا قبل ذلك ..

فأولا : حصر الإسلام مصدر الرق في أمر واحد وهو أن يكون الرقيق أسير

(١) الرق في الإسلام ص ٢٤ وما بعدها ، ومجلة نور الإسلام العدد الخامس من المجلد الخامس

مقال لفريد وجدي ١٣٥٣ هـ .

حرب مشروعة ضرب الإمام الرق عليه ، ومبعث هذه الحرب صد عدوان الكافرين وإعلاء كلمة الدين . وعند غيره مصادره كثيرة متنوعة : فمن سرقة من على شواطئ البحار ، ومن خطف في الطرقات ، ومن فقر يرمى بصاحبه إلى الأغنياء فيسترقونه ، ومن أسير حرب قد يكون مبعثها البغى والعدوان وقد يكون غير ذلك مما أدى إلى كثرة الرقيق عندهم إلى حد كبير تبعاً لمنابعه الكثيرة وسيله الغزير ! .

وثانياً : شرع الإسلام في شأن ذلك الرقيق سبلاً متنوعة لتحريره من عتق وتديير ومكاتبة وغير ذلك مما أوضحناه سابقاً ومما لم نتعرض له خشية التطويل الممل ، مما أدى إلى إقامة حواجز منيعة أمام سيل ذلك المنبع الوحيد ... وعند غيره كانوا يمسكون على الرقيق رغماً من مصادره الكثيرة وسيله الجارف ، ولا يجعلون له سبيلاً للتخلص من الرق إلا في بعض حالات نادرة عند بعض الأمم لا تنهض أن يكون لها أثر يذكر .

وثالثاً : رسم الإسلام لذلك الرقيق الذي لم يتح له القدر سبيلاً من سبل التحرير مراسيم المواساة في المعاملات من حسن رعايته في مأكله وملبسه وتعليمه وتهذيبه والرفق به والعطف عليه إلى غير ذلك ، مما جعل الأجنبي يتطلع إلى تلك المزايا العظيمة وليس أدل على ذلك من أولئك الذين كانوا يفرون من دار الكفر إلى دار الإسلام فيحتضنهم الإسلام منادياً بأنهم عتق أحرار .

وعند الأمم الأخرى كانوا يسومون الرقيق أنواع العذاب ، ويعتبرون الأرقاء آلة من الآلات التي سخرت لمصالحهم ، فينالون من الخسف والعسف ما يشعرون بأنهم خارجون عن طور الإنسانية .

ومن الخير لنا أن نتعرض لتلك الكلمة القيمة التي ذكرها العلامة جوستاف لوبون في كتابه الذي سماه حضارة العرب إذ يقول : « إن لفظة الرق إذا ذكرت

أمام الأوربي الذي اعتاد تلاوة الروايات الأمريكية المؤلفة من ثلاثين سنة ورد على
خاطره استعمال هؤلاء المساكين المثقلين بالسلاسل المكبلين بالأغلال المسوقين بضرب
السياط الذين لا يكاد يكفي غذاؤهم لسد رمقهم ، وليس لهم من المساكين إلا محبس
مظلم . « إلى أن قال : » وإنما الذي أراه صدقا لا ريب فيه هو أن الرق عند المسلمين
غيره عند النصارى ، وأن حال الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوروبا ..
ولم تكن زمرة المماليك التي ملكت مصر زمنا طويلا من غير الأرقاء . وقد
اشترى على بك وإبراهيم بك ومراد بك الجبار الذي هزم في معركة الأهرام . في أسواق
النخاسة ..

وليست مصر القطر الوحيد الذي يعامل فيه الأرقاء بالرفق والحسنى . فما تراه في
مصر ترى مثله في كل بلد خضع للإسلام^(١) .

(١) حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ ترجمة عادل زعير .

تذييل - ٢

أحكام الولاء في الإسلام

جاء الإسلام والولاء منتشر بين العرب في الجاهلية يتصرفون فيه حسبما توحى اليهم ضمائرهم ، لا يعتمدون في ذلك على قانون سماوى ولا دستور وضعى قام على أساس سليم وروعيت فيه مصلحة الطرفين المولى : وموليه .

فكان من الضرورى والخير ألا يهمل الإسلام تلك الرابطة والصلة التى بين المعتق والمعتق المسماة بالولاء . وكذلك تلك الصلة التى تكون بين المتحالفين المسماة أيضاً بالولاء . وكيف يهملها أو يتغاضى عنها وهى صلة نصره ومحبة ؟ والإسلام كما نعلم يدعو إلى المحبة والتعاون لأنهما من المبادئ الهامة التى تقوم عليها نهضة الأمم وسيادة الشعوب ... ولذا فإنه اعتبر الولاء كالنسب إبقاء عليه وتنمية له فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الولاء لمة كالحمة النسب » ^(١) .

ولا شك أن هذا المعنى كان من الأسباب الهامة التى حبيبت الإسلام إلى النفوس وشجعت الكثيرين على الانضواء تحت رايته .

ألا ترى إلى موقعة الطائف فى السنة الثامنة من الهجرة حينما استعصت على المسلمين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً يقول : أيما عبد نزل فهو حر وولأؤه الله ورسوله ^(٢) ، فنزلت جماعة كبيرة كانت عوناً للمسلمين فى نجاحهم والظفر بأعدائهم ... إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة المتنوعة .

(١) - ١١٢٠ - (٢) - ١١٢٠ -

(١) نيل الأوطار للشوكاني ج ٦ ص ١٨٨ . (٢) المعقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٠ . (٣)

وقد قرر الإسلام من الولاء نوعين :

الأول : ولأء العتاقة الذى سببه العتق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« الولاء لمن أعتق »^(١) .

الثانى : ولأء الموالاة الذى سببه التعاقد . قال رسول الله عليه الصلاة والسلام :
« إن مولى القوم منهم وحليفهم منهم » . والمراد بالحليف مولى الموالاة لأنهم كانوا
يوثقون الموالاة بالحلف وذلك كأن يأتى رجل لآخر ، فيقول له : أنت مولاى ترثنى
إذا مت وتعقل عنى إذا جنيت ، فيقول له : قبلت^(٢) . وقد كثر نوع مولى الموالاة
بعد الإسلام لأن الإسلام أعز العرب ورفع من شأنهم حتى صاروا سادة وأصحاب
شوكة وقوة فكان أهل البلاد الأخرى يحنمون بهم ويتحالفون معهم .

وقد جعل التشريع الإسلامى لهذين النوعين من الولاء أحكاماً خاصة نرى من
الخير أن نعرض لبعضها .

١ - ولأء العتاقة :

إذا عتق العبد بأى طريق من الطرق التى ذكرناها عند الكلام على « تدرج
الإسلام فى إلغاء الرق »^(٣) كان ولاؤه لسيده ، إذ هو الذى منحه الحرية ، فهو مولى
نعمته ، ومولى نعمته أحق وأولى بولائه دون غيره . ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة
والسلام « الولاء لمن أعتق » ومعنى ذلك أن الولاء لمن أعتق لا لمن شرطه لنفسه من
بائع أو موصى أو واهب أو نحو ذلك كما كانت تفعل العرب فى الجاهلية فى بعض
الأحيان ...

ويترتب على هذا الولاء أثران عظيمان ، الأثر الأول : أن السيد يدفع الدية عن

(١) فتح البارى ٥ - ٢٥٨ .

(٢) المبسوط للسرخسى ٣ ص ٣٨ ، ٤٥ . (٣) راجع ص ١٥٤ من الكتاب .

مولاه إذا جنى جناية. والحكمة في ذلك أن المعتق ينتصر بمعتقه . ولذا قرر الفقهاء في باب الديات أن حكمة ضم العاقلة ^(١) إلى الجاني في الدية ، أن الجاني ما جراه على ارتكاب جريمته إلا انتصاره بعشيرته ، فكانت عاقلته مقصرة في تركها مراقبته فضمت إليه في الدية دون غيرها .

والأثر الثاني : الإرث . فيرث السيد معتقه على أساس أنه عصبه له سببية . إذ السيد قد أحياه معنى بإزالة الرق عنه ، ألا ترى أنه بالعتق يثبت له كثير من الأحكام والحقوق لم تكن له من قبل كتولي القضاء والشهادة والسعي إلى الجمعة والخروج إلى صلاة العيدين . فكان ذلك إحياء معنى ، ومن أحيا غيره معنى ورثه ، كالوالد فيصير الولاء كالولاد ، والولاد يوجب الإرث فكذلك الولاء ، ولأن السيد يغرم دية المولى فيرثه حيث أن الغنم بالغرم ^(٢) .

وإنما يرث المعتق مولاه إذا لم يكن للمولى عصبه نسبية كالأب أو العم مثلاً . وكذلك إذا لم يكن له ورثة من أصحاب الفروض قد استغرقوا كل تركته وإلا فهم أولى من المعتق بذلك ^(٣) .

٢- ولأهـ الموالاة :

وذلك كأن يقول رجل لآخر: ليس لي عشيرة ولا ناصر وإني أنضم إليك وإلى عشيرتك فتنصرني وتدفع عني نوائبي وإن مت كان ميراثي لك فينعتقد بينهما عقد موالاة . وقد اعترف الإسلام بهذا النوع من الولاء فقال رسول الله صلى عليه وسلم : « إن مولى القوم منهم وحليفهم منهم » . والمراد بالحليف مولى الموالاة لأنهم كانوا يؤكدون الموالاة بالحلف .

(١) العاقلة هي الأهل والعشيرة .

(٢) تكملة فصح القدير للكمال بن الهمام فقه حنفى ج ٧ ص ٢٨٣ .

(٣) المذهب في فقه الشافعية ص ٢٣ .

وقد آخى النبي صلى الله وسلم بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك بعد الهجرة — وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار — آخى بينهم على النصرة في الحق والمواساة والتوارث ... وقد بذل الأنصار في ذلك جهدهم حتى عرض سعد بن الربيع ، الأنصارى على أخيه عبد الرحمن بن عوف المهاجرى نصف ماله ، وكان له زوجان فقال : اختر إحداهما أطلقها وتزوجها . وإلى هذا الولاء بين المهاجرين والأنصار يشير الله تعالى بقوله : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ^(١) » .

وهناك من النصوص الشرعية ما يدل على عدم اعتراف الإسلام بهذا النوع من الولاء . وذلك كقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ^(٢) » . وكقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لأحلف في الإسلام » لأن الإسلام أغنى عن ذلك إذ يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة ^(٣) » .

ومن أجل ذلك نشأ اختلاف العلماء في شأن ولأء الموالاة : هل أقره الإسلام أو أبطله وألغاه ؟. روى أن الشعبي كان يقول : « لا ولأء إلا ولأء العتاقة » . وبه أخذ الشافعى والإمام مالك وهو مذهب زيد بن ثابت . وهؤلاء يرون أن آية « وأولو الأرحام » نسخت آية « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » وأن هذا كان في الجاهلية وفي بدء الإسلام ، ثم أبطله الإسلام وألغاه حيث كان هو نسب من لا نسب له وناصر من لا ناصر له ، وأن المؤاخاة التي عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار انقطعت في الميراث وبقيت في التواد والمناصرة حينما أعز الله الإسلام وجمع الشمل وأذهب الوحشة وجعل المؤمنين كلهم إخوة .

والروى عن عمر وابن مسعود وعلى وابن عباس أن الإسلام قد أقر عقد الموالاة

(١) سورة الأثقال آية ٧٢ . (٢) آخر سورة الأثقال (٣) سورة الحجرات آية ١٠

وبهذا قال الحنفية . والذي يترجح عندى هو ما ذهب إليه الأحناف لأن الرسول عليه الصلاة والسلام سئل عن رجل أسلم على يد رجل آخر ووالاه فقال عليه الصلاة والسلام « هو أحق الناس به بحياه ومماته » .

وأما آية « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » فإنها نزلت لأنهم كانوا يقدمون هؤلاء الموالى على ذوى الأرحام فى الميراث . وعلى ذلك يكون قوله تعالى : « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » مقيد بعدم وجود أحد من ذوى الأرحام فإن وجد ذوو الأرحام فبعضهم أولى ببعض . ومرتبة مولى الموالاة تكون بعد ذوى الأرحام ^(١) .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام « لا حلف فى الإسلام » فيقصد به النهى عما كان يحصل من العرب فى الجاهلية ، أى لا ينبغي أن يكون فى الإسلام حلف مثلاً كان يحصل فى الجاهلية إذ كانوا يتعاقدون على النصر فى الحق والباطل ، ويقدمون مولى الموالاة على ذوى الأرحام . فالإسلام ألغى القبيح من ذلك وأقر الحسن ؛ فأوجب التعاون على البر والتقوى حيث قال : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ^(٢) . وقدم أولى الأرحام فى الإرث على مولى الموالاة فقال : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » ولا شك أن هذا إجراء حكيم يتمشى مع المنطق السليم . ومن أجل ذلك ترجح عندى مذهب الأحناف فى هذا الموضوع .

ولعل من إتمام الفائدة أن نذكر بعض أحكام هامة ذكرها الأحناف حول ولاء الموالاة فنقول :

إن ولاء الموالاة قد نشأ عن عقد التحالف — كما ذكرنا من قبل — وأساس العقود أن تصدر ممن هو أهل لإصدارها حتى يترتب عليها أثرها المقصود . لذلك اشترط فيمن يصدر منه الإيجاب فى عقد الموالاة أن يتوفر فيه البلوغ والعقل والحرية .

(١) فتح المعين على شرح الكنز فقه حنفى ٣ ص ٢٨٦ ، تكملة فتح القدير ٧ ص ٢٨٩ .

(٢) سورة المائدة آية ٢

ولما كانت العرب تتناصر بالقبائل أغناهم ذلك عن الموالة ، ومن هنا قال الأحناف : يشترط ألا يكون المولى عربياً لأن نسبهم معروف وقد أغناهم التناصر بالقبائل عن التناصر بالموالة . كما أنهم يشترطون أن يتضمن عقد الموالة دفع السيد للدية إذا جنى المولى جناية على أن يرثه السيد بعد موته . ويشترطون ألا يكون له ولاء عتاقة لأن المعتق هو صاحب الحق إذ ذاك . وألا يكون له ولاء موالة مع أحد وقد دفع الدية عنه في جناية ما . لأن دفع الدية يستتبع ثبوت الولاء للسيد بجميع حقوقه . ولو دفع عنه بيت المال الدية فإن ولاءه يكون لجماعة المسلمين ، ولا يملك تحويله إلى أحد بعينه ... إذا توفرت هذه الأحوال في عقد الموالة ترتب عليه آثاره المقصودة منه . وصار ولاءه لمن تحالف معه ، وبمقتضى هذا الولاء يرثه بطريق التعصيب . وتكون رتبته بعد ذوى الأرحام كما تقدم لضعفه عن ولاء العتاقة الذى جعلت رتبته بعد العصبية النسبية وقبل ذوى الأرحام . وبهذا يخالف ولاء الموالة ولاء العتاقة .

وهناك نوع مخالفة أخرى وهى أنه لو اشترط في عقد الموالة التوارث من الجانبين صح وورث كل منهما صاحبه . أما ولاء العتاقة فالمعتق لا يمكن أن يرث سيده . أما باقى الأنواع مما كان يتعامل به العرب فى الجاهلية فإن الإسلام لم يقرها ولم يعبأ بها بل هدمها وهددهم عليها بالوعيد الشديد ... فمن ذلك مولى الرحم فقد كان يكتسب الولاء بالتزوج من موالى بعض القبائل فينسب إلى القبيلة التى تزوج من موالىها ، وقد أبطل الإسلام هذا النوع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » (١) .

ومعقول أن زواج المولى من موالى قبيلة أخرى لا يكون مبرراً لنقل ولائه إلى تلك القبيلة لأنها لم تكن صاحبة نعمة وفضل عليه بنحو عتق أو تحالف على النصرة

(١) ابن عابدين ص ٨١ ، ٨٢ ج ٥ .

والمودة ، وإلا سادت القوضى وتبرم كل مولى بسيده وانتقل بولائه إلى من يحب ويهوى . وفي ذلك تقويت حق المنعم .

وظاهر الحديث أنه إن أذن له مواليه بالانتساب إلى غيرهم جاز . ولكن يجب ألا يفهم هذا من الحديث . لأن التقييد في الحديث قد جاء على الغالب . فإن غالب ما يقع من هذا إنما يكون بغير إذن الموالى . ونظير ذلك قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » . فلا يقصد من الآية حل قتل الأولاد إذا لم يخش الفقر . ولكن هذا القيد لبيان أن غالب ما كان يحصل إنما هو بسبب خشية الفقر . وإذن فؤلاء الرحم باطل . وكما لا يجوز للشخص أن ينتسب إلى غير أبيه لا يجوز له أن يتولى غير مواليه .

وقد رأيت أن يختم هذا الموضوع ببيان بعض أحكام تتعلق بالولاء كان العرب يتعاملون بها ويسرون عليها في الجاهلية فأبطلها الإسلام مراعيًا في ذلك المصلحة العامة ومتمشيًا مع العقل والحكمة .

فمن ذلك أنهم كانوا أحياناً يعتقدون عبيدهم سائبة . والسائبة كما جاء في القاموس :
المهمله ، والعبد يعتق على أن لا ولاء له لأحد . ومن ذلك سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة
كان مملوكاً لبثينة امرأة أبي حذيفة فأعتقته سائبة . والإسلام لم يقر مثل هذا العمل
الخطأى * محافظة على تلك النسمة أن تصبح شريفة طريفة الجوع والعري وعودى
الزمن . روى هذيل بن شرحبيل قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال إني أعتقت عبداً
لئى جعلته سائبة فمات وترك مالا ولم يدع وارثاً . فقال عبد الله : إن أهل الإسلام
لا يسيبون . وإنما كان أهل الجاهلية يسيبون . وأنت ولى نعمته ولك ميراثه . وإن
تأثمت وتخرجت فى شيء فنحن نقبله ونجعله فى بيت المال ^(١) .

ومن الأعيان في الجاهلية أنهم كانوا أحياناً يبيعون المملوك ويشترون الولاء

(۱) صحیح مسلم ج ۱۰ ص ۱۴۸ .

لأنفسهم . وقد اعتبر الإسلام مثل هذا من الشروط الفاسدة التي لا يترتب عليها أثر .
 روى ابن عمر أن عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها أرادت أن تشتري جارية
 فتعتقها . فقال أهلها : نبيحك على أن ولاءها لنا . فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله
 عليه وسلم فقال : « لا يمنعك ذلك فإنما الولاء لمن أعنتق » ^(١) . ثم قال : « ما بال
 أناس يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ؟ من اشترط شيئاً ليس في كتاب الله
 فليس له وإن شرطه مائة مرة » ^(٢) .

وكانوا أحياناً يبيعون الولاء ويهبونه . وقد ألغى التشريع الإسلامي ذلك ونهى
 عن مثل هذه التصرفات . لأن الولاء أمر معنوي كالنسب . فكما أن النسب لا يباع
 ولا يوهب ، كذلك الولاء . روى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى
 عن بيع الولاء وعن هبته ^(٣) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولاء لحمة
 كل لحمه النسب لا يباع ولا يوهب ولا يورث » ^(٤) .

وبهذا قضى الإسلام على تلك الأساليب المنكرة التي كان مبعثها الأنانية والجهل
 وأقام مكانها مبادئ سامية ترمي إلى المصلحة العامة وتصلح لسياسة الأمم والشعوب
 في جميع الأزمنة والعصور .

(١) فتح الباري ج ٥ ص ٢٥٨ .

(٢) فتح الباري ج ٥ ص ١٠٣ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) نيل الأوطار للشوكاني ج ٦ ص ١٨٨ .

فهرس الاعلام (١)

١٠

ابراهيم بن الأشتر ١١٠، ٣٦، ٣٠
ابراهيم بن محمد ١١٩، ١١٨، ١١٥، ٩٧
ابراهيم بن الوليد ٣٣
الأبرش ١٢٦، ٦٤
ابن خذامر ٧٧، ٧٦
أبو أيوب المورياني ١٣٤
أبو بحر عبد الله بن اسحاق ٩٠
أبو بكر بن أبي قحافة ١٧، ١١، ٢٣، ٢٦، ٨٠،

١٤٨، ١١٣، ٩٥

أبو ثابت سليمان بن سعد الحنفي ٦٦
أبو جعفر المنصور ١١٩، ٦٥، ١٣٠، ١٣٤،
١٤٧

أبو سفيان صخر بن حرب ١٩، ١٨، ٢٣، ١٤٥
أبو سلمة الخلال ١٣٣، ١٢٠
أبو الصيلاء صالح بن طريف ٥٨
أبو العباس الأعمى ٩٢
أبو العباس السفاح ١١٩، ١٢٠، ١٣١، ١٣٢
أبو عزة الجمحي ١٣
أبو عمرو بن العلاء ٨٦
أبو مسلم الخراساني ٩٨، ٩٧، ٤٩، ٤٥
١١٨، ١١٥، ١٢٤، ١٢٨، ١٣١، ١٣٢

أبو منصور طلحة بن زريق ١٢٢

أبو هاشم عبد الله ٩٧

الأحنف بن قيس ٦٣، ٦٢

أسامة بن زيد ٢١

أسامة القنوخى ٧٨، ٧١، ٥٣

أسد بن عبد الله القسرى ١١٦

إسماعيل بن يسار ١٤٤، ١٠٣، ٩٣

أشرس بن عبد الله الساهي ٥٨

الأشعث بن قيس ٢٧، ٢٦

أمية بن عبد الملك ٥٤

أيوب بن شرحبيل ٧٧

أيوب السختياني ٨٧

ب

البختري بن أبي درهم ١١٧

بشار بن برد ١٣٧، ١٣٦، ١٣٤

بلال بن أبي رباح ١٤٥، ٤٣، ٢٣، ١٧

بكير بن وشاح ١١٦

بنان بن سمعان التهدي ٩٧

ث

ثابت قطنة ٤١

ج

جديع بن علي (الكرماني) ١١٨، ١١٧

الجراح الحكمي ٧٤

جهم بن صفوان ١١٥

ح

الحارث بن ثابت ٢٣

الحارث بن سريج ١١٥، ١١٣، ١٠٥

الحجاج بن أرطاة ١٣٢، ١٣١، ٤٣

(١) لم تذكر في هذا الفهرس أسماء المؤلفين لوجودها في فهرس المراجع ، وأيضا تركنا بعض الأسماء التي ليست لها أهمية كبيرة .

« س »

السائب بن فروخ = أبو العباس الأعمى
السائب بن مالك الأشعري ١٠٩
سالم مولى أبي حذيفة ١٧٥
سرجون بن منصور ٦٦
سعد بن الربيع ١٧٢
سعيد بن جبير ١٤٣، ٩٥، ٨٩، ٨٦، ٤٧
سامان الفارسي ١٧
سليط بن عبد الله بن عباس ٤٥
سليمان بن عبد الملك ٧٨-٧٦، ٦٣، ٣٢
سليمان بن كثير ١٢٢
سليمان بن يسار ٨٨، ٨٤
سهيل بن عمرو ٢٣
سوار بن عبد الله ٦٥، ٤٥
سيبويه ١٣٧، ٩١، ٩٠
« ش »

« ش »

شيث بن ربيعي ١٠٩
شجاع بن الوليد ٤٣
شعبة بن ظهير التمشيلي ٤١
الشعبي ٨٨، ٣٨
شيبان الحروري ١١٨

« ص »

صالح بن عبد الرحمن ٦٦
صفية بنت حبي بن أخطب ٤٠
صهيب الرومي ٢٣

« ض »

الضحاك بن فيروز الديلمي ١٠٦
الضحاك بن قيس ٢٩

« ط »

طارق بن زياد ١٢٧
طاووس (فقيه أهل اليمن) ٨٩، ٨٨

الحجاج بن يوسف الثقفي ٥٦، ٥٢، ٤٩
١١١، ١١٠، ٨٦، ٧٩، ٧٧، ٧٤، ٦٦، ٥٧
١٤٣، ١٤٢

الحسن البصري ٩٥، ٨٩-٨٦، ٤٧
الحسن بن علي ١٠٧، ٦٥، ٦٢، ٦١، ٣٢، ٢٩
الحسين بن علي ١٠٩، ١٠٨، ٤٩، ٣٩، ٣٢
الحصين بن نمير ٣٠، ٢٩
الحكم بن عتبة ٨٨
حماد عجرد ١٣٨
حيان بن شريح ٧٣

« خ »

خالد بن برمك ١٣٤، ١٣٣
خالد بن صفوان ٣٧
خالد بن الوليد ٩٠
خالد الحذاء ٨٧
خالد القسري ١١٧، ٩٧، ٥٤، ٥٢، ٣٠

الخطاب بن محمد السلمي ١٢٢
الخليل بن أحمد ٩١، ٩٠

« د »

دعبل بن علي الخزازي ٣٣
داود بن علي ١٣٠

« ر »

ربيعة بن نزار ٣٣
ربيعة الرأي ٨٨، ٨٥
رفيع بن هذيل ٣٧

« ز »

زفر بن الحارث ٢٩
زياد بن أبيه ٥٣، ٥٢
زيد بن أسلم ٨٨
زين بن ثابت ٤٤، ٤٠
زيد بن حارثة ٤٤، ٤٠
زيد بن الخطاب ٨٠
زيد بن علي ٦٤

«ع»

عائشة (أم المؤمنين) ١٧٦، ٢٦
عبد الحميد بن عبد الرحمن ٧٤
عبد الحميد بن يحيى ٦٦
عبد الرحمن بن الأشعث ١١٠، ١٠٥، ٥٧
١٤٤، ١٤٣، ١١١
عبد الملك بن مروان ٣٩، ٣٢، ٣٠، ٢٩
٥٢، ٤٤ — ١٠٩، ١٠٧، ٧٠، ٦٦، ٦٣، ٥٤
٤٤١، ١١٦، ١١٠

عبد الله بن أبي سرح ٢٥، ٢٤
عبد الله بن جعفر ٧٠، ٦٥، ٦٢، ٦١
عبد الله بن خازم ١٠٩
عبد الله بن الزبير ٨٨، ٨٧، ٤٩، ٣٢، ٢٩
١٤٢، ١٠٩ — ١٠٦
عبد الله بن زياد ٥٢، ٣٦
عبد الله بن سبأ ٩٦
عبد الله بن عباس ٨٨، ٦١
عبد الله بن عمر ٨٥، ٨٤، ٧٠، ٢٣، ٢١
١٧٦، ١٦٢، ٩٤، ٨٧

عبد الله بن عمرو ٨٨
عبد الله بن لهيعة ٨٧
عبد الله بن مطيع ٣٧
عبد الله بن المقفع ١٣٨
عبد الملك بن قطن القهري ١٢٧
عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ١٢٥، ٩٣
عبيد الله بن الحجاج ١٢٨، ٥٣
عثمان بن عفان ٦٠، ٢٧ — ٢٤، ١٩
عدي بن أرطاة ٧٤
عدي بن زيد ١٥
عطاء بن أبي رباح ٨٩، ٨٨، ٨٦، ٨٥
عطاء بن عبد الله الخراساني ٨٨
عقبة بن زرعة ٨٠
عقبة بن معيط ١٢
عقيل بن حسان الليثي ١٢٢

عكرمة (مولى بن عباس) ٨٥

علي بن أبي طالب ٦٠، ٤٩، ٤٨، ٢٧، ٢٦
١٤١، ١٠٧، ٩٧ — ٩٥
علي بن الحسين بن علي ٣٩
علي بن الحليل ٤٦
عمر بن الخطاب ٧١، ٥٢، ٢٨، ٢٦ — ٢٠
٩٧٢، ١٦١، ١٤٠، ١١٣، ١٠٥، ١٠١
عمر بن عبد العزيز ٦٤، ٦٠، ٥٧، ٥٦، ٣
١٤٣، ١١٢، ٨٧، ٨١ — ٦٩

عمران بن حطين ٨٧
عمرو بن الحصين ٩٢
عمرو بن الزبير ١٠٦
عيسى بن عمر النحوي ٩١، ٩٠
عنزة العبسي ١٦٦

«ف»

فاطمة بنت محمد (ص) ١٠٧، ١٧
فاطمة الخزومية ١٧
الفرزدق ٩٠
فيروز بن يزدجرد ٢٢

«ق»

القاسم بن محمد ٨٥
قتادة بن دعامة ٨٧
قيس الخزومي ٨٥

«ك»

كسرى أبرويز ١٥
كسرى أنوشروان ٨٣
كيسان (مولى علي بن أبي طالب) ٩٦

«ل»

الليث بن سعد ٨٧

«م»

مجاهد بن جبر ٨٩، ٨٨، ٨٦، ٨٥
محمد بن الأشعث ١٣٢
محمد بن بشير الخارجي ٤٠

« هـ »

هارون الرشيد ١٣٥، ١٣٤
هانيء بن هانيء ٥٨
هذيل بن شرحبيل ١٧٥
هشام بن اسماعيل المخزومي ٧٠
هشام بن عبد الملك ٤٩، ٥٢، ٥٣، ٥٨
٦٣، ٦٥، ٩٣، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٦، ١٢٨،
١٣٦

« و »

والبة بن الحباب ١٣٨، ٤٥
الوليد بن عبد الملك ٣٢، ٦٦، ٧٠، ٧٧
الوليد بن يزيد ٣٠، ٣٢، ٤٩، ٦٤، ٦٥
٩١

« ي »

يحيى بن خالد البرمكي ١٣٤، ١٣٥
يحيى بن زيد ٤٩
يحيى بن كثير ٨٩
يحيى بن يزيد ١٢٢
يربوع الفزاري ٦٧
يزدجرد ١٠٧
يزيد بن أبي مسلم ٥٧
يزيد بن حبيب ٨٧
يزيد بن خالد ٥٤
يزيد بن ضبة ٩٣، ١٠٢
يزيد بن عبد الملك ٣١، ٥٧، ٧٨، ٨٤
يزيد بن معاوية ٣٢، ٤٩، ٥٢، ٦١، ١٠٦
١٣٩
يزيد بن المهلب ١١٦
يوسف بن عمر الثقفي ٣٠، ٤٩

محمد بن الحنفية ٣٠، ٤٩، ٩٧، ١٠٧، ١٠٨
محمد بن خالد القسري ٣١
محمد بن سيرين ٨٧، ٨٨
محمد بن عبد الله (ص) ٨، ١٧، ٧٣، ٧٤، ١٠٧
محمد بن علي بن الحسين الباقر ٩٧
محمد بن المنكدر ٨٨
المختار الثقفي ٢٩، ٣٦، ٣٧، ٤٩، ١٠٢، ١٠٥
١٠٧-١١٠

مروان بن أبي حفصة ١٣٥
مروان بن الحكم ٢٩، ٣٢
مروان بن محمد ٣٢، ١١٧-١١٩، ١٢١-
١٢٣، ١٢٥، ١٢٩
مروان شاه بن زاذان ٦٦
المسيب بن بشر الرياحي ٤١
مصعب بن الزبير ٣٨، ١٠٩
معاوية بن أبي سفيان ٢٩، ٣٢، ٣٩، ٤٩، ٥٣
٥٤، ٦٢، ٦٣

مقاتل بن حكيم ١١٨
مقاتل بن حيان ١١٥
مكحول (فقيه الشام) ٨٧-٨٩
المهلب بن أبي صفرة ٤٨، ١٠٧، ١١٦

« ن »

نافع بن الأزرق ٤٨
نافع بن جبير ٣٤، ٣٥
نافع مولى عبد الله بن عمر ٨٤، ٨٥، ٩٤
نجدة الخروزي ١٠٩
النعمان بن المنذر ١٥، ١٦
نصر بن سيار ٥٨، ١١٤، ١١٥، ١١٧
١١٨، ١٢٠
نوح بن دراج ٦٥

فهرس الاماكن والبلدان

الحجاز ١٠٩،١٠٣،٧٠	د ا
حضر موت ٤٨	أبيورد ١٢٣،١١٨
حصن ١١٩،٦٧،٣٢	اخنا ٥٤
الحميمة ١٢٠،١١٩	أستراليا ١٤٧
حلب ٧٠	الأسكندرية ٨٤،٨٣
حنين ١١	آسيا ٤٨
الحيرة ٧٤،١٥	آسيا الصغرى ٥١
د خ	أفريقية ١٢٧،١٢٦،٧١،٦٤،٥٩،٥٧
خازر ٣٦،٣٠،٢٩	١٤٧
ختلان ١٢٣	الأندلس ١٢٧،٥٩
خراسان ٨٨،٨٠،٧٦،٧٤،٥٨،٥٤،٤٩	أوروبا ٤٨
١٢٥ - ١٢٢،١٢٠ - ١١٢،١٠٩،٨٩	إيران ٦٧
خرطنية ١١٥	د ب
خناصره ٧٠	بخارى ٥٨
د د	بدر ١٣
دمشق ١١٩،١١٤،٣٣ - ٣١	البصرة ٨٩ - ٨٦،٦٥،٥٧،٤٨،٤٧
الدهناء ٤٥	١١٣،١٠٩
دير الجاجم ١١١	البطائح ٤٨
د ر	بسات ١٩
الروحاء ٤٠	بلخ ١٢٣
الروم = الرومان ١٦٥،١٠٠،٨٣،٢٠	البلقاء ١١٩
د س	بيت المقدس ١٦١
سبته ١٢٧	بيروت ٨٤،٨٣
سجستان ١١١	د ج
سرخس ١٢٣	الجزيرة العربية ١١٣،٤٨،١٧
سمرقند ٥٨	جلولاء ١٨
السند ٧٣،٥٨	جندى سابور ٨٤
السواد ٨٠،٥٤،٥١،١٥	الجوزجان ٤٩
	د ح
	الحبشة ٣٣

«ش»

الشام ٨٣،٧٠،٦٦،٤٩،٣٧،٣١،٣٠
١١٣،١١١،١٠٩،٨٩-٨٧،٨٤

«ص»

الصحراء الافريقية الكبرى ٤٨
الصعيد ٤٤
الصغانيان ١٢٣
صفين ١٢٥،٤٨
الصين ٤٨

«ط»

الطائف ١٦٩،١١١،٧٠،٤٩
الطالقان ١٢٣
الطخارستان ١٣٦،١٢٣
طليطلة ١٢٧
طنجة ١٢٦
طوس ١٢٣

«ع»

العراق ٧٤،٦٦،٥٤،٥٣،٤٩،٤٨،٣٨
١٢٠،٩٥،٨٦
العروض ١٠٩
الموالي ١٦١

«ف»

فارس = الفرس ٨٣،٤٨،٣٣،٢٠،١٥
١١٠،١٠٠،٩٥،٩١،٨٤
الفرات ٤٩
فلسطين ٧١

«ق»

القاهرة و، ٧
قباء ٨٨
قديد ٩٣
قرطبة ١٢٧

«ك»

كرمان ٤٨

كش ١٢٣

الكوفة ٨٨،٨٦،٧٤،٦٥،٤٩،٤٦
١٢٠،١١٥،١١٣،١١٢،١١٠،١٠٩

«ل»

لواته ٧٣

«م»

ماوراء النهر ١١٤،٥٩،٥٨
المحيط الأطلسي ٤٨
المحيط الهندي ٤٨
المدينة ٨٨،٨٥،٨٤،٧٠،٦١،٤٩،٢١،٩
١٢٦،١٢٥،١١٣،١٠٦،٩٣،٨٩
مرج راهط ٢٩
مرو ١٢٣،١١٨،٥٩
مرو الروز ١٢٣،١١٨
مصر ٧١،٧٠،٦٦،٥٣،٤٩،٤٤،٢٥
١٢٨،٨٧،٨٤،٨٣،٧٦،٧٣

المغرب ٧٦

مكة ٨٩،٨٨،٨٦،٨٥،٧٠،٤٩،٩
١٤٥،١١٣،١٠٦

«ن»

نسا ١٢٣،١١٨
نصف ١٢٣
نيسابور ١٢٣

«ه»

هراه ١٢٣
الهند ١٦٤

«و»

الولايات المتحدة ١٠٤٧

«ي»

اليامة ٨٩،٤٨
البن ١١٤،٨٩،٨٨،٦١،٥٦،٤٨،٣٣
يوشنج ١٢٣
اليونان ١٦٥

مراجع الكتاب حسب الترتيب الزمني

المراجع العربية

- (١) جرير ١١٠ هـ « ديوان جرير بن عطية الخطفي » .
- (٢) أبو يوسف ١٩٢ هـ « الحراج » ليعقوب بن ابراهيم . المطبعة السلفية .
- (٣) يحيى بن آدم ٢٠٣ هـ « الحراج » . المطبعة السلفية .
- (٤) ابن هشام ٢١٣ هـ « سيرة ابن هشام » لأبي محمد بن عبد الملك .
- (٥) ابن عبد الحكم ٢١٤ هـ « سيرة عمر بن عبد العزيز » .
- (٦) أبو عبيد ٢٢٤ هـ « الأموال » لأبي عبيد القاسم بن سلام .
- (٧) ابن سعد ٢٣٠ هـ « الطبقات الكبرى » لأبي عبد الله محمد بن سعد طبع ليدن ١٣٢٢ هـ .
- (٨) الجاحظ ٢٥٥ هـ « البيان والتبيين » . لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . مطبعة الفتوح ١٣٣٢ هـ .
- (١٠، ٩) ابن قتيبة ٢٧٦ هـ « عيون الأخبار » . طبع دار الكتب الملكية .
- (١٢، ١١) البلاذري ٢٧٩ هـ « المعارف » . المطبعة الاسلامية ١٣٥٣ هـ .
- أحمد بن يحيى بن جابر .
- « فتوح البلدان »
- « أنساب الأشراف » طبع الجامعة العربية بفلسطين ١٩٣٦ م .
- أحمد بن أبي داود الدينوري .
- (١٣) الدينوري ٢٨٢ هـ « الأخبار الطوال » . طبعة ١٣٣٠ هـ .
- أبو عبادة الوليد بن عبيد .
- (١٤) البحتري ٢٨٤ هـ « كتاب الحماسة » ط الأب لويس شيخو ١٩١٠ م .
- أبو العباس محمد بن يزيد .
- (١٥) المبرد ٢٨٥ هـ « الكامل » . مطبعة التقدم ١٣٢٤ هـ .
- أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر .
- (١٦) اليعقوبي ٢٩٢ هـ « تاريخ اليعقوبي » . ط النجف ١٣٥٨ هـ .
- أبو جعفر محمد بن جرير .
- (١٨، ١٧) الطبري ٣١٠ هـ « تفسير الطبري » .
- « تاريخ الأمم والملوك » . المطبعة الحسينية .
- الإمام أبو الحسن الأشعري .
- (١٩) الأشعري ٣٢٤ هـ « مقالات الاسلاميين » . ط استامبول ١٩٢٩ م .
- أبو عبد الله محمد بن عبدوس .
- (٢٠) الجهشيارى ٣٣١ هـ « الوزراء والكتاب » . مطبعة حنفى .

- (٢١) المسعودي ٣٤٦ هـ أبو الحسين علي بن الحسين .
« مروج الذهب ومعادن الجوهر » . المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ
- (٢٢) ابن عبد ربه ٤٣٩ هـ أبو عمرو أحمد بن محمد .
« العقد القريد » المطبعة الشرقية ١٣١٦ هـ
- (٢٣) الكندي ٣٥٠ هـ أبو عمر محمد بن يوسف الكندي .
« كتاب الولاة وكتاب القضاة » بيروت ١٩٠٧ م . مطبعة
الآباء اليسوعيين .
- (٢٤) الأصفهاني ٣٥٦ هـ أبو الفرج علي بن الحسين .
« الأغاني » . ط ساسي .
- (٢٥) ابن القوطية ٣٦٧ هـ أبو بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية .
« تاريخ فتح الأندلس » .
- (٢٦) ابن النديم ٣٨٥ هـ محمد بن اسحاق النديم البغدادي .
« الفهرست » . المطبعة الرحمانية .
- (٢٧) المقدسي ٣٨٧ هـ أبو عبد الله محمد بن البشاري .
« أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ط ليدن .
- (٢٨) البغدادي ٤٢٩ هـ الامام أبو منصور البغدادي .
« الفرق بين الفرق » . مطبعة المعارف .
- (٢٩) الماوردي ٤٥٠ هـ أبو علي الحسين علي بن محمد .
« الأحكام السلطانية » . مطبعة السعادة .
- (٣٠) الحصري ٤٥٣ هـ أبو اسحاق ابراهيم بن علي .
« زهر الآداب أو ثمر الألباب » . المطبعة الرحمانية ١٣٤١ هـ .
- (٣١) البيهقي ٤٥٨ هـ « السنن الكبرى » للسيهقي .
- (٣٢) ابن عبد البر ٤٦٣ هـ « الانباه على قبائل الرواه » لابن عبد البر .
- (٣٣) الواحدى ٤٦٨ هـ أبو الحسن علي بن أحمد .
« أسباب النزول » . ط هندية ١٣١٥ هـ .
- (٣٤) الفيروزبادى ٤٧٦ هـ أبو اسحاق ابراهيم بن علي الفيروزبادى . الشيرازى « المذهب »
في فقه الشافعية .
- (٣٥) السرخسى ٤٨٣ هـ أبو بكر محمد بن أحمد السرخسى .
« المبسوط » في فقه الحنفية .
- (٣٦) الغزالي ٥٠٥ هـ أبو حامد الغزالي .
« إحياء علوم الدين » ط لجنة نشر الثقافة الاسلامية .
- (٣٧) البغوى ٥١٦ هـ « مصابيح السنة » .
- (٣٨) الشهرستانى ٥٤٨ هـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .
« الملل والنحل » طبعة على هامش « الفصل لابن حزم » .

- (٣٩) ابن عساكر ٥٧١ هـ أبو القاسم علي بن الحسين .
« التاريخ الكبير » . مطبعة روضة الشام .
- (٤٠) ابن الجوزي ٥٩٧ هـ جمال الدين أبو الفرج .
« تاريخ عمر بن الخطاب » . مطبعة التوفيق الأدبية .
- (٤١) المطرزي ٦١٠ هـ أبو الفتح ناصر بن عبد السيد .
« المغرب في ترتيب المغرب » .
- (٤٣، ٤٢) ياقوت ٦٢٦ هـ شهاب الدين أبو عبد الله الحموي .
١ « معجم الأدباء » ط الدكتور رفاعي .
٢ « معجم البلدان » . مطبعة السعادة .
- (٤٥، ٤٤) ابن الأثير ٦٣٠ هـ أبو الحسن عز الدين بن علي المعروف بابن عبد الواحد الشيباني .
١ « أسد الغابة في معرفة الصحابة »
٢ « الكامل في التاريخ »
يوسف بن محمد الياسي .
- (٤٦) الياسي ٦٥٣ هـ « الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام » . مخطوط بدار
الكتب الملكية رقم ٣٩٩ تاريخ
الفتح بن علي البنداري الأصفهاني .
« زبدة النصر ونخبة العصرة » .
- (٤٧) الفتح الأصفهاني القرن السابع الهجري
- (٤٨) ابن أبي الحديد ٦٥٥ هـ عز الدين بن عبد الحميد بن هبة الله المدائني .
« شرح نهج البلاغة » .
- (٤٩) النووي ٦٧٦ هـ أبو زكريا محي الدين بن شرف .
« تهذيب الأسماء واللغات » . ط منير الدمشقي .
شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم .
« وفيات الأعيان » . ط الوطن .
- (٥٠) ابن خلكان ٦٨١ هـ « البيان المغرب في أخبار المغرب » .
- (٥١) ابن عذاري القرن السابع الهجري
- (٥٢) ابن الطقطقي ٧٠٩ هـ محمد بن علي بن طباطبا .
« الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية » .
المطبعة الرحمانية ١٣٤٥ هـ
- (٥٣) ابن منظور ٧١١ هـ « لسان العرب » لابن منظور .
- (٥٤) ابن كثير ٧٧٤ هـ عماد الدين أبو الفداء الدمشقي .
« البداية والنهاية » .
- (٥٥) ابن أبيك القرن التاسع الهجري أبو بكر عبد الله بن أبيك .
« كنز الدرر . وجامع الفرر » .
تصوير شمسي بدار الكتب الملكية رقم ١٥٧٨

- ٥٧،٥٦) ابن خلدون ٨٠٨ هـ عبد الرحمن بن محمد .
 ١ « المقدمة » . ط المطبعة الشرقية .
 ب « العبر وديوان المتدا والخبر » .
 ٥٨ (المقريزي ٨٤٥ هـ تقي الدين بن أحمد المقريزي .
 « المواعظ والاعتبار » المعروف بخط المقريزي .
 ٥٩ (ابن حجر العسقلاني ٨٥٢ هـ « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » .
 ٦٠ (العيني ٨٥٥ هـ بدر الدين محمود .
 « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » .
 تصوير شمسي بدار الكتب الملكية رقم ١٥٨٤
 جمال الدين أبو المحاسن . ٨٧٤ هـ (٦١) الأتابكي
 « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » .
 ط دار الكتب الملكية .
 عبد الرحمن بن أبي بكر . ٩١١ هـ (٦٢، ٦٣، ٦٤) السيوطي
 ١ « تاريخ الخلفاء » .
 ب « حسن المحاضرة » .
 ج « الوسائل إلى معرفة الأوائل » مخطوط بدار الكتب
 الملكية رقم ٣٩١
 محمد بن علي الشوكاني . ١٢٥٥ هـ (٦٥) الشوكاني
 « نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار » .
 أبو الفضل شهاب الدين . ١٢٧٠ هـ (٦٦) الألوسي
 « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » .
 الفخيز سليمان بن عمر الشهير بالجلجل . القرن الثالث
 « الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين بالدقائق الحفية » . عشر الهجري

بعض المراجع الحديثة حسب الترتيب الأبجدي

- ٦٩، ٦٨) أحمد أمين (بك) ١ فجر الاسلام .
 ب ضحى الاسلام .
 ٧٠) أحمد زكي صفوت جمهرة خطب العرب .
 ٧١) أحمد الشايب تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني .
 ٧٢) أحمد شفيق (باشا) الرق في الاسلام ترجمة المرحوم أحمد زكي باشا .
 ٧٤، ٧٣) جورجى زيدان ١ تاريخ التمدن الاسلامى .
 ب تاريخ أدب اللغة العربية .

- ٧٥، ٧٦) حسن إبراهيم حسن
(الدكتور)
- ٧٧) شبلي نعمان
- ٧٨) عبد الرحمن بدوي
- ٧٩) عبد العزيز الدوري
(الدكتور)
- ٨٠) عبد العزيز طاحون
- ٨١) عبد المقصود نصار
- ٨٢) محمد الحضري بك (المرحوم)
- ٨٣) محمد سامي عاشور
- ٨٤، ٨٥) محمد كرد علي
- ٨٦) محمود زيادة
- ٨٧) وجيه الكيلاني
- ٨٨) مجلة الرسالة
- ١ تاريخ الاسلام السياسي ٢٠١
ب النظم الاسلامية .
انتقاد كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » .
من تاريخ الحاد في الاسلام .
العصر العباسي الأول .
الرق في الاسلام . رسالة مخطوطة بمكتبة الأزهر .
نهاية الحكم الاسلامي بالأندلس . رسالة مخطوطة بمكتبة الأزهر .
محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية .
النظريات السياسية عند اليونان والرومان .
١ رسائل البلغاء .
ب الاسلام والحضارة العربية .
الحجاج الثقفي . رسالة مخطوطة بمكتبة الأزهر .
الدعاة من المتألهين والمتنبئين .

المراجع الأجنبية

- ٨٩) دراسات إسلامية للعلامة جولدزيمير (بالألمانية) .
- ٩٠) حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون سنة ١٣٨٣ ترجمة محمد عادل زعير سنة ١٩٤٥
- ٩١) الخلافة ، قيامها وانحلالها وسقوطها ، بقلم ميور صدر بأدنبره سنة ١٨٨٨ الطبعة الرابعة سنة ١٩٢٤ بمراجعة فير
- The Caliphate — Muir - Revised by Weir — Edinburgh 1924.
- ٩٢) تاريخ الحضارة الاسلامية للمستشرق الروسي بارتولد . صدر بالروسية سنة ١٩١٨ وترجم إلى العربية سنة ١٩٤٢
- ٩٣) دراسات في حكم الخليفة معاوية الأول للاب هنري لامنس (بالفرنسية) باريس سنة ١٩٠٨
- Etudes sur le Régne du Calife Omayyade Moàwia Ier; Par H. Lammens Paris 1908.
- ٩٤) خلافة يزيد للأب لامنس . بيروت سنة ١٩٢١
- Le Califat de Yazid Ier - Beyrouth 1921.
- ٩٥) دراسات في القرن الأموي للاب لامنس بيروت سنة ١٩٣٠
- Etudes sur le siècle des Omayyades - Beyrouth 1930.
- ٩٦) حوليات الإسلام للأمير ليوني كاتاني . ميلانو سنة ١٩٠٥ وما بعدها باللغة الإيطالية .
- Annali dell Islam - Leoni Castani - Milano - 1905 etc.
- ٩٧) فتح العرب لمصر لبتلر . صدر بالانجليزية سنة ١٩٠٢ (أكسفورد) وترجمه إلى العربية محمد فريد أبو حديد بك سنة ١٩٣٣ .
- ٩٨) تاريخ الفرس الأدبي لبراون
- A Literary History of Persia - E. Browne.

(٩٩) الدولة العربية وسقوطها لفهوزن . صدر بجوتنجن سنة ١٩٠٢ (بالألمانية) وترجمه مارجريت فير إلى الإنجليزية سنة ١٩٢٧ باسم :

The Arab Kingdom and its Fall—Je Wellhausen translated by Margaret G. Weir
Calcutta 1927.

(١٠٠) دائرة المعارف الاسلامية في مواد مختلفة (الأصل الفرنسي) .

(١٠١) دائرة المعارف الإيطالية في مادة (مولي) .

(١٠٢) تاريخ فارس بقلم سيكس الطبعة الثالثة بلنديره سنة ١٩٣٠ .

A History of Persia - by Sykes - 2 vols 3rd revised edition - London 1930.

(١٠٣) القومية . تقرير المعهد الملكي للشئون الدولية — لنديره سنة ١٩٣٩ .

Nationalism - London 1930.

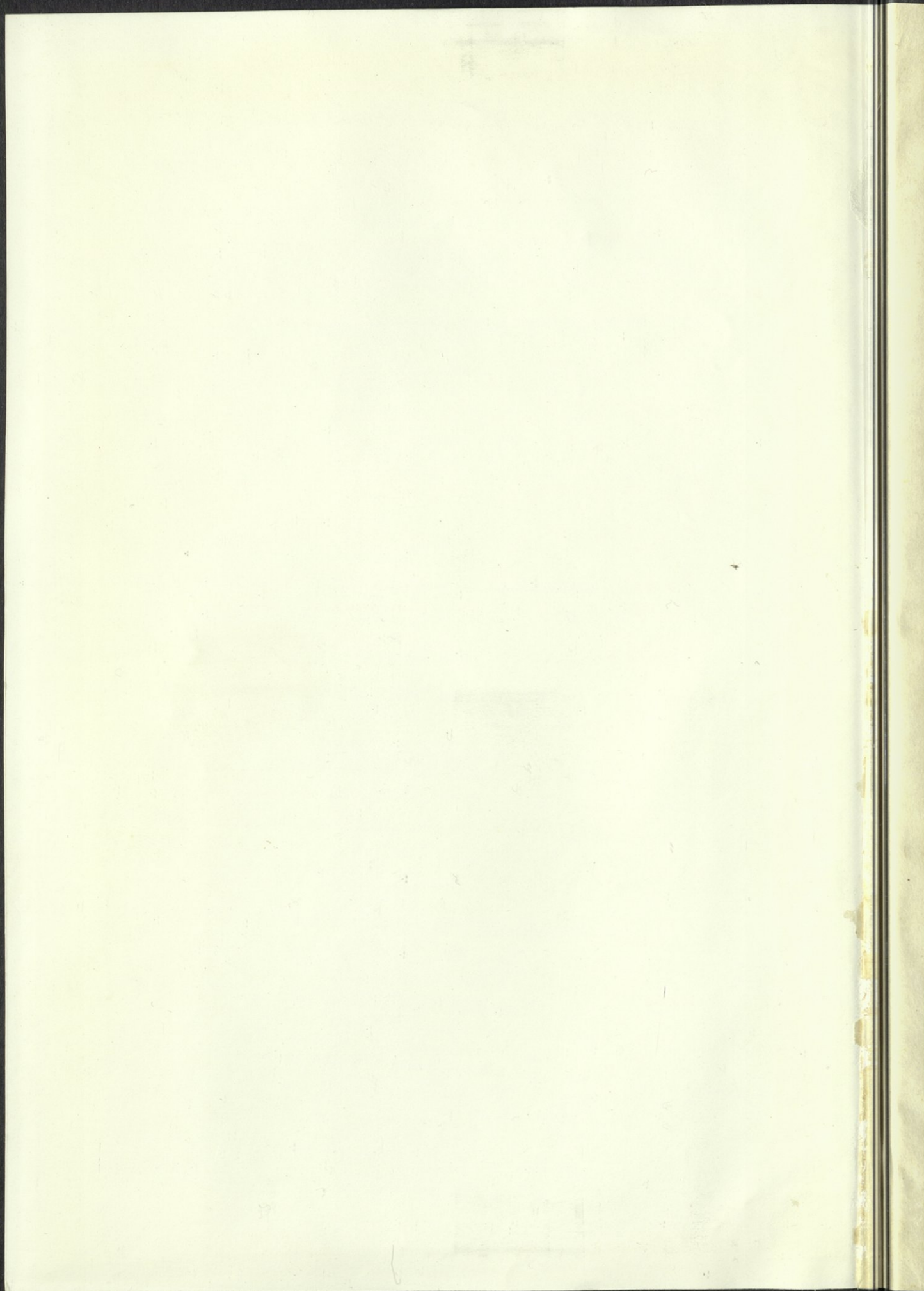
(١٠٤) النظام الجديد للعالم . بقلم مولانا محمد علي — لاهور سنة ١٩٤٣ .

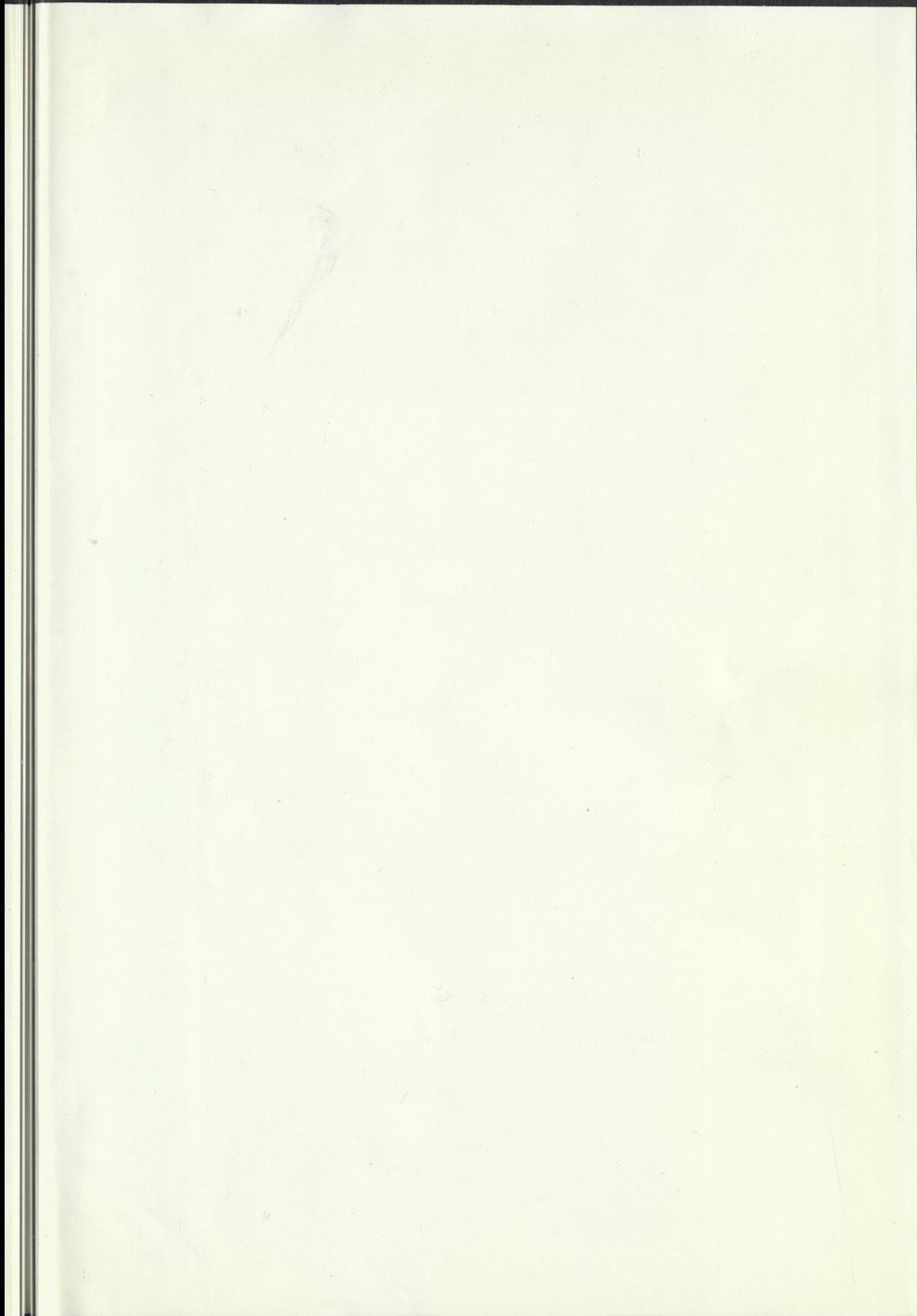
The New World Order - M. ALI - Lahore 1943.

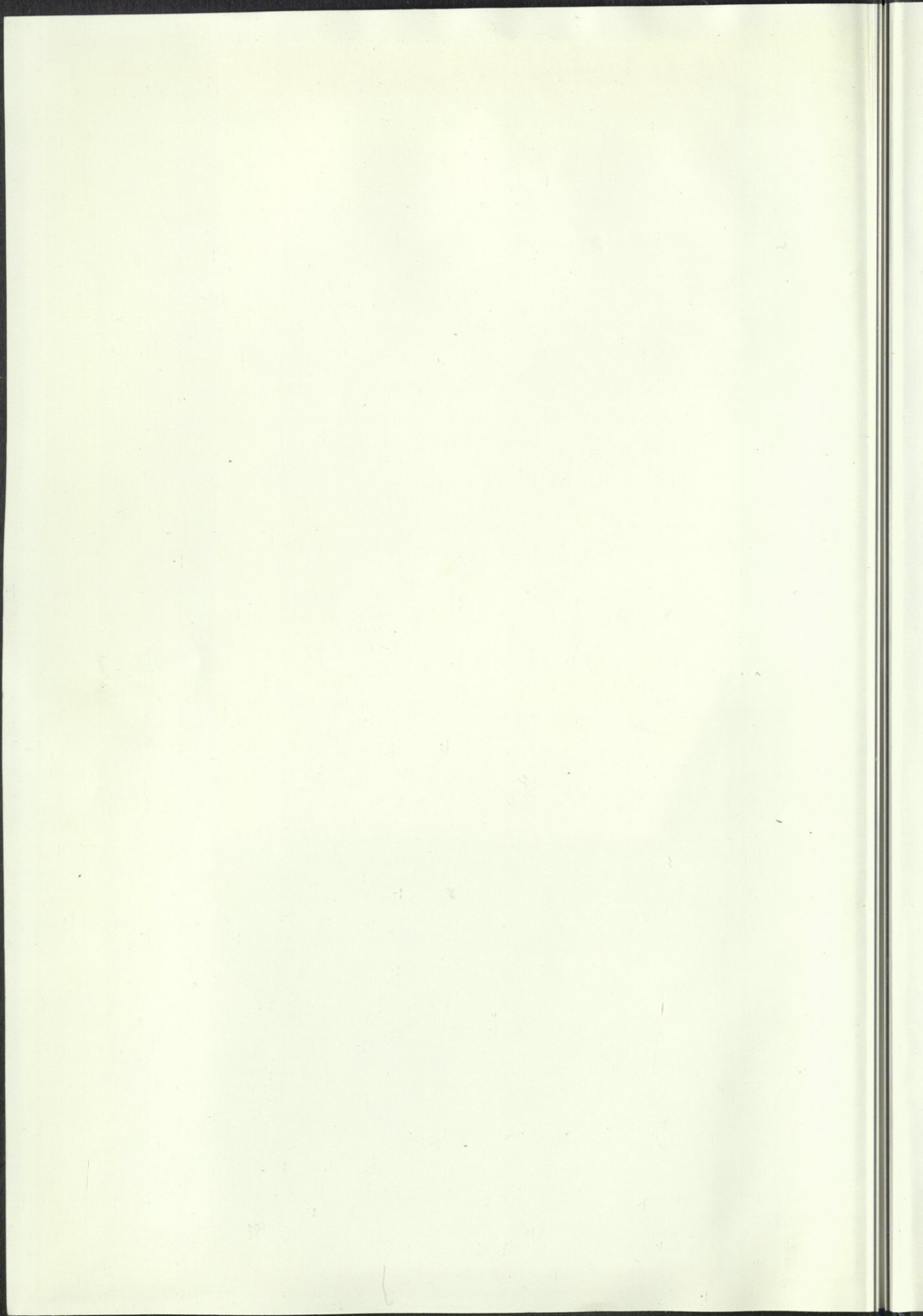
نصويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية يسيرة نعتقد أنها لا تخفى على فطنة القارئ ولكنتنا نرجو تصحيحها كماآتي :

١٧/١٠ ولا باليوم الآخر ، ٢/١٢ الرواية ، ١٠/١٤ الدية ، ٢٤/١٤ ج ٢٠/٢٠،٣
وإشغالا ، ٤/٣٢ مضر ، ١٤/٥٤ أعطيني ، ٨/٥٧ ابن الأثير، ١/٧٧ أيوب بن ، ١٥/١٢٧
لفهري ، ٤/١٦٣ النار ، ٢٢/١٦٣ آية ٢٥ ، ١٧/١٧٠،٢٥ موس ، ١٢،١٧٤ مخالفة .







LIB.

7 DEC 1980

JAFET LIB.

27 DEC 1980

JAFET LIB.

1 FEB 1995

JAFET LIB.

30 JUN 2004

Circulation Dept. I

JAFET LIB.

30 MAY 2006

7 DEC 1980

~~27 DEC 1980~~

1 FEB 1993

النجار، محمد الطيب
الموالي في العصر الاموي، ومذيل بب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010871

النجار، محمد الطيب
الموالي في العصر الاموي

297.09
N16m
C.1

